

فاوست

ميراث الترجمة



تأليف: جوته
ترجمة: محمد عوض محمد
تقديم: طه حسين



تجد فى هذه القصة صورة صادقة دقيقة لحياة العالم الأوروبى قبيل الثورة الفرنسية وإبانها، أى فى عصر الانتقال الذى وثب بأوروبا الوثبة الأخيرة من حياة القرون الوسطى إلى حياة العصر الحديث. ويقال إن فاوست الثانى يصور المثل الأعلى الذى يسمو إليه الرجل الفيلسوف وكيف يسمو إليه وكيف يظفر به. وقد تعمدت أن أتى بلفظ الشك هذا؛ لأن الذين فهموا فاوست قليلون. وقد أسأل نفسى أحياناً: هل فهمه جوته؟... ولعل أصدق حكم على هذه القصة، التى أقدمها الآن إلى القراء، حكم مدام دى استال عليها حين قالت:

"إن هذه القصة تضطرك إلى أن تفكر فى كل شىء، وإلى أن تفكر فى أمر آخر فوق كل شىء".

طه حسين

فاوست

المركز القومي للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1408
- فاوست
- جوته
- محمد عوض محمد
- طه حسين
- 2014

هذه ترجمة كتاب:

FAUST GOETHE

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

فاوست

تأليف : جوته

ترجمة : محمد عوض محمد

تقديم : طه حسين



2014

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جوته.

فاوست/ تأليف: جوته؛ ترجمة: محمد عوض محمد.

ط ١ - القاهرة: (المركز القومى للترجمة)، ٢٠١٤

٢٨٨ ص؛ ٢٤ سم

١ - القصص الألمانية.

٨٣٣

(أ) العنوان

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٦٥٥٠

I.S.B.N. 978 - 977 - 479 - 536 - 4

الترقيم الدولى ٤ - 536 - 479 - 977 - 978 I.S.B.N.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

7	كلمة للأستاذ الدكتور طه حسين
19	نبذة عن حياة الشاعر (1749-1832)
49	فاتحة فى السماء
57	فاوست «الجزء الأول من المساة»
75	أمام باب المدينة
91	حجرة الدراسة
105	حجرة الدراسة
127	حانة أورباخ فى لايبزغ
147	مطبخ الساحرة
161	طريق: فاوست - ومرغريت مارة
167	فى المساء
175	مستنزه
179	بيت الجارة «مارتا»
189	فى الطريق «فاوست وإبليس»
193	حديقة
203	كوخ صغير فى موضع آخر من الحديقة

207 غابة وغار
215 حجرة مرغريت
217 حديقة مارتا
225 لدى البئر
229 عند سور المدينة
231 فى ظلام الليل
239 كنيسة عظيمة
243 ليلة والبورغ
263 رؤيا ليلة والبورغ
271 المنظر: أرض فضاء
275 أرض فضاء
277 فى السجن

كلمة

للأستاذ الدكتور طه حسين

(١)

عرفته منذ أعوام هادئ النفس، صافى الضمير، كريم الخلق عذب الحديث، وكان يلذ لى أن أسمع له فائهم، كما كان يعجبني أن أتحديث إليه فيفهم عني؛ كل ذلك في سهولة ورفق، من غير تكلف ولا محاولة. وكنت أقدر أن بينه وبينى صلة خاصة تقرب المسافة بيننا أو تمحوها. ولم تكن هذه الصلة بالطبع تنشأ عن المادة التي اختص بها، وبرع فيها. فقد كان يقال إنه وصاف للأرض، ماهر في الوصف، مقوم للبلدان بارع في التقويم. درس في مصر ثم في إنجلترا وعاد إلى مصر يحمل إجازات راقية في الجغرافيا - وحظي من هذا العلم قليل، ولا يمكن إلا أن يكون قليلا؛ وإلا أن يكون مشوها بعض التشويه. أثر الخيال والخطأ فيه أكثر من أثر العلم والصواب - فلم يكن غريبا أن أبحث عن هذه الصلة التي كانت تقرب بينى وبين الأستاذ محمد عوض، حتى قال لى قائل: إنه يحب الأدب ويشغف به، ويعكف عليه حين يفرغ من وصف الأرض وتقويم البلدان. وقال لى قائل بعد ذلك: إنه يحب اللغات ويدرس منها ما يجد إلى درسه سبيلا. فهو يتقن الإنجليزية والألمانية ويحسن الفرنسية وله من التركية حظ ومن الفارسية نصيب؛ وهو إلى استظهاره النصوص العربية القديمة الغليظة لا يحب من اللغات الأجنبية التي يحسنها أو يلم بها إلا خلاصاتها العلمية والفنية والأدبية؛ لا يعنيه كثيرا أن يتكلمها في الأندية ودور التجارة؛ وإنما يعنيه أن يفهمها وينفذ إلى لبها الخالص. قال لى قائل هذا كله فقلت معجبا مبتسما: إنه ليذكرني بجوته، فقد كان هذا الشاعر

على ألمانيتها طلبة مسرفا فى الطموح إلى ما لا يعلم، يحسن لغات أجنبية ويلم بلغات أخرى ويحاول أن ينفذ إلى لباب هذه اللغات وأثارها الفنية والأدبية، لا تصرفه اللغات الجديدة عن اللغات القديمة، ولا تلهيه لغات الغرب عن لغات الشرق، فقد اتصل بالمستشرقين وقرأ صورا من الأدب العربى وحاول أن يترجم إلى الألمانية أو ترجم بالفعل القصيدة المشهورة:

إن بالشعب الذى عند سلع لقتيلا دمه ما يطل

ولم تكن اللغات وأدباها لتلهى جوته عن العلم، والجد فى تحصيله والإمعان فيه، فقد كان يعنى إلى آخر أيامه بالعلوم الطبيعية عناية لا تعدلها إلا عنايته بالأدب والفنون والفلسفة - قال صاحبه : وإن صديقنا ليحب جوته ويقف عليه كثيرا من وقته؛ وقد أخبرت أنه ترجم (فاوست) أو يترجمه. وقد أخبرت أنه يترجم من الألمانية، لا من لغة أخرى، وقد أخبرت أنه إذا فرغ من قطعة واستوثق من حسن الملاءمة بينها وبين الأصل الألمانى قابل بين ترجمته العربية وترجم مختلفة فى الإنجليزية والفرنسية ليطمئن إلى حسن وصحة نقله.

هنالك عنيت بالتودد إلى هذا الجغرافى الغريب. وانتهزت كل ما أتيج لى من فرصة لأتحدث إليه فأطيل الحديث. ولم أزل به حتى اضطررت إلى أن يعترف بأنه يترجم فاوست وبأنه قد مضى فى هذه الترجمة إلى أمد بعيد... ثم التقينا فى لندرة إبأن الصيف الماضى ومكنا أياماً لا نكاد نفترق، وكنا كلما التقينا إبتدأنا حديثاً لا ينقطع إلا حين نفترق كارهين. وكنت أفكر، كلما تحدثت إليه أو تحدث إلى، فى (فاوست) وترجمته لفاوست، وكنت أقول فى نفسى يجب أن تكون هذه الترجمة صحيحة دقيقة متقنة لأن نفس صاحبه قد تلونت بلون جوته، وفى حديثه سخرية متصلة هادئة دائماً، ولكنها عميقة لازعة دائماً... وكذلك جوته فى القسم الأول من فاوست، وهذا هو القسم الذى يترجمه صاحبه. ولست أدرى أذكر الناس أنى قدمت إليهم منذ سنين ترجمة صديق الزيات لآلام فترتر، وأنى اشتطرت فى هذه المقدمة ألا يكتفى المترجم الأدبى بإجادة الترجمة من لغة إلى لغة، بل أن يلبس نفس المؤلف وينقل إلى الناس شعوره وحسه وعواطفه وميوله وأهواءه كما يجدها المؤلف نفسه، اشتطرت هذا الشرط فى نقل

الآثار الفنية والأدبية. ولم أكن أشك وأنا أتحدث إلى مترجم فاوست أنه قد استطاع أن يلبس نفس جوته ويحس كما كان يحس، ويرى الأشياء كما كان يراها، لا فى أطوار الترجمة وحدها، بل فى حياته العادية المتصلة. وسيستطيع كل قارئ عرف الأستاذ أن يتحقق هذا بنفسه حين يقرأ (فاوست) فيرى نفس جوته، ثم يتحدث إلى المترجم فيرى كيف اصطبغت نفسه بتلك الصبغة، وكيف اتخذت لغته وأحاديثه هذه الألوان التي يراها فيعجب بها حين يقرأ ما فى (فاوست) من لغة وحديث.

رجل وقف الخلاصة من حياته على الجغرافيا واستطاع مع ذلك أن يعنى بالأدب، ويأخذ منه بحظ موفور. ثم أن يهجم على أشق الآثار الأدبية وأعسرهما، وأبعدها عن اللغة العربية، خليقٌ بالإعجاب والإكبار، وقد أكبرته وأعجبت به، وطلبت إليه فى شىء كثير من الإخلاص والمودة الصادقة أن يدع إلى تقديم ترجمته إلى جمهور القراء من أهل العربية فقبل مبتسماً وأحسبه كان راضياً، وأحسب أن هذا الرضا لم يكن يخلو من الإغتراب.

(٢)

ولكنى حين كنت أعرض على صاحبى هذه المقدمة لم أكن أقدر أنى سائررد كثيراً قبل أن أكتبها. وسأضطر إلى قراءة طويلة شاقة؛ منها اللذيذ الحلو ومنها الثقيل الممل، قبل أن أبدأ فى إملائها. ولم يكن صاحبى حين قبل ما عرضت عليه يقدر أنى سأضنيه وأعنيه وأؤخر صدور ترجمته الأشهر الطوال، قبل أن أدفع إليه هذه المقدمة. ذلك أن غرور الإنسان لا يعدله شىء، فنحن نظن بأنفسنا القدرة على تصريف حياتنا كما نحب ونهوى، حين تخضعنا هذه الحياة لضروب من العبث وألوان من التحكم لا نكاد نعرف لها مصدراً أو نقدر لها غاية. إنه لفى ترجمته منذ سنين يقدم عليها حيناً ويحجم عنها حيناً آخر، يحبها ويكرها، ينتصر وينهزم؛ ويغالب فيرضى ويكره. وإنى لفى ما أنا فيه من عمل مختلف، فيه ما يسر وفيه ما يسوء، وفيه على كل حال ما يصرفنى عن جوته وآثار جوته وترجمة هذه الآثار إلى اللغة العربية أو غيرها من اللغات. ثم يشاء الله فى يوم من الأيام أن يتم لصاحبى النصر، وأن يقدم ترجمته إلى المطبعة وأن تهياً هذه الترجمة لتلقى إلى الناس وأن يستنجزنى صاحبى ما وعدت فى الشتاء، فإذا أنا غريق

فى الفرزدق وجرير، ثم فى الربيع، فإذا أنا غريق فى الأخل وذى الرمة، ثم فى الصيف، فإذا أنا غريق فى أعمال أخرى ليست من هؤلاء الشعراء بسبيل؛ ولكنها ليست قريبة من جوته ولا مُرغبة فى قراءته والتفكير فيه.. وصاحبى ينتظر وأنا أعتذر، وهو يلح فى رفق وأنا أتعلم فى دعة. وكيف أقدم كتابا لم أقرأه ! أليس يجب أن أقرأ هذا الكتاب لأستطيع أن أقول عنه شيئا؟ فلأختلس إذن ساعات أو لحظات أقرأ فيها هذا الكتاب قراءة متفرقة مقطعة لا صلة بينها ولا جامع بين أجزائها. وعلى هذا النحو قرأت الكتاب فى أشهر.

ولكن أليس من الحق على أن أقرأ هذه الترجمة فى لغات أخرى غير اللغة العربية، وبأقلام أخرى غير قلم الأستاذ عوض، وأن أقارن بين ما أحدثت الترجمة العربية فى نفسى من أثر وأثارت من شعور وبين ما تحدثه وتثيره التراجم الأخرى فى هذه النفس؟ فلأختلس إذن ساعات ولحظات أخرى أقرأ فيها هذه التراجم. ولأقارن بين الترجمة الفرنسية مثلا والترجمة العربية لأنظر أيهما أحسن فى نفسى وقعا وأيسر إليها مسلكا. ثم لقد بعد العهد بينى وبين جوته فنسيته، والأدباء الأوربيون يذكرونه ويتناولون حياته وأثاره بالدرس والبحث فى غير ملل ولا انقطاع، فيكشفون فى كل يوم عن جديد ويظهرون فى كل يوم شيئا لم يكن معروفا. أليس من الحق على أن ألم بشيء مما يكتبون لأقدم هذه الترجمة للناس عن شيء من العلم والبصيرة ودون أن أتورط فى هذا الجهل المنكر الذى يتورط فيه من لا يقرءون ولا يتخرجون مع ذلك من الكتابة والإسراف فى الكتابة عما يعلمون وما لا يعلمون، لأختلس إذن ساعات ولحظات أخرى أقرأ فيها بعض ما كتب الناس عن جوته فى هذه الأعوام الأخيرة، وليحتمل صديقى الأستاذ عوض بعض المشقة فى هذه القراءة؛ فعليه أن يبحث لى عن الكتب وأن يحملها إلى. وعليه فى بعض الأحيان أن ينظر فى هذه الكتب ويعلم لى صحفا يحسن أن أقرأها أو أنظر فيها. فالكتابة عن جوته كثيرة كثيرة لا تكاد توصف؛ متشعبة تشعبا ليس من اليسير أن نحيط به؛ قوم يكتبون عنه طفلا، وآخرون يكتبون عنه شابا، وقوم يكتبون عنه فيلسوفا، هؤلاء يبحثون عن أسرته، وأولئك يدرسون رفاقه فى الصبا، هؤلاء يقفون جهودهم على حياته الغرامية، وأولئك يصرفونها إلى حياته العامة. هؤلاء يُعَنُون بفاوست الأول،

وأولئك يعنون بفاوست الثانى. وآخرون يعنون بفترتر. وقوم يعنون بقصص تمثيلية أخرى. وقوم يعنون بمقطوعات غنائية، وآخرون لا يفكرون فى جوته إلا من الناحية العلمية. وعلى هذا النحو يتشعب البحث وتمتد أطرافه مع امتداد الزمن وقدرة الباحثين على الدرس والتقيب. يحاول الباحثون والمنقبون أن يحيطوا بصاحبهم ويحصروه فى دائرة ما حتى لا تفلت منهم دقيقة من حياته أو آثاره. هم يدأبون فى ذلك وشخصية جوته تدأب فى العظم والامتداد. تمتد كما يمتد البحث. فإذا هى تفلت من الباحثين، وإذا شئ منها كثير لا يزال مجهولاً سيتعب الناس ويكلفهم ضرورياً من الجد، حتى إذا ظفروا به أو خيل إليهم أنهم قد ظفروا تبينوا أن شيئاً كثيراً من هذه الشخصية لا يزال بعيداً غامضاً عسيراً. وكذلك عظماء الرجال، لا يبلغون أوج العظمة حين يموتون، وإنما يبدأون هذه العظمة حين يموتون. وهم كالمثل الأعلى يطمعون الباحثين والساعين إليهم، يحثونهم بذلك على البحث والسعى، ولكنهم على ذلك يبعنون عنهم وينأون لأنهم يعظمون ويعظمون كلما طال عليهم الزمن أو بعد بهم العهد.

وقد كان جوته رجلاً عظيماً، فرضت عظمته على الإنسانية العاقلة الحساسة أن تحبه وتسعى إليه وتجده فى فهمه والوصول إلى دخيلة نفسه والظهور على عظمته وسر تفوقه. وهل فرغت الإنسانية من درس شكسبير؟ وهل قالت فيه كلمتها الأخيرة؟ كلا لن تفرغ الإنسانية من هذا الدرس ولن تقول هذه الكلمة، وكذلك لن تفرغ من درس جوته ولن تقول فيه كلمتها الأخيرة. لن تظفر بعظيم من عظمائها درساً وفهماً وتحليلاً حتى تظفر بمثلها العليا.

قرأت الترجمة العربية وتراجم أخرى فى لغات أخرى لفاوست، وألمت إذن بشيء مما يكتب الناس فى هذه الأيام عن جوته وعن آثاره وعن فاوست بنوع خاص. وأشهد لقد بهرتنى الترجمة العربية، فما ينقضى إعجابى بها، وما أجد إلى تحقيق الثناء عليها سبيلاً. أما الدقة فليس فيها شك، وحسبى أن أقارن بين هذه الترجمة العربية وتراجم أخرى فى لغات أخرى فانظر بالملاءمة التامة، وحسبى أن أرجع فى كثير من الأحيان إلى الأصل الألمانى مع مترجمين غير الأستاذ عوض، فإذا ترجمة صاحبي دقيقة دقة

لا غبار عليها، إلا فى مواضع قليلة أعلن إلى هو أنه تصرف فيها بعض الشيء، ولاحظت أن غيره من المترجمين الأوربيين تصرف فيها أيضا لأنها لا تستطيع أن تؤدى فى غير الألمانية.

ولقد قرأت فيما قرأت أن جوته قرأ فى آخر أيامه ترجمة فرنسية لفاوست أصدرها الشاعر الفرنسى المعروف جيراردى نرقال، فأعلن الرضا عنها والإعجاب بها وقال لبعض محدثيه إنه منذ سنين لا يحب أن يقرأ فاوست فى الألمانية وإن هذه الترجمة الفرنسية قد حبيت إليه النظر فى هذا الكتاب. كان ذلك قبل أن يموت جوته بسنة أو سنتين. وأشهد لو قدر لجوته أن يعيش إلى هذا العصر أو قدر لعوض أن تتقدم به الحياة إلى أوائل القرن الماضى لقال جوته فى ترجمته مثل ما قال فى ترجمة جيراردى نرقال. ففى هذه الترجمة العربية دقة، وفيها ظرف ورقة، لم نعرفهما فى التراجم العربية للآثار الأدبية الأوربية. فأتت تقرأ هذه الترجمة فيخيل إليك أنك تقرأ كتاباً لا ترجمة كتاب. لولا هذه الحواشى القيمة التى يلفتك المترجم بها إلى أنه يترجم كتاباً. فهو يشرح بعض نصوصه الغامضة أو يفسر بعض أسمائه الغريبة، أو يرد بعض معانيه إلى مصادرها الأولى، وقد تعودنا من الذين يترجمون الآثار الأوربية إلى اللغة العربية أن تثقل عليهم الترجمة، فيخففون من أنفسهم ثقلها بتكلف الألفاظ الغريبة، يلتمسونها فى المعاجم سواء ألفتها الأذان أم لم تألفها، وبالجمل الفخمة الضخمة يغمونها ويضخمونها ليخفوا ضعفهم فى الفهم أو قدرتهم على الأداء. فأما هذه الترجمة فسهلة يسيرة. كتبت باللغة التى يتكلمها الناس ويفهمونها، والتى تسمعها من المترجم حين تحدث إليه، ليس فيها غريب وليس فيها جملة منتفخة، وإنما هو كلام مألوف منسجم عذب، لا يصرفك عن المعنى ولا يلهيك عن الموضوع وكذلك ترجمة جيراردى نرقال فى الفرنسية دقيقة يسيرة واضحة إلا أن يكون الأصل غامضا فينبه المترجم إلى هذا الغموض كما ينبه المترجم العربى.

وشبه آخر بين المترجمين، وهو أن المترجمين أثرا النثر لأنه أيسر وأدنى، ولكنهما فى الوقت نفسه لم يهملوا الشعر ولم ينصرفا عنه الانصراف كله، فترجما بعض الأغانى

وبعض المواضع الأخرى شعراً لأن النثر لا يستقيم لها. ولكن جيرار دى نرغال كان شاعراً أما عوض فجغرافى. والغريب أن شعر هذا الجغرافى لا تنقصه الخفة والروعة والظرف فى أكثر الأحيان. وإن كان قد يتكلف من الضرورات ما قد كان يستطيع اجتنابه لو أنه صاحب شعر لا صاحب وصف للأرض وتقويم للبلدان...

ترجمة جيدة لا أعرف أنى قرأت ترجمة أخرى لأثر من الآثار الأوربية فى لغتنا العربية تعدلها أو تدانيها دقة وخفة وسهولة وظرفاً. فليهن هذا الجغرافى البارع فى فنه، على ما يقول الجغرافيون، هذا الحظ الموفور من البراعة فى الأدب والتصرف فى فنون الشعر والنثر فى غير جهد ولا تكلف ظاهر.

(٣)

وهل أنا فى حاجة إلى أن أحدث إليك عن جوته وفاوست بعد أن تحدثت إليك عن مترجمه؟ وهل تظن أنى أفيك شيئاً كثيراً من العلم إن قلت لك إن جوته ولد سنة ١٧٤٩ ومات سنة ٢٣٨١ ثم قصصت عليك فى إيجاز بالطبع ما تعود المترجمون أن يقصوه من حياة هذا الشاعر الفيلسوف؟ ألسنت تستطيع أن تظفر بهذا فى دوائر المعارف على اختلافها؟ وأنت لا تطمع منى فى أن أدرس لك هنا حياة جوته درساً مفصلاً. فأنا أرجو أن شوقك إلى قراءة فاوست فى اللغة العربية أشد من أن يدعك تقرأ حياة مفصلة لمؤلفه الآن. ولكن كلمة (فاوست) نفسه شىء لا بد منه قبل أن تبدأ فى قراءة هذه القصة الغريبة التى أثرت فى الحياة الأدبية والفنية لهذا العصر الحديث أثراً بعيدة لم تبلغ أمدماً بعد، ويظهر أنها لن تبلغ أمدماً قبل وقت طويل.

فالقصة قد ترجمت إلى اللغات الأوربية كلها، وقد فسرت وشرحت من أنحاء مختلفة، وقد مثلت فى الملاعب وغنيت فى دور الموسيقى. لحنها كبار الموسيقيين فى أوروبا المتحضرة، ثم انبسطت أشعتها حتى غمرت الآثار الأدبية المختلفة وتجاوزتها إلى الفلسفة، فليس هناك أديب من أدباء القرن الماضى ولا من أدباء هذا العصر إلا تأثر بفاوست، وليس هناك فيلسوف إلا تأثر بفاوست قليلاً أو كثيراً فى فلسفته ولا سيما بفاوست الثانى الذى هو إلى الفلسفة أقرب منه إلى الأدب والبيان.

وقد نحب أن نتعرف تاريخ فاوست فنجد فى ذلك شيئاً من المشقة والصعوبة. ذلك أن هذه القصة لم تكتب كما كتب غيرها من القصص التمثيلية التى أنشأها جوته. وإنما استغرقت كتابة فاوست الأول أكثر الحياة العاملة للشاعر الفيلسوف. بدأها شاباً ثم انصرف عنها راضياً أو كارهاً، ثم كان يعود إليها من حين إلى حين فيكتب منها منظراً أو بعض منظر، ثم ينصرف عنها عاماً أو أكثر من عام، ثم يعود إليها فيضيف جزءاً طويلاً أو قصيراً. وظل كذلك حتى أتمها أو خيل إليه أنه أتمها فى أوائل القرن الماضى. ثم انصرف عنها حيناً، ورجع إليها فكتب فاوست الثانى. والذى ينظر فى هذه القصة يلاحظ شيئاً ظاهراً من التفكك والفرق والبعد عن الوحدة الفنية، ويحس إحساساً قوياً بأن الكاتب لم يفرغ لها وقتاً بعينه ولم يرسم لها حدوداً معينة وإنما أنشأها على النحو الذى أشرنا إليه.. ولكنه، مع هذا، حين يقرأ القصة ويمعن فيها التفكير يشعر بهذه الوحدة الفنية الفكرية قوية أشد القوة، واضحة أشد الوضوح، فالشاعر لم يضع قصة تمثيلية، وإنما وضع حواراً فنياً فلسفياً، فهو إذن غير مقيد بالوحدة التمثيلية، ولكنه مقيد بالوحدة الفكرية الفلسفية، وقد وفق إلى هذه الوحدة توفيقاً غريباً. كتب هذه القصة فى أكثر من ثلث قرن، ولكنك لا تجد فيها ضعفاً ولا اضطراباً ولا اختلافاً، وإنما تقرأ فكأنك تقرأ لكاتب قد فرغ لموضوعه فائقته وأحسن تصويره وتأديته.

المصدر الظاهر لهذه القصة هى أسطورة الدكتور فاوست التى كانت شائعة فى أواخر القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث، والتى تناولها بعض الكتاب الإنجليز والألمان فكتبوا فيها كتباً مختلفة، بل وضعوها وضعا تمثيلاً، ولكن لهذه القصة مصادر أخرى، فلم تكن أسطورة الدكتور فاوست إلا قالباً صبت فيه فكرة أدبية فلسفية راقية، فهل من الحق أن جوته لم يتأثر بما سبقه إليه فولتير من السخرية اللاذعة فى خفة وظرف بكل شىء فى هذا العالم؟.

هل من الحق أنه لم يتأثر بما أثار لبنيتس من خصومة عنيفة بين أنصار الخير والشر حين أعلن نظريته التى لا يمكن أن تصاغ فى أحسن من الصيغة الإسلامية المعروفة، «ليس فى الإمكان أبدع مما كان»؟.

ظهرت هذه النظرية في القرن السابع عشر فاختصم حولها الفلاسفة في هذا القرن نفسه وفي القرن الثامن عشر. ووضع فولتير قصة (كانديد) ساخراً من هذا المذهب، هادماً له، مقارناً بين الخير والشر، مصوراً لما بينهما من الجهاد العنيف، والصراع المنكر، في حياة الناس ووجود الأشياء، وانتهى فولتير إلى نتيجته المشهورة «ليعيش كل منا بحديقته» مؤثراً تسليم الترك وإذعانهم للقضاء، على فلسفة الفلاسفة ومحاولتهم فهم أسرارها. كتب فولتير قصته هذه إبان القرن الثامن عشر قبل أن يبدأ جوته في كتابة فاوست بوقت غير طويل، وكان جوته مشغولاً بفولتير كثير القراءة له والنظر فيه، كما كان الألمان جميعاً مشغولين بالآداب الفرنسية في ذلك العصر، كما أنى لا أشك في أن هناك شبهة قوية بين آلام فترت وكثير من الآثار الأدبية لجان چاك روسو، فلست أشك في أن هناك شبهة قوية بين فاوست وبين كثير من الآثار الأدبية لفولتير، وربما كان من الحق الذي لا شك فيه أن جوته إنما هو استمرار لسخرية فولتير، ولكن فولتير كان يسخر في ظرف وخفة ورشاقة كما كان يسخر الفرنسيون، بينما كان جوته يسخر في مرارة وعنف وجد كما يستطيع أن يسخر الألمان، ولم يكن فولتير يبتغي شيئاً وراء الشك والسخرية، وكان جوته يبتغي مثلاً أعلى وراء شكه وسخريته، ولم يكن فولتير يتناول بسخريته شيئاً دون شيء، ولم يكن يعفى الحياة المعاصرة له من السخرية، وكذلك كان جوته، سخر من كل شيء، وأذاق معاصريه مرارة لا تعدلها مرارة...

تلخيص فاوست يسير، فقد بدأ الشاعر بمحاكاة التوراة في سفر أيوب، فأنشأ حواراً بين الله والشیطان حول حب الإنسان لله وقوته على الوفاء له، وانتهى هذا الحوار في فاوست برهان بين الله والشیطان موضوعه هذا العالم الجليل الدكتور فاوست الذي أخلص حبه لله والعلم. يزعم الشيطان أنه قادر على إغوائه ويأبى الله عليه ذلك وينظره، فيندفع الشيطان إلى الدكتور فاوست فيصاذه في ساعة سيئة من ساعات حياته، قد سئم العلم ويئس منه، وعجز الدين عن أن يسليه ويمنحه ما كان يطمح إليه من الوقوف على سر الحياة والاطمئنان إليه. فما يزال يحاوره حتى ينتهي به إلى عهد بينهما.

يصبح الشيطان عبداً لفاوست يتيح له كل ما يريد من يسير وعسير، ويزيقه كل ما يشتهي من لذات الحياة على اختلافها جليلها وحقيرها، على أن يكون فاوست فى آخر أمره، إذا لم يعجز الشيطان عن إرضائه، عبداً للشيطان ويتم العهد بين هذين المتجاورين، ويندفع الشيطان بصاحبه فى فنون من اللذات كثيرة، منها الراقى ومنها المنحط وفيها أثام كثيرة، وما يزال به حتى يغوى فتاة بريئة ويضطرها بهذا الإغواء إلى أن تقتل أمها وابنها وتسبب قتل أخيها ثم تضطر إلى السجن ثم إلى الموت، كل ذلك فى ظروف كثيرة طويلة، تتخللها أشياء أضيفت إليها إضافة وحشرت فيها حشرا ليس وبينها صلة إلا الجوار فإذا انتهيت إلى آخر هذه القصة رأيت الشيطان قد أنفق ما يستطيع لإرضاء فاوست فوفق كثيراً، ولكنه على كل حال لم يظفر بنفس فاوست لأن فاوست ما زال على كفه باللذة وتهالكه عليها مزدريا لكل ما ظفر به طامحاً إلى شيء آخر عجز الشيطان عن أن يوصله إليه، وهو الذى يحاول أن يطلبه ويظفر به فى فاوست الثانى.

هذه خلاصة القصة، وهى التى صيغت عليها القصص التمثيلية والغنائية، ولكن جوهرها ليس فى هذا الإطار الذى صورته لك الآن، وإنما هو فيما يحيط به هذا الإطار من دقائق الحوار بين الله والشيطان ثم بين فاوست وتلميذه، ثم بين فاوست والشيطان، ثم بين الشيطان والناس. فى هذا الحوار كنوز من النقد والفلسفة والأدب لا سبيل إلى تقويمها ولا إلى تحليلها ولا إلى الإحاطة بها، ولكنها كفيلة بأن تعطيك من جوته صورة رجل عظيم قد عظم حتى كانت عظمته أشبه شيء بالتمرد، ورق حتى كانت رفته أشبه شيء بدعة الملائكة. ومن غريب الأمر أنك تجد جوته ممثلاً أصدق تمثيل فى ضعف الدكتور فاوست وقوته، وفى ضعف مارجريت وقوتها، كما أنك تجده ممثلاً أصدق تمثيل فى تمرد الشيطان وكبريائه. وأى غرابة فى هذا؟ أليس جوته هو الذى ابتكر فاوست ومارجريت والشيطان؟

تجد في هذه القصة صورة صادقة دقيقة لحياة العالم الأوربي قبيل الثورة الفرنسية وإبانها، أى في عصر الانتقال الذى وثب بأوروبا الوثبة الأخيرة من حياة القرون الوسطى إلى حياة العصر الحديث. ويقال إن فاوست الثانى يصور المثل الأعلى الذى يسمو إليه الرجل الفيلسوف وكيف يسمو إليه وكيف يظفر به. وقد تعمدت أن أتى بلفظ الشك هذا لأن الذين فهموا فاوست الثانى قليلون. وقد أسأل نفسى أحيانا: هل فهمه جوتّه؟... ولعل أصدق حكم على هذه القصة التى أقدمها الآن إلى القراء حكم مدام دى استال عليها حين قالت:

«إن هذه القصة تضطرك إلى أن تفكر فى كل شىء وإلى أن تفكر فى أمر آخر فوق كل شىء».

، طه حسين،

نبذة عن حياة الشاعر

JOHANN WOLFGANG VON GOETHE

(١٧٤٩ - ١٨٣٢)

إذا أردنا أن نقف هنيهة لنذكر جوته وأثاره، ونستعرض فى خيالنا مؤلفاته وأعماله، جاز لنا أن نتساءل: أيها أجل شأنا وأعظم خطرا، أشعاره الغنائية، أم قصصه ورواياته، أم كتاب فاوست الأول والثانى، أم رسائله وأبحاثه العلمية، أم أعماله الإدارية كوزير فى فيمار. لقد كتب جوته أشعارا غنائية لا يعادلها فى عنوبة اللفظ ودقة المعنى أشعار. وكتب قصصا مسرحية إن لم تبلغ مستوى شكسبير، فإنها لم تقصر عنه كثيرا. وكتب مؤلفه الهائل فاوست الذى يشغل فى الأدب العالمى مكاناً فذاً. وكتب «ديوان الشرق والغرب» جمع فيه بين روح الحضارتين الشرقية والغربية، وله بعد هذا كله أبحاث علمية قيمة واستكشافات خطيرة. وكانت إدارته للأعمال التى اضطلع بها وهو وزير فيمار إدارة حازمة موفقة، ولكن لعل أكبر أثر خلفه جوته هو سيرته وحياته لا كتبه ومؤلفاته. وقد عبر مرك MERCK عن هذا المعنى فقال إن الحياة التى عاشها جوته أبدع من الأشعار التى كتبها.. فالقارئ الذى يريد أن يطالع أجل آثار جوته وأعظمها يجب أن يدرس حياته من مبتدأها إلى منتهاها.. وللأسف لا يسمح المقام هنا بالإلمام بهذه السيرة الحافلة إلا إلماماً يسيراً. دون الإشارة إلى كتبه ومؤلفاته إلا عرضاً.

* * *

ولد يوهان ولفجانج جوته فى اليوم الثامن والعشرين من مارس سنة ١٧٤٩، فى مدينة فرانكفورت على الماين. وهى من أقدم المدن الألمانية ومركز عظيم للتجارة والمال. وبالرغم من أن والده من نوى اليسار، فإن الأسرة لم تكن تمت إلى أصل أرستقراطى. فقد كان جده حائكا نزل بمدينة فرانكفورت، وزاول فيها مهنته، حتى جاءه الطالع السعيد فى صورة زوجة نصف تملك فندقا يدر عليها رزقاً حسناً. فانقلب الحائك الماهر إلى مدير فندق، ومن هذه الزوجة ولد له ولدان، أصغرهما يوهان كاسپار جوته وهو والد الشاعر.

إذن فإن جد جوته كان حائكاً، فى وقت كانت الحياكة فيه معدودة من أحقر المهن. ومن لطيف المصادفات أن تكون هذه المهنة قد أنجبت لألمانيا اثنين من أكبر رجالها. أولهما شاعرنا والثانى الرئيس إبيرت أول رئيس للجمهورية الألمانية، الذى كان يدير دفتها فى أشد الأوقات فى تاريخها حرجا ومن المهم أن نذكر هذه الحقيقة، أى أن جوته من أصل وضيع لأنها تفسر لنا أن طبقة الأشراف فى قىمار لم تكن راضية عن الخطوة التى نالها الشاعر لدى دوق قىمار. ولم تزل مصررة على عدم رضاها عن هذا الدخيل حتى منح الزائدة المعروفة VON فصار الشاعر يدعى VON GOETHE.

أما والد جوته فقد تعمد أبواه أن يحسنا تأديبه وتنقيفه حتى يستطيع أن يعوض فى ناحية التعلم ما كان يعوزه من ناحية النسب. وقد درس الحقوق والشرعية ونجح فى دراسته النجاح كله. ثم لم يزل يرتقى فى السلم الاجتماعى حتى أصبح يعد من أرقى الطبقة الوسطى فى فرانكفورت، واستطاع أن يتزوج من أسرة شريفة. وقد تم هذا الزواج عام ١٧٤٨، وكان شاعرنا أول ثمرة من ثمراته.

نستخلص من هذا كله أن جوته قد ولد وسط شىء كثير من الرخاء واليسار. حقيقة أن أباه لم يكن من كبار نوى المال. ولكنه كان فى رخاء جعله دائما بعيدا عن الحاجة، فعاش الشاعر حياته الطويلة لم يعرف الفقر يوماً ولم يمارس الشدة. وإذا كانت هذه الشدة معلما لا بد منه للنبوغ، فإن جوته قد حرم هذا التعليم، ولكننا نبحث عن أثر هذا الحرمان فى حياته وأشعاره فلا نجد له أثراً. فلقد كان محسنا يكتف إحسانه،

وكان شديد الألم لما قد ينزل بغيره من المحن والشدائد، وفي أشعاره فى غير موضع رنات حزن عميق ومواقف تستدر الدمع، فإن طبعه الحساس أغناه عن تجربة الشقاء تجربة فعلية.

كذلك من الغريب أن هذا الفتى، ربيب الغنى، وأليف النعمة، القادر على أن يعيش عيش النعومة والرخاء، قضى حياته فى جد ودأب، يعمل بهمة لاتعرف السامة، وهو أغنى الناس عن الدأب والسعى. تلك أيضا ظاهرة قد تبدو غريبة فى الشخصيات المألوفة، ولكن ليس فيها غرابة فى شخص تدفعه روحه أبدا إلى العمل وفى صدره شهوة إلى الجد والسعى أقوى من شهوة النهم إلى الطعام والشراب، فكان طول حياته يرهق نفسه بالعمل حبا فى هذا الإرهاق لا من أجل ثمرة يجنيها، أو فائدة يستفيدها، بل كان دينه الذى يدين به السعى من أجل لذة السعى والدأب حبا فى الدأب.

على أن سعة العيش التى نشأ فيها جوته كان لها أثرها الطيب فى حياته فقد لقي وهو صبى كل عناية ورعاية، وتلقى دروسه الأولى فى منزل أبيه حيث لقنه المعلمون اللغات اللاتينية واليونانية والإيطالية والفرنسية، وهذا كله تحت إشراف والده. وقد ألف الناس أن يسمعوا أن طفولة النوابغ من الرجال كانت طفولة عادية، لا تنم عما سيؤول إليه أمر الطفل فيما بعد من العظمة والنبوغ. ولكن جوته من غير شك قد خرج على هذه القاعدة - على فرض أنها قاعدة - فقد كان طفلا نابغا استطاع أن يكتب أربع لغات أجنبية عدا لغته الأصلية ولم يتجاوز الثامنة من عمره. وكان فى التاسعة يكتب قصصا صغيرة ليسلى بها أخاه الصغير يعقوب. ولما بلغ العاشرة احتلت فرانكفورت جنود فرنسية، وأنشء فيها مسرح تمثل فيه الروايات الفرنسية. وكان جوته يختلف إلى هذا المسرح، وانتهى به الإعجاب بالروايات الفرنسية إلى دراسة الأدب الفرنسى دراسة مطولة، وإلى كتابة قطعة ضعيفة خيل إليه أنها تشابه تلك التأليف المسرحية.

انجلى الفرنسيون عن فرانكفورت فى سنة ١٧٦١ وعاد جوته إلى الدراسة المنتظمة فى دار أبيه. وأخذ يتلقى دروسا فى الرياضة والموسيقى والرسم. فأما الرياضة فلم يستطع أن يسير فيها خطوة، وكذا لم يستطع أن يتقن الموسيقى رغم ما بذله فى

سبيل ذلك من جهود. وأما الرسم فقد تقدم فيه خطوات حسنة وبقي طول حياته يمارسه من أن لأن، ولا تزال آثاره في هذا باقية محفوظة، وإن لم تصل إلى مرتبة عالية من الإتقان. وكذلك عاد إلى دراسة اللغات فتعلم الإنكليزية. وكان في مدينة فرانكفورت عدد عظيم من اليهود لهم لهجتهم الخاصة، فحاول جوته أن يتعلمها، وهى لهجة تشتمل على مزيج من اللغة الألمانية المحرفة واللغة العبرية. فآلح جوته على والده أن يساعده على تعلم العبرية فسمح أبوه بذلك فقطع فى دراستها شوطا حسنا بحيث استطاع أن يدرس التوراة فى لغتها الأصلية. وقد تركت هذه الدراسة أثرا عميقا فى نفسه.

كان فى طبع جوته ناحية تختلف تماما عما ألفنا أن نراه أو نسمعه عن الألمان. فإن الخلق الألمانى مشهور بأنه ميّال إلى الجلد والصبر، والتعمق فى دراسة ناحية واحدة من النواحي العلمية أو العملية، والانقطاع إلى فهم موضوع واحد، ولهذا كان التخصص من الميزات الكبرى للألمان. فيحصر الرجل منهم نفسه فى دائرة محدودة يقتلها بحثا واستقصاء، حتى تكون له فيها الكلمة العليا والرأى السديد. وإلى هذا الطبع يرجع الفضل فى نبوغ الألمان فى مختلف نواحي الحياة. كان فى طبع جوته على العكس شىء كثير من القلق، يأبى عليه الاستقرار على شريعة واحدة ينهل منها، ومورد واحد يعكف عليه. كان طبعه القلق يدفعه أبدا إلى ورود مناهل جديدة والتماس جهة أخرى تتجه إليها نفسه الحائرة وقلبه الهائم، ثم لا يكاد يتجه هذا الاتجاه الجديد حتى يتركه إلى غيره. وهذا كان ديدنه طول عمره. ولهذا قلما انقطع إلى مؤلف واحد إلا زمنا يسيرا، ثم يتركه ويأخذ فى معالجة غيره، ثم يترك الأدب والشعر فجأة وينصرف إلى العلوم الطبيعية أو اللهو واللعب والملذات، ولهذا كله نرى أن مؤلفات جوته إما أن تكون قصيرة كتبها وفرغ منها فى زمن وجيز، أو كتبها طويلة قضى فى كتابتها سنين عديدة يتركها ثم يعود إليها، أو قطعاً (Fragments) ابتدأها ثم تركها دون أن يعود إليها.

ورغبة جوته هذه فى الانصراف إلى أمر جديد قد كان من آثارها معالجته موضوعات كثيرة، سواء أثناء تعليمه فى منزل أبيه أو دراسته فى الجامعة أو فى الحياة نفسها. ولقد يرى بعض الناس أن جوته لو قصر همه على الشعر وحده أو الأدب وحده

لنبغ فيه نبوغا أجل وأسمى مما وصل إليه فعلا. وهذا القول له وجهته. على أن من أكبر مميزات شعر جوته أنه يتناول نواحي شتى من الحياة، وكان من المستحيل عليه إخراج هذه الصور المتعددة لو لم تكن عبقريته متعددة النواحي مختلفة المشارب.

* * *

نعود إلى سيرة شاعرنا. فقد أخذ يكتب الشعر بشكل جدى وهو فى الرابعة عشرة، وفى تلك السن بدأت الحلقة الأولى من صلاته الغرامية وكان غرامه بفتاة طاهرة صالحة ذات قلب مملوء تقوى وإيمانا قد تركت فى نفسه أثرا حسنا. وفى شهر أكتوبر سنة ١٧٦٥ أرسله أبوه إلى ليبتسك ليدرس فى جامعته وهو بعد فتى فى السادسة عشرة من عمره. وصل إلى هذه البلدة وصدره ملتهب شوقا لتعرف جميع نواحي الحياة، وقلبه تواق لورود مناهل العلم وجيبه ممتلئ بما يحتاج إليه من مال، بل وبأكثر مما تدعو إليه الحاجة. وكانت هذه المرة الأولى التى استنشق فيها نسيم الحرية بملء رئتيه. ولم تكن الرقابة الوالدية فى وطنه فرانكفورت رقابة شديدة ولا قاسية. ولكن الحرية التى وجدها فى ليبتسك حرية كاملة لا تشوبها شائبة، فأخذ يمرج فى بحبوحتها ما شاء له المرح والصبا.

وكان والده مصرا على أن يدرس ولده القانون قبل كل شئ، وأن يحرز فى دراسة القانون تفوقا، وله بعد هذا أن يجول جولاته فى أية دراسة أخرى. فحين وصل جوته إلى ليبتسك قابل أستاذ القانون وتلقى منه النصائح التى وجود بها الأساتذة فى مثل تلك المواقف. ولكن الفتى جوته قال لأستاذه فى شئ من الحياء، إنه مولع بالأدب، واستأذن فى أن يسمح له بإرواء غليله هذا بدلا من الانصراف التام إلى القانون، غير أن الأستاذ أفهمه أن الأدب شئ تافه يجب ألا يأبه له طالب جاد فى دراسته. وقد حاول جوته أولا أن يخلص فى التفرغ للدرس، فكان فى الفترة الأولى مقبلا على المحاضرات التى أوجبتها عليه دراسة القانون. غير أنه ما لبث أن أدركه السأم وفترت همته ولم يعد يواظب على الدرس. ولعل تجاربه هذه هى التى أملت عليه فيما بعد ذلك الحوار البديع بين الطالب وإبليس كما يراه القارئ فى كتاب فاوست.

لم يلبث جوته أن انصرف عن دراسة القانون إلى دراسات أخرى استطابها، وأضاف إلى حبه للأدب غراما جديدا بالتاريخ الطبيعى وبالطب. وقد ظهر ولعه بهما فيما بعد بأجلى مظاهره، على أن جامعة ليبتيك لم تحظ من جوته إلا بشطر يسير من زمنه. وأما الشطر الأكبر فكان يصرفه فى معهد الفنون الجميلة حيناً، وفى اجتياز سبل الحياة المختلفة خيرها وشرها، وفى التشبيب بابتة صاحب الفندق الذى كان يتناول فيه طعامه واسمها أنيت شونكوف (Annet Schoenkopf) وفى كتابة الأشعار والقطع التمثيلية. ففى أيام ليبتيك هذه نظم روايتين : Die Laune des Verliebten (مزاج العاشق) وDie Mitschuldigen (زملاء فى الجريمة). وهاتان القطعتان هما أقدم شئ لدينا مما كتبه جوته. لأن كل ما كتبه قبل ذلك فقد. وأكثره أحرقه هو بيديه. ولهايتين القطعتين منزلة خاصة فى حياة الشاعر، إذ نرى منهما إلى أى علو قد حلق طائر شعره وهو بعد فتى فى السابعة عشرة من عمره.

وفى صيف سنة ١٧٦٨ أصاب جوته مرض شديد اضطره إلى أن يعود إلى فرانكفورت بعد أن قضى فى ليبتيك ثلاثة أعوام أحرز فيها الشئ الكثير من تجارب الحياة، والشئ القليل من الدراسة الجامعية. دام مرضه هذا زمنا فلم يتم شفاؤه إلا فى أوائل سنة ١٧٧٠، وعندها رأى والده أن قد أن له أن يعود إلى دراسة القانون دراسة جدية، وأن يعكف على هذه الدراسة حتى يحصل فيها شهادة عالية، ولعل هذا الإصرار من جانب الوالد على أن يتعلم جوته القانون مع قلة رغبته فيه هو الأمر الوحيد فى تربية جوته الذى يصح أن يكون موضعاً للنقد. ولكن يجب ألا ننسى أن الوالد مع إعجابه بأشعار ولده أراد أن يعده لمناصب الحكم قبل كل شئ؛ ولهذا كانت الدراسة القانونية واجبة. ففى شهر أبريل من تلك السنة أرسل الفتى وقد جاوز العشرين إلى الجامعة مرة أخرى. وفى هذه المرة اختار له أبوه جامعة ستراسبورج. وقد أوجدته الصدفة وسط جماعة من طلبة الطب والعلوم. فاثار حديثهم كامن رغباته فى دراسة المباحث المتعلقة بهذه العلوم. ورغم مثابرتة على دراسة الحقوق كان يصرف جزءا عظيما من وقته فى دراسة التشريح والنبات والكيميا. وبالطبع لم ينس نصيبه من دراسة الأدب. وهكذا نرى جوته فى درسه شأنه فى جميع أطوار حياته، لا ينقطع إلى

دراسة واحدة، ولا يصبر على طعام واحد. وإن نعجب فعجبا من فتى يجد من وقته متسعا لكل هذه الدراسات المتباينة. التي استطاع أن يضرب فيها جميعا بسهم، ويبلغ في كثير منها مرتبة حسنة، وهو مع هذا كله لا يعدم وقتا يقضيه لدى معلم الرقص ليتقن هذا الفن من جهة، وليشرب بابنى المعلم فى الوقت نفسه.

وللمدة التي قضاها جوته فى ستراسبورج شأن خاص فى سيرته، فهنا استطاع بعد لئى أن يحصل على شهادة دكتور فى الحقوق أو شهادة تقرب منها، وأمكنه بهذا أن يقر عين والده ويزيح عن عاتقه عبئا ثقيلا. وفى ستراسبورج التقى جوته بهردر (Herder) ولازمه ملازمة التلميذ المخلص. وكان هرردر قد اشتهر بمؤلفات فى أصول الأدب وأخذ ييث فى جوته تعاليمه التي يدين بها، وتنحصر هذه الجهود فى توجيه جوته نحو الأدب القومى والشعر القومى، كما يبدو فى التوراة وأشعار هوميروس وأوسيان وشكسبير، وأراه إن أول واجب على الشاعر الألماني أن يلتمس الإلهام من الروح الجرمانية ممثلة فى تاريخ ألمانيا. وفى الميثولوجيا التوتونية. وكان جوته مستعدا لهذه الآراء، لأنه قد تأثر حتى من قبل التقائه بهردر بتلك الروح القومية، وكان مصدر هذا التأثير دراسته لفن البناء القوطى، ممثلا أبداع تمثيل فى كاتدرائية ستراسبورج فقد كان يتأمل هذا البناء الشامخ طويلا، ويمعن فى التأمل فيه، حتى انتهى إلى تفصيل الفن الجرمانى فى البناء على الفن اليونانى واللاتينى. وقد يتعجب القارئ المصرى من أن شاعرا عظيما يتأثر فكره بتأمله لبناء من الأبنية، وقد يصعب علينا أن نتصور أن أحد شعرائنا قد يتأثر إذا أطال التأمل فى مسجد السلطان حسن أو الهرم الأكبر، ومع ذلك فقد كان لدراسة الفن القوطى، ممثلا فى بناء تلك الكنيسة، أثر عظيم فى تفكير جوته. وقد ترتب على هذا كله قيام نهضة فى ألمانيا جرمانية الصبغة تنفر كل النفور من القيود الثقيلة التي مبعثها الإعجاب بالأدب القديم، والفن القديم. وهذه الحركة هى التي أطلق عليها اسم (Sturm und Drang) وهما لفظان تصعب ترجمتهما. ومعناهما بالتقريب «الثوران والاندفاع». إذن فإن من أكبر ثمار المدة التي قضاها فى ستراسبورج، أن بعثت فى جوته هذه الروح الجرمانية التي نرى أثرها فيما بعد فى روايته المسرحية الجليلة جوتس (Gotz).

كذلك تعرف جوته فى أثناء دراسته فى ستراسبورج إلى أسرة رجل قسيس من خيار الناس يسكن قرية صغيرة قريبة من المدينة اسمها سيزنهايم (Sesenheim) ولم يكد يعود مرة أخرى إلى زيارة تلك الأسرة حتى شغفته فريدريكا برون ابنة القسيس حبا. فى تلك الآونة كانت علاقاته بمعلم الرقص وابنتى المعلم قد انتهت. وكان قلبه فارغا من كل علاقة غرامية. فلم يكن بد من أن يهيم بتلك الفتاة الطاهرة. وتحول الهيام سريعا إلى التفكير فى الزواج. فلما وصل الأمر إلى هذه الغاية التى لابد أن ينتهى إليها، إذا الصلة قد انقطعت، والتقدم السريع قد انقلب إلى تقهقر بانتظام. هذه الظاهرة؛ التردد فى التقيد بقيود الزواج سنراها المرة بعد المرة فى حياة جوته ولهذا يحسن بنا أن نقف قليلا لنلخصها هنا:

الحقيقة أن جوته لم يكن فى يوم من الأيام عاشقا متيما. حقيقة أنه كانت تبد عليه كل علائم العشق المبرح، فكان يكثر من الزيارة إلى سيزنهايم، ويقضى الساعات الطوال فى منزل فريدريكا، وتظهر عواطفه فى أشعار بديعة لا يشك قارئها فى أن قد أثارها الحب الصحيح الخالص من كل شائبة، ولكننا نراه حين يبلغ الأمر إلى نتیجته الطبيعية وحين توشك شجرة الحب أن تؤتى ثمرها، يصوب نحوها رياح جفاء وابتعاد لا تلبث أن تنويها وتقتلها. والحقيقة التى لا مناص من استنباطها أن جوته لم يكن يحب حبا مبرحا. بل كان يحب أن يرى نفسه محبا، ومغرما بأن يرى نفسه مغرما، فإذا جاءت الساعة العصبية تذكر أن قيد الزواج قد يصرفه عن المعالى، وأن تجارب الحياة المقبلة قد تهديه إلى علاقة خير من هذه العلاقة. فيلتمس فى البعد شفاء من جراحه. فلا يلبث البعد والشباب والغنى واللهو أن تنسيه لوعته وتشفيه من كل سقم. وهكذا كان. وعاد فى أغسطس سنة ١٧٧١ إلى وطنه فرانكفورت، وهو الآن الدكتور ولفجانج جوته المحامى الناشئ.

وعقب وصوله إلى موطنه أخذ يشتغل بجد فى رواية «جوتس». وانتهى من كتابتها فى أوائل العام التالى. هذه الرواية المسرحية التى أثارت ضجة كبيرة عندما نشرت فى سنة ١٧٧٣ قد تبدو اليوم أقل من مستوى الشاعر الذى كتب فاوست وولهم ماىستر. ولكنه كتبها وهو فى الثالثة والعشرين وأخرجها فى طراز جديد أثار اهتمام الأمة

الألمانية. وقد تعتمد أن يسبغ على هذه الرواية الثوب الجرمانى ويبث فيها روح الثورة على التقاليد القديمة، والوحدات الكلاسيكية المعلومة. ولهذا كان لها صدى عظيم فى عالم الأدب. ونحن قد نتوهم اليوم أنه من العجيب أن تحدث ضجة فى ألمانيا لأن شاعرا من شعرائها أراد أن تسود الروح الجرمانية، وجاهد مجاهدة الأبطال فى هذا السبيل. هذا يبدو غريبا لأول وهلة. ولكن لنذكر أن ملك بروسيا فردريك الأكبر المعاصر لجوته كان يحتقر الأدب الجرمانى والفن الجرمانى، ولا يتكلم فى بلاطه بغير اللغة الفرنسية، ولا يسود فى بيئته غير الأدب الفرنسى، فإذا كان الناس على دين ملوكهم فأى جهاد هائل كان محتما على أمثال جوته وشيلر حتى ييثوا الروح الجرمانية فى الأدب الألمانى؟

لم ينشر كتاب جوتس للناس إلا عام ١٧٧٣ وقبل ذلك بسنة ذهب جوته إلى وتسلار وهى مقر محكمة الاستئناف العليا، للتمرن على الأعمال القضائية. وهذا الجزء من حياة جوته معروف للقارئ المصرى فلا حاجة للإطالة فيه. فهناك تعرف جوته بكستنز خطيب شرلوت بوف وهام بهذه الخطيبة أشد الهيام، وما كان هيامه بها شديدا إلى هذا الحد إلا لأنها مخطوبة بعيدة المنال. ولو كانت حرة وقبلت الزواج منه لولى الأدبار، ولاد بالفرار، كما فر من فردريكا بريون من قبل وكما فر من ليلى شونمان من بعد.

وعاد بعد شهر إلى فرانكفورت وأخرج فى عام ١٧٧٤ ثمرة عشقه لشرلوت بوف، وهذه الثمرة هى كتاب «آلام وفتر» الذى يعرفه الجميع والذى بلغ فى سرعة الذبوع والانتشار ما لم يبلغه كتاب آخر لجوته، ولو أن حماسة الناس قد فترت بعد ذلك، وأصبح كتاب «فتر» وليس له ذلك المقام الكبير فى الأدب الألمانى. على أن أثره فى حياة الشاعر كان عظيما، فقد ذاع به صيته وحلقت رايته فى سماء الشهرة وكان لهذا شأنه فى حياة الشاعر بعد ذلك.

من النواحي الطبية فى أخلاق جوته أنه كان يتلمس الهداية أبدا على يد المرشدين الذين يسوقه حظه إلى صحبتهم. وقد وفقه طالعه الحسن إلى صحبة ثلاثة رجال فى

فترات مختلفة في حياته، وهؤلاء الثلاثة هم هررد ومرك وشرلر. وقد سبق لنا أن ذكرنا مقابلته لهررد في ستراسبورج، وأما شرلر فسنعود إلى ذكره فيما بعد، أما مرك هذا فرجل أديب ناقد من النوع الذي يشحذ ولا يكاد يقطع! وكان له اتصال متين بكثير من كبار الكتاب والشعراء، وكانت نصائحه لهم عامة ولجوته خاصة باعثة على زيادة الإنتاج وإحسانه. وقد تعرف إليه جوته عقب عودته من ستراسبورج وكانت بينهما مودة متينة ولو أنها فترت قليلا فيما بعد.

كان هررد ومرك كلاهما أكبر من جوته سنا. ونظرا لانقطاعهما إلى دراسة النقد الأدبي، كانا من غير شك أعلم منه بهذا الموضوع. وكانا يبذلان له النصيح في شيء من غطرسة المعلم، وكان يقبل هذا كله منهما رغم ما جبل عليه من الكبرياء والغرور. وكان يتقبله أحيانا بشيء من الموض من أحيانا لا يذعن إليه. ولكن لاشك في أن رغبته في تثقيف نفسه من جهة، وحبهما من جهة أخرى، وإخلاصهما له من ناحية ثالثة، كل هذا جعله ينتفع بما بذلاه له من النصائح.

بعد أن أخرج جوته كتاب قرنر بزمن يسير ساقه القدر وهو في فرانكفورت إلى صداقة فتاة في السادسة عشرة من عمرها اسمها أنا شونمان Anna Schönmann وأطلق هو عليها اسم ليلي Lili وهي ابنة رجل من نوى اليسار ومن كبار أصحاب المصارف في فرانكفورت. ولا نريد أن نطيل شرح علاقة جوته بليلى، فحسبنا أن نذكر أنها كانت تكرارا لما حدث له مع فردريكا، ولو أنه في هذه المرة قد أضاف عنصرا جديدا وهو الخطبة الرسمية التي تمت رغم معارضة أهل الخطبة والخطيب، ولكن هذا العنصر الجديد لم يغير كثيرا من سير القصة سيرتها الأولى. فقد أحجم جوته في الساعة الأخيرة ثم سافر في رحلة يصحبه الأخوان المستهتران ستولبرج إلى سويسره. وهو يزعم أنه مسافر ليرى هل يستطيع الصبر على فراقها. وعاد من سفره وقد خمدت الجذوة المستعرة وهان عليه فسخ الخطبة.

* * *

فى عام ١٧٧٥ كان جوته قد بلغ السادسة والعشرين ، وقد أصبح اسمه ، بفضل ما أخرجـه من الشعر الغنائى البديع، وبفضل كتابيه «جوتس» و «قرتر»، حديث الأندية الأدبية فى ألمانيا، بل وفى كثير من الأقطار الأوربية الأخرى، وأجمع الناس على أنه قد نبغ فى فرانكفورت شاعر مبدع، بلغ على حدائـته شأوا بعيدا فى عالم الأدب. فى تلك السنة حدث لجوته حادث غير مجرى حياته؛ وهذا الحادث الخطير هو التقاؤه بكارل أوجست دوق فيمار. كانت المقابلة الأولى بينهما فى كارلسروهي Karlsruhe فى ولاية بادن فى أثناء رحلة جوته إلى سويسره، وهناك تعارفا، ودعا الدوق جوته لزيارة فيمار، ثم مر كارل أوجست بعد ذلك بفرانكفورت وهو عائد مع زوجته الشابـة إلى فيمار، فقابل جوته مرة ثانية. وأعاد الكرة بأن دعاه بإلحاح لزيارته. وقد نصـح مرك تلميذه بالقبول، ولكن الوالد كان ممانعا، وحذر ابنه من أن الاقتراب من الأمراء غير محمود العاقبة، ومثل له بما جرى بين فولتير وفردرىك الأكبر، وكيف انتهت علاقتهما إلى الشقاق والخصام. وبعد تحريض وإلحاح قبل الوالد كارها أن يزور جوته فيمار ويقضى فيها «بضعة أسابيع». هذا ما أرادـه الوالد الشيخ، ولكن المقادير أرادت أن يذهب جوته إلى فيمار فيجعل منها وطنه الدائم طول الحياة ومثواه بعد الوفاة.

* * *

كانت دوقية ساكس فيمار قسما صغيرا من تلك الأقسام السياسية المستقلة التى كانت ألمانيا منقسمة إليها. وهى الآن جزء من جمهورية تورنجيا، وفيمار، عاصمة الدوقية، بلدة صغيرة على نهر الألم، أحد روافد الإلب، من البلدان القديمة فى ألمانيا ذات طرق ضيقة، ومن بقايا بلدان العصور الوسطى – وكان سكان الدوقية قليلين يعيش أكثرهم من الزراعة، وحالتهم لا تختلف عن حالة الفلاحين فى أوربا فى العصر السابق للثورة الفرنسية. ومع أن موارد الدوقية ضئيلة جداً فإنها أصبحت بفضل همة أميرها مجتمع كثير من العلماء والأدباء والفنانين، فكان بلاط فيمار لا يضارعه فى هذا إلا بلاط بوتسدام مع الفارق العظيم بينهما، وهو أنه بينما فريتس (فردرىك الأكبر) لم يكن يرحب إلا بالثقافة اللاتينية، ولا يتكلم فى بلاطه إلا بالفرنسية، فإن الثقافة المنتشرة

فى بلاط فيمار ألمانية بحثة ورجالها جميعا من الألمان. ومع أن بلاط فيمار فقير جداً إذا قورن ببلاط بوتسدام، فإنه مع هذا لم يكن دونه بكثير، بل لقد كانت شمس العبقرية فيه من غير شك أسطع، وأثره فى الأدب الألمانى والثقافة الألمانية خيراً وأبقى.

كانت بلدة فيمار على صغرها جذابة لمن يرغب فى عيشة الهدوء والطمأنينة، والمناظر الطبيعية التى تحدى بها على درجة عظيمة من الجمال؛ فمن جدولها المتدفق ومروجها اليناعة إلى غاباتها المنتشرة وحديققتها الكبرى التى عنى جوتة بأمرها عناية خاصة، حتى جعلها من خير الحدائق وأحسنها. وفوق هذا فإنه على مقربة منها مدن شهيرة مثل بينا ذات الجامعة وإيرفورت، وكذلك جبال تورنجيا ليست بعيدة منها. وإلى هذه الجبال كان جوتة كثيراً ما يذهب هو وكارل أوجست للتنزه والرياضة، وقد بنى لهما كوخ صغير بالقرب من إلماناوى لىبيتا فيه على أعالى الجبال.

وعلى صغر هذه الدوقية وبساطتها، فإنها كانت عالماً قائماً بذاته، فكان بها إمارة وعرش وحاشية وحكومة، وكان يؤمها من أن لأن كثير من الأشخاص نوى الشأن. واستطاع أميرها الصغير أن يجتذب إليها عدداً كبيراً من أعلام الأدب والفن والعلم، وكان أهل القصر أنفسهم على جانب عظيم من الثقافة. ومن أهم الأفراد البارزين فى هذه البيئة الدوقة والدة أماليا أم كارل أوجست وصديقة الشاعر ويلاند الذى تعلمت منه اليونانية ودرست عليه الأدب القديم، وكانت تحسن الموسيقى والتأليف الموسيقى عدا حبها للهو والمسرات - وقد رحبت بمقدم جوتة وكانت تكتب أمه تباعاً. ومن أكبر المقربين إليها ويلاند Wieland من متوسطى شعراء ألمانيا ومن كبار أدبائها. وهو الذى تولى تعليم كارل أوجست وتأديبه، ومن أهم نساء حاشيتها الأنسة كروتر، قينة القصر Hoff Sangerin التى كانت تمثل الأدوار الغنائية فى القطع التمثيلية التى يقوم بها بعض كبار الحاشية، وكذلك كان هنالك أدباء كثيرون نذكر من بينهم سكندر مترجم ألام فرتر إلى الفرنسية، وبرتوخ مترجم سرفانتس وأما هربر صديق جوتة وأستاذه فى الأدب فجاء إلى فيمار بعد جوتة بقليل، وقد استدعاه الدوق بناء على رجاء جوتة ليكون إمام القصر وواعظه.

أما الأميرة لويز بوقة ساكس فيمار وزوجة كارل أوجست، فكانت تختلف عن أماليا بأنها على حداثة سنّها ذات طبع يميل إلى الجد، والمحافظة على التقاليد، والبعد عن اللهو والترّف. ولا تعمل إلا كل ما يليق بمقامها ومركزها، وهذا بخلاف زوجها الدوق الفتى، الذى كان ينفر من التقاليد، ويحب اللهو والمرح، وقد كان هذا أحيانا سببا فى شىء من الفتور بينهما، لكنهما كانا عادة على صداقة ووثام.

إلى هذه البيئة جاء جوته فى نوفمبر سنة ١٧٧٥ وهو شاب فى السادسة والعشرين، وكارل أوجست فتى فى الثامنة عشرة، لكن كان الأمير على حداثة سنّه نافذ البصر، يعرف كيف يقدر النبوغ وكيف يجتذب النابغين إليه. ولم يمض إلا قليل حتى أصبح هو وجوته صديقين حميمين وبقيّا كذلك مدى خمسين عاما. وكانا يتخاطبان من غير كلفة، وقد يبيطان فى دار واحدة، وفى حجرة واحدة، ويقضيان معا ساعات طوالا، يتجاذبان فيها الحديث، لا عن الفن والأدب فحسب، بل وعن شئون فيمار ووسائل إصلاحها. وقد كان كلاهما مولعا باللهو والمرح والمجون. فكانت الأسابيع الأولى لجوته فى فيمار ممتلئة بأنواع العريضة واللهو البرئ وغير البرئ، والفكاهات اللفظية والعملية، يمارس كل هذا هو والدوق بروح لا تعرف المسؤولية ولا التقاليد، وكانا كثيرا ما يختلطان بالعامّة من مزارعين وعمال، وقد يقضيان الليلة فى وسط مناجم المناو يرقصان مع بنات العمال إلى سويغات الفجر.

على أن هذا اللهو وإن شغل جزءا عظيما من وقتهما فإنه لم ينسهما العناية بالشئون العامة. والنشاط الهائل الذى امتاز به كل منهما كان مساعدا لهما على ممارسة ناحيتي الجد واللهو على السواء. وويلاند مع إعجابه بجوته وبالدوق، أبدى أسفه الشديد على أن يصرف جوته وقته فى هذه الترهات، بينما الواجب يقضى بصرفه فى جلائل الأعمال. والحقيقة أن جوته لم يخرج فى السنين الأولى بقيمار مؤلفا يستحق الذكر. ولكن يجب ألا ننسى أنه قد اكتسب تجارب كثيرة كان لها من غير شك أثرها فيما أخرجه من الآثار فيما بعد، وفى الغالب أن كثيرا من كتبه التى ظهرت بعد ذلك كان فى هذه المدة فى دور «التفريح»، فإنه يقول فى إحدى رسائله إنه رغم أعماله الكثيرة

فى خدمة الدوق كان لا يعدم الوقت اللازم لمتابعة دراساته الأدبية والعلمية، عدا أنه بالطبع لم ينس نصيبه من الدنيا.

وقد عرض عليه دوق فيمار منصبا يعتبر فى فيمار من أرفع المناصب، بمرتب ١٢٠٠ دولار أى نحو ٢٠٠ جنيه من نقود هذا الزمان. وكان هذا مبلغا لا يستهان به فى تلك الأزمنة وفى دوقية فقيرة كإمارة فيمار.

وتعيين جوته فى هذا المنصب وجعله عضوا فى المجلس الأعلى ، والحظوة الكبرى التى نالها عند كارل أوجست، كل هذا حرك ألسنة الحاشية بالشكوى المرة، من هذا الدخيل الذى لم يتدرج مثلهم من أصغر المناصب إلى ما هو أرقى منها، والذى حرّمهم بلوغ المرتبة التى يطمحون إليها. ولكن كارل أوجست رد على احتجاجهم بأن وجود مثل جوته عنده شىء يحسد عليه، وبأن كفايته وعبقريته أمر معلوم للناس جميعا، وأنه لا يعلم فى جميع المتطلعين إلى هذا المنصب من يدانيه فى تلك الكفاية، وأنه (أى الدوق) أحزم وأعقل من أن يجعل مجرد الأقدمية سببا لحرمانه من خدمات مثل الدكتور جوته.

بهذا الرد الحاسم أخرست الألسنة ، وازدادت المودة والألفة بين الدوق وبين جوته، الذى أصبح ساعده الأيمن، وألقيت إليه الآن مقاليد الكثير من الأعمال الإدارية فى الدوقية ومنح الدوق جوته دارا صغيرة ذات حديقة غناء على نهر الألم (اسمها جارتنهاوس Gartenhaus) وبات بديها أن جوته قد جاء إلى فيمار ليقيم بها، ومادام كارل أوجست حاكمها فهيها أن يسمح له بالابتعاد عنها طويلا.

وهنا لابد لنا أن نقرر أن المنصب الذى أسند إلى جوته لم يكن مجرد وسيلة لإبقائه فى فيمار ومنحه مرتبا يتمكن بواسطته من متابعة دراسته وتأليفه؛ لم يكن، بعبارة أخرى، منصبا فارغا من غير واجبات ولا أعمال مرهقة، بل كان منصبا يقوم شاغله بأعمال جدية فى الدوقية. وتابى على جوته همته إلا أن يضطلع بأصناف الأعباء التى يقوم بها صاحب ذلك المنصب عادة؛ فإن إخلاصه لكارل أوجست وثقة كارل أوجست به، كل هذا كان من شأنه أن يجعل جوته يتولى شطرا عظيما من مهام الدوقية، وأن يرهق نفسه بالعمل من أجل صديقه ومولاه. فنراه مثلا يقوم بإدارة الفنون وبالأخص

المسرح والتمثيل، وإدارة الحربية والمالية حيث كان يضطر لأن يقف في وجه الأمير الذي يحب التمييز شأن الأمراء، وبتنظيم المدينة وحدائقها، وكثير من المشروعات التي ترمى إلى إصلاح حالة الأهالي، وإدارة مناجم إلميناو (Ilmenau) التي كانت معطلة، وكان هو سبب افتتاحها مرة أخرى ويظهر أن اضطلعه بكل هذه الأعباء وبغيرها مما لا يمكن حصره من أعمال الدولة، مضافا إليه مشاغله الأدبية والعلمية والقلبية، كل هذا قد أدته حمله بحيث رثى له حتى كارل أوجست، وكان يقترح عليه من أن لأن أن يأخذ له قسطا من الراحة، لكن جوته لم يلتزم الراحة إلا في سنة ١٧٨٦ حين سافر إلى إيطاليا بعد أن قضى عشر سنوات في هذا الجد والدأب.

قلنا إن جوته في هذه السنوات العشر، كانت له عدا أعماله الإدارية، مشاغله الأدبية والعلمية والقلبية. فأما أعماله الأدبية، فقد كان لا يفتأ ينظم الشعر الغنائي ويؤلف قطعاً تمثيلية من أجل مسرح فيمار. ونذكر من بين هذه القطع رواية إيفجينا مكتوبة نثراً - وقد نظمها شعراً بعد ذلك وهو في إيطاليا - وكذلك رواية «انتصار الحساسية» (Triumph der Empfind - samkeit). وهذه القطعة مهزلة الغرض منها السخرية بالعواطف السخيفة، وقد اضطرت جوته لكتابتها لكي يقلل من تأثير كتابه آلام فترتر الذي كان سببا في حلول مصائب بكثير من ضعاف الأحلام، وكانت تبلغ جوته أخبارهم فتتألم نفسه لذلك. واضطر أخيراً لكتابة تلك القطعة لعلها تحدث أثراً يذهب بأثر كتابه الأول.

وعدا هذه القطع فإن جوته من غير شك كان يعمل أو يفكر في مؤلفات أخرى مما ظهر فيما بعد.

وأما مشاغله العلمية فإنه في هذه الفترة كان يشتغل كثيرا بالعلوم الطبيعية حتى اهتدى إلى كشف عظيم في التشريح، وهو الاهتمام إلى عظم ما بين الفكين (Os Inermaxillare) وكذلك كان يدرس شيئا عن فن البناء وتنظيم المدن وهندسة الحدائق ليطبق في إصلاح فيمار وتجميلها.

أما مشاغله القلبية في هذه السنين العشر فتدور حول شخص مدام فون شتاين. وهي من كبار سيدات قصر فيمار وزوجة أحد كبار ضباط الحرس، ولم تصبح بينها

وبين زوجها صلة بعدما ولدت له سبعة أولاد. كانت شارلوت فون شتاين حين رآها جوتة امرأة فى الثالثة والثلاثين قد مارست الحياة حلوها ومرها. وفهمت طبائع الرجال وخصالهم، وكانت فوق هذا على جانب عظيم من الأدب والثقافة العالية. وفى شخصها لقي جوتة امرأة لم ير مثلاً من قبل. فإن صلاته إلى وقت نزوله فيمار كانت دائماً بفتيات لم يتجاوزن العشرين، كان يجتذبه إليهن ما هن عليه من صباحة وطلاوة وبهاء وشباب غض. لكنهن كن دونه ثقافة وتربية وعقلا وعلمًا. أما مدام فون شتاين فكانت أكبر منه بسبعة أعوام، وكانت امرأة ناضجة عقلا وذكاءً وأدباً. قادرة على أن تشاطره أحلامه مهما بعدت، وأفكاره مهما سمت، وتواسى جروحه، وتعجب بقوته وترثى لضعفه، فكانت له بمثابة الصديقة والشقيقة والحبوبة، وبالرغم من أنها لم تكن على شىء كثير من الجمال فقد أولع بها جوتة ولم يفتر حبه لها طول هذه السنوات العشر، وقد علمت - وهى سيدة العارفين - أنها إن سلمت لهذا الفتى النزق بكل ما يشتهى فسرعان ما يسأمها ويفقددها وتفقدته، فاستطاعت أن تبقى جنوته مستعرة ملتتهبة، وأن تستبقى حبه وإجلاله لها عشر سنين طوالاً. وبليوتفسكى يقول إن علاقتهما بقيت طاهرة نقية، ولو أن غيره يزعم غير ذلك؛ وعلى كل حال فقد كان نفوذها على جوتة عظيماً وصالحاً ولم يتلاش هذا النفوذ إلا بعد عودته من إيطاليا.

* * *

كان جوتة دائماً يتوق إلى رؤية إيطاليا، ولم يتحقق حلمه هذا إلا فى سبتمبر ١٧٨٦ حيث غادر الدرق وحاشيته وافر متخفياً إلى تلك البلاد الجميلة حيث الشمس لا تحجبها السحب وحيث الآثار الرومانية تنطق بالعظمة الخالدة. وقد أخذ يتنقل بين مدن إيطاليا المختلفة من أقصاها شمالاً إلى صقلية جنوباً، وكل منها مفعم بالذكريات وبدائع الفن الخالد. لكنه كان مغرماً بروما بوجه خاص، والذين يعرفون المدينة الأبدية يفهمون سر هذا الغرام، فهنا ألقى جوتة نفسه أمام عظمة تلك الحضارة الهائلة التى لم ينقص من السنين من رونقها وبهائنها، ووجد فيها مثاراً لوحى جديد. وكذلك وجد فرصة لأن يتعلم

الدروس التي تلقنها الأسفار في بلاد تختلف عن بلاده الاختلاف كله. وعدا هذا فإنه أصاب في إيطاليا فراغا وسكونا وهدوءا، وما كان أشد احتياجه لهذا بعد تلك السنين المضنية.

دامت هذه الرحلة نحو العشرين شهرا، عاوده في أثنائها غرامه بالفن والتصوير، فأضاع وقتاً كثيراً في محاولات غير مجدية، فإنه ما كان ولن يكون رساما ماهرا. ولكن بجانب هذا أتم نظم إيفجنيا وإيجمونت. وشرع في نظم تاسو، وهذه الثلاث من أحسن رواياته التمثيلية.

أجمع الكتاب على أن رحلة إيطاليا تعتبر نقطة مهمة في حياة جوته. فإنها بصرف النظر عما تعلم منها أعطته فرصة طويلة لأن يتبصر في أمر نفسه وأن يفكر في ماله وحياته، وكان نزق الشباب قد أخذ في الزوال وحل محله شيء من الوقار والرزانة والنضج، ورأى وهو في إيطاليا أنه لن يستطيع أن يعود إلى تلك الحياة التي كان يحياها في قيمار، حيث كان جانب عظيم من وقته ضائعا في تافه الأعمال. ولهذا كتب إلى كارل أوجست من إيطاليا قبيل العودة يلتمس منه أن يعفيه من الواجبات الصغيرة التي كانت تقيد يديه، وتلتهم جزءا عظيما من وقته، حتى يستطيع أن يفرغ للناحية الجدية من جهوده العلمية والأدبية. وكان كارل أوجست عند حسن ظن جوته به، فأعطاه سؤله، وأعفاه من رئاسة المجلس الأعلى، ومن الإدارة الحربية، واستبقى جوته بمحض رغبته إدارة الأعمال العلمية والفنية بما في ذلك إدارة المسرح.

عاد جوته إلى قيمار في يونيو سنة ١٧٨٨، وقد لاحظ الجميع في خلقه شيئا من التغير، فقد ألقوه الآن جادا وجافا في طبعه، متحفظا في شيء من الفتور أو البرود. لاحظت هذا التغير مدام فون شتاين، ورأت أنه لم يبق في قلبه نحوها تلك الحرارة وذلك الشغف اللذان ألفتتهما منه. وقد خاطبته في ذلك فلم تجد المخاطبة، ثم لامته وأنبته فما أصلح هذا اللوم من الموقف شيئا. والحقيقة أن جوته، الذي عاد من إيطاليا، غير جوته الذي عرفته هذه السيدة، ولو أنصفت لأدركت الموقف الجديد، وعلمت أن أمامها

اليوم جوته الرجل لا جوته الفتى، وإن عليها أن تعامله معاملة جديدة تتفق والموقف الجديد، لكنها أصرت على اتهامه بالتقصير والإهمال، وأنكر هو هذه التهمة، وبعد قليل انقلت الجفاء بينهما إلى قطيعة وهجران، حينما تعرف جوته إلى كرستيانه فولبيوس التي صارت زوجا له فيما بعد.

* * *

فى يوليو سنة ١٧٨٨ كان جوته يتمشى فى حديقة فيمار فتصدت له فتاة حسنة وناولته كتابا تلتبس فيه مساعدة أخ لها أديب بائس فى بلدة بينا القريبة. هذه الفتاة هى كرستيانه فولبيوس، التى صارت أولا خلية جوته ثم حيلة له. وكانت فتاة من طبقة فقيرة. والبون شاسع بين مركزها ومركزه الاجتماعى. لكنها على جانب عظيم من حسن الخلق، والخلق ولا يعوزها الأدب والتربية، ولو أنها لم تكن فى هذا لتدنو من مدام فون شتاين أو غيرها من نساء البلاط. ويقال إن جوته أراد أن يتخذها زوجا فأبت لعلمها أن هذا يجرى مركزه، فإن الحاشية لم ترض عن علاقة جوته بها، وحسبت هذه العلاقة عارا عظيما. وقاطعتها حاشية البلاط مقاطعة تامة. ولم يقبلوا أن يروها بينهم، فكانت لا تصحب جوته إلى القصر ولا ترافقه فى الحفلات، ومع أنها كانت تصاحبه إلى بينا، فيقدمها إلى أصدقائه وعارفيه، كانت أبواب فيمار أبدا موصدة أمامها. وكانت صداقتهما موضع نقد مر وطعن شديد فى جوته لخروجه، هذا الخروج الشنيع، على العرف والتقاليد.

ولم يلق جوته نقدا لأى عمل من أعمال حياته مثل الذى لقيه من حبه لكرستيانه. ويقول شيفر أحد مؤرخى جوته: «إن الأمة لم تغفر لأكبر شعرائها هذا الخروج على العرف والعادة، وهذه العلاقة النصف الزوجية كانت سببا كبيرا فى قلة تقدير الناس لأخلاق جوته، وفى الحكم بأحكام قاسية عليه وعلى تأليفه...» إلى هذا الغلو يذهب المجتمع فى استهجان من يخرج على تقاليد.

وبالطبع أمام هذا النقد المر لم يستطع جوته أن يعقد زواجه رسميا، ولكنه أعلن غير مرة أن كرستيانه زوجه فى كل شىء ما عدا الرسمىات. وفى أول عام ١٧٨٩

ولدت له ولده الأول أوجست. فعند ذلك أسكنها وأمها فى الدار التى يسكنها وأصبح الجميع ينظرون إليها كزوجة.

لم يزل الكتاب الذين ألفوا فى سيرة جوته - وكثير ما هم - بين مستهجن وناقد ومتسامح فى نقده لهذا الحادث الخطير فى حياة هذا الرجل الخطير. كانت كرسطيانه مليحة الصورة، جذابة جدا، وعاقلة ومدبرة ومغرمة به، ولكنها كانت إزاءه وضيعة النشأة قليلة التعليم. ومما يؤسف له، من غير شك، أن جوته لم يوفق إلى زوجة تناسبه من جميع الوجوه بحيث لا يستحى من مصاحبته لها فى المجتمع الذى يعيش فيه. ولكنه إن لم يجد فيها ضالته كلها، فإنه من غير شك وجد فيها كثيرا مما تهواه نفسه من الجمال والبساطة وطيب الخلق وسرعة الفهم. ولم يكن - وهو الذى احتقر العرف والتقاليد طول حياته - بالذى يبالى بما يقوله البلاط وأهله. وقد بقى جوته سعيدا جدا بعلاقته بها زمنا طويلا. وكانت مساعدة له على إنتاجه العلمى والأدبى. فإليها يرجع الفضل فى إخراج القصائد المعروفة باسم «المنظومات الرومانية» وهى من أبدع ما نظم. حقيقة أنها ساءت حالها فيما بعد، وعكفت على الشراب إلى درجة مزرية، ولكن لم يكن معقولا أن يتنبأ جوته بهذا.

* * *

فى السنين التى أعقبت زواج جوته هذا انصرف برغبة وحماسة تكادان تشبهان الجنون إلى الأبحاث العلمية. فأخرج رسالته الفذة فى تطور النبات *Metamorphosis der Pflanzen* وهى من غير شك كشف جديد فى هذا العلم. وأعقبها برسائل أخرى دونها فى المنزلة العلمية كرسائله فى البصريا والرياضيات والألوان وغيرها. وقد بقى جوته منغمسا فى هذه الشهوات حتى انتشله منها شلر ووجهه بعنف نحو الأدب. وقبل أن نتدرج إلى ذكر اجتماعه بشلر يجب أن نشير إلى الحوادث التى شغلته قبيل ذلك. فى عام ١٧٩٠ سافر جوته للمرة الثانية إلى إيطاليا لى يصحب الدوقة أماليا ويرافقها فى عودتها، ولم يكن لزيارته الثانية لإيطاليا فى نفس جوته من الأثر ما كان للزيارة الأولى. فإن الرحلة كانت محدودة المدى، والأحوال مختلفة عما

كانت عليه من قبل، وعقب عودته إلى فيمار كان العالم السياسى فى أوربا يموج بعضه فى بعض، فقد ثارت فرنسا ثورتها وزعزع عرش البربون، فثار ثائر ملوك أوربا إذ رأوا العرش تنتهك حرمة والصولجان يحطم، والحقوق الملكية المقدسة تداس وتمتهن. عزَّ هذا على أصحاب العروش. فجرد هؤلاء الحلفاء جيشاً ليدافع عن الحق الملكى المشروع، تلقاء هذه الاعتداءات البذيئة من العامة والسوقة.

وقد يتساءل القارئ: وما لجوته وهذا كله؟ لم يكن جوته بالرجل الذى يأبه للحقوق الملكية المقدسة، ولم يكن يعطف على التائرين بعدما رأى من انتهاكهم للحرمات، وكان أحب إليه أن يجلس فى داره ليفند آراء نيوتن الرياضية، ويحلل الألوان. ولكن لسوء حظه كان ملك بروسيا أحد الحلفاء، واختار كارل أوجست قائداً لفيلق من فيالق بروسيا، ولدوق فيمار ولع عظيم بالجيش، كما له ولع عظيم بجوته. فطلب من جوته أن يصاحبه. وما كان جوته ليرد لكارل أوجست سؤالاً. فصاحبه فى تلك الحروب وكان يقضى أكثر وقته فى تجاربه العلمية يفحص العظام ويراقب الألوان، ويدرس النبات. وكان سروره عظيماً حين تمت هزيمة الحلفاء لا حباً فى انتصار التائرين. ولكن حبا فى العودة إلى درسه وعمله، وكتب إثر عودته إلى أحد أصدقائه يقول: «أعود الآن إلى منزلى لكى أرسم من حولى دائرة محكمة لا يدخلها غير الحب والصدقة والعلم والفن. ولست أشكو من الماضى، فقد تعلمت منه الشئ الكثير النافع». وهكذا صمم جوته أن يعكف على أعماله الأدبية العالمية، غير مكترث بتلك الزوابع السياسية التى تجتاح وجه أوربا.

كانت عودة جوته إلى فيمار فى أواخر سنة ١٧٩٤، وفى مايو من السنة التالية كان جوته فى بينا ليسمع محاضرة عن النبات فى دار جمعية التاريخ الطبيعى، فالتقى بعد المحاضرة بشلر، وهو إذ ذاك أستاذ التاريخ بها، ثم تحدثا قليلا بعد المحاضرة. ومنذ ذلك العهد توثقت الرابطة بينهما وازدادت صداقتهما قوة على مر السنين.

إن صداقة جوته وشلر فريدة فى بابها يكاد لا يكون لها نظير فى تاريخ الأدب لأية أمة فى أى عصر. ويصعب على الإنسان أن يتصور شاعرى ألمانيا العظيمين المتنافسين.

وقد ارتبط قلباهما برباط الحب والإخلاص، حتى لقد كان جوته يقول إن أسعد ظروف حياته هي التي مكنته من مقابلة شلر. ولأول وهلة يخيل للمرء أن تلك الصداقة متعذرة لما بين الرجلين من الفروق؛ كان جوته في الخامسة والأربعين وشلر بونه بعشر سنوات. وكان جوته ربيب النعمة حليف الغنى، قد بسم له الحظ طول عمره. بينما شلر قد نشأ في فقر وعاش في فاقة، وكان دائماً في ضنك وضيق. كان جوته صحيح الجسم قوى البنية وشلر بعكس ذلك. وكان جوته يعشق الطبيعة والحقيقة، أي أنه رياست (واقعي) بينما شلر كان يرمى بخياله بعيداً يلتمس المثل العليا، أي أنه إيديالست (كمالي)، وكان جوته يشغل في أول النهار. وشلر يعمل في الظلام إلى ما بعد منتصف الليل. ثم أليس المعقول أن تتنازع شلر عواصف الحسد حين يقارن بين حال جوته وما هو فيه من بسطة في الرزق وحالته هو، إذ يضطر لأن يجتزي بالشئ اليسير، وبينما جوته يسكن في منزلين رحبيين في فيمار، يكتفى شلر بغرفتين في إحدى الدور الصغيرة؟.

على أن هذه الاختلافات بين الشاعرين لم تقم حائلاً دون التأليف بين قلبيهما برباط من الصداقة النادرة. وذلك لأن كليهما كان يقدر ما للآخر من المزايا ويعجب بمواهبه، ويجد منه فهماً وتقديراً لكل فكر وكل حس وكل بادرة تبدر منه ثم بعد هذا كله فقد كانا يعتقدان أن لديهما رسالة جليلة يؤديانها إلى العالم؛ فهل مثل هذين يجدان من وقتهما فراغاً للتفكير في الحسد والبغضاء؟

في عام ١٨٠٠ جاء شلر إلى فيمار وأقام بها. وقد حاول الكثير أن يبذر شيئاً من النفور بينهما، فأخذ الناس يتعصبون؛ فريق لجوته وفريق لشلر. وقد رد عليهم جوته بأنه أولى بهم أن يحمدا الله أن لديهم شاعرين لا شاعرا واحدا. وقد حاول أهل حاشية فيمار بتمجيد شلر والاحتفال به أن يوغروا صدر جوته عليه. فلم يتم لهم شيء مما أرادوا. إن صداقة هذين الرجلين قلعة حصينة لم تؤثر فيها قنابل الدسائس ولا إغارات النميمة.

كانت هذه الصداقة بين الشاعرين أهم شيء في تاريخ كل منهما. فكانت تلك السنين من أسعد سني حياتهما. وكان إنتاجهما عظيماً، ليس له نظير في أي جزء آخر

من عمرهما، لا من حيث المقدار ولا من حيث الجودة. وقد كان كل منهما يقبل نصح الآخر، فيكمل كل منهما نقص صاحبه. وعاد إلى جوته نشاطه الأدبي، على ما صرح بذلك في كتاب إلى شلر يقول فيه : «لقد خلقت لى شبابا جديدا وأرجعتنى مرة أخرى إلى القريظ بعد أن باعدت بينى وبينه».

بدأ هذا التعاون الأدبي بإصدار مجلة أدبية Die Horen وبعد ذلك أخذوا ينشران مئات من الرباعيات فى نقد معاصريهم واسمها Xenia. وفى سنة ١٧٩٧ أخذوا يتنافسان فى تأليف قصائد قصصية من النوع المعروف باسم Ballade وجوته ولو أنه يعترف بأسبقية شلر فى هذا النوع من التأليف، قد أخرج فى تلك السنة تلك القصائد البديعة «عروس كورنت» و«الإرل كونج». فى هذه الفترة أخرج شلر خير رواياته التمثيلية مثل «والنستايين» و«ماريا ستوارت» و«ولهم تل». وأخرج جوته «ولهم مايستر» و«فاوسبست الأولى»، و«هرمن ودوروتيا». عدا كثيراً من القصائد والمقطوعات.

هذا التعاون الفكرى الجليل بين الشاعرين قد رفع صداقتهما إلى مستوى قل أن تسمو إليه صداقة. وأصبح جوته يعتقد أن وجود شلر أمر لازم لوجوده هو. لهذا لا نعجب إذا علمنا أن قد خانه جلده، واستولى عليه جزع شديد حينما علم بوفاة شلر فى مايو سنة ١٨٠٥ ولم يتجاوز السادسة والأربعين. وكتب جوته إلى تسلتر يقول: «إن نصف حياتى قد بان عنى». ولم يعرف عن جوته أنه حزن لفقد عزيز أو موت ولد أو قريب حزنه على فقد شلر، وقد بكى من أجله مر البكاء، وهو الذى كانت تأبى عليه كبرياؤه أن يبدي جزعا أو حزنا بين أيدي الناس. وعبثا حاول أن يجد سلوانا فى الدراسة أو التأليف. فإن فكره قد خمد وحنوة ذكائه قد انطفأت على إثر هذه الكارثة.

فى شهر أكتوبر التالى لوفاة شلر. دارت المعركة المعروفة بين نابليون وأعدائه بالقرب من بينا وجاءت فرقة من الجنود الفرنسية فاحتلت قيما انتقاما من كارل أوجست لأنه، وإن لم يحارب نابليون، عاون أحد القواد بأن أقرضه نقودا فى وقت الحاجة وأوى بعض الجرحى من الضباط البروسيين. وقد تصدت لنابليون الدوقة لويز، وبررت موقف زوجها والتمست من نابليون أن يرأف بأهل الدوقية ولم تزل به حتى لان، وانجلي العسكر عن قيما.

وقد غضب جوته أشد الغضب إذ رأى هذا الظلم موجهاً إلى صديقه وسيده مع أنه لم يقم إلا بما يوجب الشرف ويحتمه الواجب. أحسَّ جوته بأن الحال عصبية وأنه أولى به أن يضم إليه جميع أقربائه والمخلصين له. فقرر أن يعقد قرانه على كرستيانه. وتم ذلك بعد معركة بينا ببضعة أيام بعد أن عاشرها معاشرة الزوجة سبعة عشر عاماً، وبعدما ولد له منها ولده أوجست وكان عمره وقت الزواج الرسمى ست عشرة سنة. وقد قرر جوته أنه إذا حدث له شيء فى تلك الأزمنة الخطيرة، فالأولى أن يترك زوجته وابنه فى حال طبيعية. وبالطبع قد أثار هذا الزواج عاصفة انتقاد بين بعض أهل فيمار. ولكن أكثر أصدقائه هناؤه على هذه الخطوة الحميدة التى نظم بها حاله المنزلية. وقد هناؤه أمه التى كانت دائماً معجبة بكرستيانه وقد أحببتها منذ البداية.

بعد ذلك حسنت علاقة دوق فيمار بنابليون. وفى خريف سنة ١٨٠٨ كان نابليون فى إيرفورت على مقربة من فيمار. وفى ٢ أكتوبر استدعى جوته إليه، ولما وصل إليه كان الإمبراطور يتناول فطوره، ومعه تاليران ودارو وبعض حاشيته. فسأل جوته عن سنة وكان قد بلغ الستين، فقال الإمبراطور إنك أحسنت الاحتفاظ بقوتك. ثم أخذ يتحدث عن الأدب فانتقد كتاب محمد لقولتير ومدح آلام قرتسر وقال إنه قرأها سبع مرات، ثم انتقد بعض أجزاءها. وانتهى الحديث بعد أن استمر ما يقرب من الساعة؛ وبعد أن خرج جوته التفت بنابليون إلى من معه وقال تلك العبارة المشهورة: 'volia' un homme.

بعد هذه المقابلة بأيام كان نابليون فى فيمار فى حفلة أقيمت له، وتحدث طويلاً إلى جوته وويلاند، واقترح على جوته أن يؤلف شيئاً يمثل فيه يوليوس قيصر وعظمته والخيرات الهائلة التى كان منتظراً أن يغمر بها العالم لو لم يقض عليه؛ وكذلك دعاه لأن يزور باريس فأظهر رغبته فى ذلك، ولولا تقدم سنة لنفذ هذه الرغبة من غير شك؛ وقبل سفر نابليون من إيرفورت أنعم بنيشان اللجيون دونير على كل من ويلاند وجوته.

فى سنة ١٨٠٩ أخرج جوته قصة جديدة يصعب ترجمة عنوانها (Wahlverw and Schaffen) (قراءة الاختيار)، وقد نشأت هذه القصة عن حادث جديد فى حياة جوته؛ وهو حبه لفتاة

اسمها متأخر تسليب، متبناة أحد أصدقائه، وقد رآها وهى طفلة ونمت وكبرت أمام عينيه ثم انتهى حب الطفلة إلى حب الفتاة. ولكنه أمسك نفسه وكظم حبه وأعيدت الفتاة إلى المدرسة برهة لكى تنجلى عمايته. ومقدرة جوته على أن يحب وأن يبعث الحب فى غيره قد لازمته طول حياته. ففى مارينباد التقى بفتاة أحبها وأحبته فى سنة ١٨٢١ وهو إذ ذاك قد جاوز السبعين، وقد أراد أن يتزوج منها لولا أن خشى العنت والسخرية.

وفى سنة ١٨١٠ أخذ يؤلف كتابه «الحقيقة والخيال» (Dichtung and Wahrheit) الذى أخرجه فى ثلاثة أجزاء وضمه سيرة حياته من أولها. وإتمام هذا الكتاب الخطير كان من أهم الأعمال التى شغلته فى السنين الأخيرة من عمره. وفى سنة ١٨١٣ حزن جوته حزنا شديدا لوفاة ويلاند، ورأى عقد أصدقائه وأحبائه ينفرط جوهرة إثر جوهرة، فبعد هردر قضى شلر ثم الدوقة أماليا ثم أمه. والآن يذهب ويلاند فيزداد شعوره بالوحدة والوحشة.

فى عام ١٨١٣ تحالفت دول أوروبا على نابليون، وفى أواخر السنة انهزمت الجيوش الفرنسية فى معركة ليبتسك، وفى العام الثانى كان نابليون سجيناً فى جزيرة إلبا، وقد خسر العرش والدولة بأسرع مما أحرزهما. هذه الحوادث الجلية التى ارتجت من أجلها أوروبا، كان لها أثرها فى نفس جوته وفى حياته لكنها أثرت فيه تأثيراً خاصاً. لم يكن فى صدر جوته لنابليون بغض، بل كان يجله ويتوقع له النصر، ولم يشارك كثيرين من الألمان فى بغضهم له وحقدهم عليه. فكانت نظرة جوته إلى هذه الحوادث نظرة فلسفية عالية، لا نظرة الوطنى مدفوعاً بشعوره لوطنه. ولهذا هاله أن يرى النجم المتلاشى يسقط هذا السقوط الفجائى، وهذا الطود الشامخ تتداعى أركانه وتنقض جوانبه.

وهنا لابد لنا أن نشير إلى التهمة التى اتهم بها جوته، وهى أنه كان مارقاً من دين الوطنية وأنه لم يكن فى قلبه عطف على ألمانيا. وإنصافاً لجوته يجب أن نذكر القارئ بأنه كان مخلصاً أشد الإخلاص لوطنه المختار «قيمار»، وكان حنقه شديداً على نابليون من أجل غضبه على كارل أوجست الذى كان جوته يتفانى فى الإخلاص له والذود عن حوضه. أما أنه لم يكن ذا شعور وطنى ألمانى، فليذكر القارئ أن ألمانيا فى عصر نابليون كانت عبارة جغرافية ليس لها مغزى سياسى، وكانت مقسمة إلى مائة

جزء كل منها مستقل عن الآخر، وكان نابليون هو العامل الأكبر فى إيجاد فكرة الوحدة الألمانية، فقد وحد الألمان بغضه، والرغبة فى التخلص من نير استعباده. فهل من العدل أن يلام جوته وهو فى الستين عن عمره على أنه لم يستشعر البغض لمن لم يلحقه منه أذى، ولم يظهر العطف على فكرة أوجدها هذا البغض؟ إن جوته الذى كانت روحه عالمية، والذى قضى حياته فى تأديب نفسه على أن تنظر إلى الأمور من ناحية عالمية، لا يجوز أن يطلب منه وهو كهل أن يثور كما يثور طلبة المدارس من أجل فكرة كان يرى أن تحقيقها بعيد.

ولهذا لم يكن غريباً أنه فى تلك السنين العصبية: سنين إلبا ووترلو ومؤتمر فينا تحول جوته عن أوروبا تماماً وتركها وراءه ظهرياً. والتفت يلتمس وحياً جديداً ومثاراً جديداً للخيال والشعر بأن أخذ يدرس أدب الشرق، وينوع خاص الأدب الفارسي والعربي. أخذ يدرس شعر حافظ الشيرازي مترجماً إلى الألمانية، وأخذ يستعين ببعض المستشرقين على الاستزادة من هذا البحر الفياض.

وهكذا نرى جوته وهو شيخ فى السادسة والستين من عمره يقبل على الدرس إقبال التلميذ، بحماسة وحرارة نتمنى مثلهما لكل تلميذ. وأخذ يدرس القرآن وكان إعجابه به لا حد له. ولسوء الحظ لم يكن جوته قد درس العربية أو الفارسية. وإذا كان هذا مبلغ إعجابه بالأدب الفارسي والعربي مترجمين - والترجمة تشويه لا مفر منه - فكيف يكون تأثره لو أتيح له قراءة تلك النصوص فى أصولها؟

كانت ثمرة هذه الجهود كتاب بديع سماه ديوان الشرق والغرب. ضمنه كثيراً من الصور الشرقية مرسومة بريشة غربية. وقد أضاف إلى الأشعار شروحا يصف بها حالة الشرق وتاريخه، مما يعين القارئ على تفهم ما جاء فى الديوان. وهذا الكتاب، ولو أنه يشتمل على قصائد من أبلغ ما جادت به قريحة جوته، ليس من كتبه الشائعة المتداولة، نظراً لأن معانيه يحيط بها عادة غشاء من الغموض، فالكتاب إذن للخاصة لا للعامة، شأنه فى هذا كشأن الجزء الثانى من فاوست.

* * *

ولقد متع الله جوته بعمر طويل. وكانت السنين الأخيرة كلها هدوء وسكون. فقد خففت عنه أعباء أعماله الرسمية. وكان يقضى معظم وقته فى منزله، الذى أصبح حقيقة كعبة القاصدين يحج إليها الراغبون فى رؤية الشيخ الوقور، ولقد كان جوته فى كهولته على شىء كثير من الهيبة، وهنرى هاينه بظرفه المعهود يقول لنا إنه كان يؤلف الجمل التى يريد أن يقولها! حتى إذا كان فى حضرة المشتري (جوته) لم يحر كلاما، اللهم إلا عبارة، قالها فى ارتباك وحياء، عن شجيرات البرقوق التى رآها فى طريقه بين بينا وفيمار.

وكان الزائرون من جميع الطبقات. فمنهم الأمراء والوزراء ألمان وغير ألمان، كانوا يحضرون فى صحبة دوق فيمار. ومنهم الأدباء والشعراء أمثال هاينه وتاكري. ومنهم أيضا الفضوليون الذين لا تخلو ديار كبار الناس منهم. على أن حياة جوته إذ ذاك لم تكن مجرد زيارات واحتفالات، بل لقد كانت حافلة بنشاط كثير. فقد أتم فى هذه السنين الأخيرة الجزء الثانى من كتاب ولهم ما يستر وكتاب الحقيقة والخيال، والكتاب الثانى من فاوست. وهذا الأخير لم يتم تأليفه إلا فى سنة ١٨٢٦، وهو معتبر عند الخاصة أجل شىء كتبه جوته، وقد أوصى الشاعر بالآ ينشر إلا بعد وفاته، ولهذا بقى فى يده إلى آخر لحظة يزيد فيه ويعدل فيه ما شاء. وإلى الأسبوع الأخير من حياته كان جوته يكتب أو يملئ الرسائل الأدبية والعلمية ويتعقب سير التفكير العلمى فى ألمانيا وفى أوروبا بكل يقظة وانتباه.

وكان حافظا لكل قواه إلى النهاية، وبرغم ضعف سمعه، فقد بقى نظره صحيحاً سليماً.

* * *

كانت دار جوته فى شىء من الوحدة، ولكن تحسنت هذه الحال فى عام ١٨١٧ إذ تزوج ولده أوجست من فتاة من أذكى فتيات فيمار اسمها أوتليا. ولكن السرور بهذا الزواج قد شابته وفاة زوجه كرستيانه فى العام التالى، وقد كان حزنه عليها شديداً. ومن رزق عمرا طويلا كعمر جوته لابد أن يعانى مرارة فقد الأصدقاء والأحباب. ففى

عام ١٨٢٧ ماتت مدام فون شتاين، وفي يونيو ١٨٢٨ مات الصديق الأكبر كارل أوجست، وصاح جوته إذ بلغه نعيه: الآن قد ذهب كل شيء (Nun ist alles vorbei)، وفي فبراير سنة ١٨٣٠ ماتت دوقية ثيमार، وفي أكتوبر توفي ولده أوجست وهو فى إيطاليا. وكان موته ضربة أليمة. وبعد وفاته جاءت زوجته أوتليا بأطفالها وأقامت فى دار جوته. فكان له من وجودهم بعض السلوان، فى وقت بات فيه حقيقة وحيدا بعد أن درج أصدقائه وأقرانه.

* * *

فى أغسطس سنة ١٨٣١ كانت الحفلات قد أعدت من أجل عيد ميلاد شاعر ألمانيا الأكبر. وفرارا من هذه الحفلات ذهب جوته إلى إلميناو ليقضى مدة يسيرة ريثما تنتهى الضجة، وحين وصل إلى تلك البلدة صعد إلى المرتفعات المجاورة ونزل بالكوخ الصغير الذى قضى فيه مع أصدقائه أياماً سعيدة، وحين دخل إلى الكوخ رأى مكتوبا على جدرانه سطورا قد خطها هو بقلمه منذ سنين عديدة، وهى:

Ueber alle Gipfeln
Ist Ruh,
In allen Wipfeln
Spurest Du
Kaum einen Hauch;
Die Vögelein schweigen im Walde.
Warte nur, balde
Ruhest du auch.

وهى أبيات لا بد أن تقرأ وتفهم فى لغتها الأصلية، ومع ذلك فإننا نعالج ترجمتها فى شيء كثير من التردد:

فى ذرى الأطواد صمت شامل
وسكون غشى الكون الفسيح ..

خيمَ الصَّمْت على الغاب، فلا
صوت طَيرٍ فيه أو نسمة ريح..
كل شئٍ مستريح هادئ
وقريبا أنت أيضا تستريح !

طالع جوته هذه السطور، فاغرورقت عيناه بالدموع، دموع أثارتها ذكراه لأحبابه
وأصحابه، ولأيام فتوته وشبابه، فأطرق مليا ورددَ السطر الأخير «وقريبا أنت أيضا
تستريح».

وحقيقة كانت النهاية قد اقتربت؛ ففي ظهر اليوم الثاني والعشرين من مارس
١٨٣٢ قضى نحبه فى داره بقيمار بعد أن لازم الفراش أياماً قلائل. وقد دفن إلى جنب
صديقه الخالد شلر.

فاوست المأساة

فاتحة^(١)

فى السماء

الرب. جموع الملائكة: وبعد قليل يظهر إبليس

يتقدم الملائكة الثلاثة المقربون

إسرافيل

الشمس تغنى^(٢) كدأبها من الأزل، مناقسة فى النشيد أخواتها الأجرام.
وتدور دورتها التى رسمت لها بخطى كالرعد القاصف.

(١) هذه الفاتحة فى السماء بمثابة مقدمة للكتاب أراد المؤلف أن يبين فيها المحور الذى تدور حوله حوادث القصة، وأن يضع أمام القارئ صورة لقوتى الخير والشر وتأثر الإنسان بكل منهما. ولهذا ذكر ذلك الحوار بين الرب وإبليس.

وقد اختار (غوتيه) أن يجعل هذه الفاتحة على نسق كتاب أيوب كما ورد فى التوراة: حيث يبدو إبليس مع الملائكة أمام الرب. فيمتدح الرب أيوب بأنه عبد مخلص. فيزعم إبليس أن هذا الإخلاص لا يلبث أن يزول لو أن الرب ابتلى أيوب بفقد ماله وولده إلخ. فعلى هذا النسق كتب غوتيه هذه الفاتحة.

ومع ذلك فقد تناول بعض الكتاب هذا الفصل من «فاوست» بالنقد، زاعمين أنه من السفه وقلة الاحترام للدين «والتجديف» بمكان. والحقيقة أن غوتيه كان أبعد الناس عن التجديف والاستهزاء بالدين. وإنما حملة على كتابة هذا المنظر فى هذا الشكل القصة التى بنى عليها كتابه والتى اقتبسها عن كتاب القرون الوسطى والتى منها تلك المراهنة بين الرب وإبليس. وفى الكتاب أشياء أخرى خارقة للعادة سيراما القارئ.

(٢) إشارة إلى ما يقال من إن للأجرام السماوية فى دوراتها أصواتا كالموسيقى. وقد ذكر شىء من هذا فى كتاب أيوب (إصحاح ٣٨) «ونجوم الصباح غنت معا».

ألا إن منظرها ليبعث القوة ويثير الهمة فى نفوس الملائكة، وإن لم يكن بينهم من يفهم كنهها ويدرك سرها .

إن هذه البدائع السامية، التى يقصر عنها الإدراك، لم تزل ذات روعة وبهاء كما كانت فى يومها الأول.

جبريل

وهذه الأرض ذات الجمال الرائع دائية فى الدوران بسرعة يقصر عن تصويرها الوهم. يتعاقب عليها النور الساطع والظلام الحالك الرهيب.

والبحر اللجى يرغى ويزبد، ويندفع تياره إلى سفح الصخور.

والبر والبحر كلاهما يدوران دورة الكواكب الأبدية السريعة.

ميكائيل

والعواصف تتبارى فى النوى والزئير، مندفعة من البحر إلى البر، ومن البر إلى البحر. وتكون حول الأرض نطاقا هائلا من القوة والصولة. والبروق المتقدة تكتسح وتدمر ما يعترضها فى سبيلها. وعلى أثرها تدوى الرعود وتنقض الصواعق.

ومع هذا كله فإن رسلك أيها المولى الجليل يمجدون يومك الهادئ المطمئن ويقدسون هدوءه وصفاءه.

الثلاثة معا

إن هذا المنظر ليبعث القوة ويثير الهمة فى نفوس الملائكة وإن قصرت أفكارهم عن إدراك أسرارك الخفية.

وإن ما أبدعته فى العالم لم يزل ملؤه الروعة والبهاء كما كان فى اليوم الأول.

إبليس

أما وقد تنازلت أيها المولى الجليل فدنوت منا مرة أخرى، وسألتنا عن حالنا، وقد عودتني من قبل أنك تسر لرؤيتي. فلهذا ترانى أنا أيضا واقفا وسط العبيد.

سامح يا مولاي واصفح! فإنى عاجز عن الإتيان بمثل تلك الكلمات الراقية، وإن جر على هذا العجز سخرية الجميع واستهزاءهم.

ولعمري لو أننى جاريتهم فأبديت شعورا أو عاطفة لأضحكك صدور مثل هذا منى؛ لولا أنك غادرت عادة الضحك.

أنا لا أعرف كيف أحدث عن الشمس ولا عن الأجرام العلوية.

وإنما أعرف بنى الإنسان وكيف يعذب بعضهم بعضا. إن ابن آدم - إله الأرض الصغير - لم يزل على طوره القديم لم يتغير. وهو اليوم عجيب غريب كما كان فى اليوم الأول^(١).

وإن حاله قد تحسن وعيشه قد يطيب؛ لولا أنك منحتة ذلك الشعاع من النور السماوى، الذى سماه العقل، واتخذ منه آلة يتوسل بها لأن يكون أكثر بهيمية من البهائم وأكثر وحشية من الوحوش.

وإنى لأشبهه - لو يسمح لى مولاي - بتلك الجرادة الطويلة الساقين التى ما تنفك تطير واثبة، وتثب طائرة. وتغنى أنشودتها القديمة البالية وسط الحشائش. ويا ليتة بقى دائما وسط الحشائش والأعشاب، ولم يذهب إلى كل بؤرة رجس وقذر فيدس بأنفه وسطها^(٢).

(١) يريد إبليس بتكرار عبارة «كما كان فى اليوم» شيئا من التهمك مما قالته الملائكة قبلا.

(٢) وجه الشبه هنا بين الإنسان وتلك الجرادة أنه يريد التحليق والطيران فلا يستطيع فيكتفى بالوثوب بين الحشائش. ثم يليه انغماسه فى الأقدار عن التفكير فى الطيران.

الرب

هل بقى شىء لم تقله ؟ مالك لا تجى إلا لتتهم ؟ أما ترى مدى الدهر فى الأرض
شيئاً حسناً ؟

إبليس

كلا أيها المولى ! إنى لا أرى هناك إلا كل قبيح، كما هى الحال منذ القدم. وإنى
لأشفق على بنى الإنسان حين أرى حياتهم المملأى بالآلام؛ حتى لقد رثيت أنا للمساكين
فلا أريد أن أعذبهم.

الرب : أتعرف فاوست ؟

إبليس : الدكتور؟

الرب: خادمى.

إبليس: أجل. وإنه ليسلك فى خدمتك طرقاً غريبة. إن ذلك الأبله قد بات لا يرى
لنفسه فى الأرض قوتا أو شرابا. وذهبت به أحلامه وأوهامه إلى مدى بعيد. وإخاله
مدركا سخفه وجنونه بعض الإدراك. وتراه اليوم يتطلب زُهر النجوم من السماء، ويريد
أن تخرج له الأرض أقصى ما يشتهى ويحب؛ وبعد هذا كله فلا شىء فى العالم يشفى
أوام نفسه الحائمة، ويطفئ غليل صدره الهائج.

الرب

لئن كان يعبدنى اليوم وهو مشئت الفكر موزع الفؤاد، فلسوف أهديه سبيل
الرشاد بعد حين. والزارع يعلم حين يرى الشجرة قد أورقت أن سرعان ما تزدان
غصونها بالأزهار والثمار.

إبليس

هل تراهننى على أن هذا العبد سيأبى من طاعتك؟
لا أطلب منك إلا أن تأذن لى كى أجره برفق إلى طريقى وسنتى.

الرب

لا أمنعك عن هذا ما دام على قيد الحياة.
إن المرء قد تزل به القدم حين يجد فى السعى.

إبليس

لك الشكر على هذا والحمد. فأنا لا أحب الموتى ولم يكن لى فيهم يوما ما أى مأرب. وأحب إلى تلك الوجوه الناضرة التى يتدفق منها ماء الحياة. أما رمم الموتى فلا أصلح لها ولا تصلح لى. وأنا فى هذا أشبه الهرة التى تأنف أن تاكل الفأرة ميتة وتأبى إلا أن تصيدها حية.

الرب

لا ضير ! إنى منحتك سؤلك وخليت بينك وبينه. حاول إن استطعت أن تحول تلك الروح عن ينبوعها الأسمى^(١)، واجذبها إن قدرت إلى حضيضك، ثم لتقف ذليلا صاغرا حين يضطرك فشلك وعجزك إلى الاعتراف بأن الرجل الصالح - مهما أظلمت بصيرته - لا يلبث أن يهتدى إلى السبيل الأرشد والطريق الأقوم.

(١) يقصد غوته بالينبوع الأسمى الله. ولعل فى هذه الجملة وما يليها المحور الذى يدور عليه الكتاب.

إبليس

حسن جدا! إن هذا الأمر لن يدوم طويلا. ولست أخشى أن أخسر الرهان.
ومتى أدركت غايتي فأذن لي بأن أسر وأفتخر بما أحرزت من النصر.
ولسوف يأكل التراب بلذة وشهية كما تفعل الحية الشهيرة، التي تجمعني وإياها
أواصر القرابة^(١).

الرب

إن أدركت غايتك. فافعل ما تشاء.
إننى ما كرهت يوما ما من كان مثلك. ومن بين تلك الأرواح التي دأبها الإنكار
والكفران أرى أقلها ثقلا على نفسى ذلك المازح الساخر^(٢).
إنى رأيت الإنسان سرعان ما تخمد همته وتفتر عزيمته ويخلد إلى الدعة والراحة،
ولهذا أرسلت وراءه قرينا يستفزه ويستثيره، ولا ينفك يعمل ويدأب كعادة الشياطين.
(للملائكة) وأنتم أيها الأبناء الحقيقيون للآلهة. أنعموا ماشئتم بهذا الحسن الغزير
والجمال الرائع الأبدى.
ولتحطكم روح البركة والنماء، التي ما تزال تخلق وتنتج بسياج بديع من الحب.
وأما هذه الظواهر الزائلة التي تبدو لكم فلتستنبطوا منها الحقائق الثابتة
والأفكار الخالدة^(٣).

(تغلق السماء ويتفرق الملائكة ويبقى إبليس)

(١) تجمع إبليس والحية أواصر القرابة لأنها هي التي ضلكت حواء وأدم. وقوله إنها تاكل التراب إشارة إلى ما جاء فى سفر التكوين، الإصحاح الثالث (١٤): «فقال الرب الإله للحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وترابا تاكلين كل أيام حياتك».

(٢) الأرواح التي دأبها الإنكار هي الشياطين. وكان غوته يمثل إبليس بأنه الشيطان الذي يجمع إلى الإنكار والكفران (Verneinung) شيئا من المجون والفكامة والسخرية.

(٣) أى أن الظواهر كلها زائلة. وإنما الأبدى الدائم هو الأفكار الكامنة وراء تلك الظواهر.

إبليس

يحلو لى أن أرى المولى القديم من حين إلى حين. وسأبقى دائما حذرا، كي لا يحدث بيننا خصام.

ولعمري أنه لجميل جدا من سيد عظيم أن يتحدث إلى الشيطان نفسه بمثل هذا الأسلوب البشرى.

فاوست

الجزء الأول من المأساة

(١)

فى الليل

فاوست جالس على كرسيه أمام مكتبه قلقا فى غرفة ضيقة مرتفعة السقف

فاوست

أجهدت نفسى فى دراسة الفلسفة والشريعة والطب. وتعمقت أيضا - ويا للحسرة! - فى دراسة علوم الدين^(١)، بجد لا يعتوره فتور، وهمة لا تعرف الكلال. ثم أرانى - أنا البليد المسكين - بعد هذا كله لم أتقدم شيئا ولم أخط نحو العرفان خطوة.

سميت الأستاذ والدكتور. وقضيت زهاء عشر سنوات وسط تلاميذى أخادعهم وأغرر بهم وأذهب بهم ذات اليمين وذات الشمال. ثم أرانا بعد هذا كله لم نزل عاجزين عن أن ندرك أمرا أو أن نلم بشيء. لا ريب أن احترقت مهجتى أسى وكمدا على تعب ضائع وعناء لم يكن تحته من طائل.

(١) يتحسر فاوست على تعمقه فى دراسة علوم الدين (Theologie) لأن هذا سلبه راحة الإيمان. وسيعود إلى ذكر هذا فى نهاية المنظر.

لا أنكر أنى بت أكثر ذكاء من سائر الحمقى؛ كالدكاترة والأساتذة والفقهاء والقسيسين فلست ممن يملأ قلبه الوسوس والأوهام. ولا يزعجنى ذكر الجحيم والأبالسة والشياطين. بيد أن هذه المنزلة التى بلغتها هى التى جرّت على الويلّ والشقاء وسلبتني كل سرور وصفاء. فأصبحت وما تعلمت شيئاً نافعا، ولا حصلت علما أفيد به تلاميذى وأصلح به بنى الإنسان وأرشدهم به إلى سبل الخير. وقد صرت إلى ما أنا فيه من الفاقة، بحيث لا مال لى ولا نشب، ولا جاها أحرزت ولا سعادة. إن هذا العيش لما تعافه الكلاب لعمرى وتأباه!

لهذا قد انصرفت إلى ممارسة السحر! على بمخاطبة الأرواح، وبما لها من الصولة والقوة، أحيط علما بكثير من الأسرار، وأصبح فى غنى عن إجهاد نفسى هذا الإجهاد المر، فى ذكر أمور أجهلها الجهل كله. فأغدو وقد أدركت أى شىء خفى يمسك هذا العالم بعضه إلى بعض، وأبصرت جميع القوى المؤثرة، والجراثيم المنتشرة، بدلا من أن أبقى هنا أتشدق بالألفاظ الجوفاء، وأهرف بما لا أعرف.

أيها البدر المنير! ليت هذه آخر مرة ترانى فيها أعانى هذا الألم المبرح! لقد طالما جلست إلى هذا المكتب أروعاك فى منتصف ليل عديدة! ولكم أثرت لى أيها الصديق الحزين صحائفى وكتبى!

آه ليتنى كنت فوق قمم الجبال، أمشى مستضيئا بنورك المحبوب؛ ثم أسبح مع الأرواح حول الكهوف والغيран، طائرا وسط نورك اللطيف فوق المراعى والمروج؛ فأطرح عنى ما أكسبتنى هذه العلوم من ألم وعذاب، وأطهر نفسى بقطرات الندى المتساقطة من ضيائك!

ويلى! ألا أزال حليف هذا السجن؟ أسيرا فى غرفة رطبة لعينة لا يدخل إليها إلا القليل من نور الشمس المحبوب. يحجبه عنها كل هذا الزجاج الملون. ويملؤها إلى سقفها كئيبان من الأسفار سلطت عليها الأرضة. وقد امتلأت أرجاؤها بالأنابيب والزجاجات والصناديق ومختلف الآلات.

بل وبما خلفه الآباء والأجداد من أثاث عتيق حقير!

هذه هى دنياك التى تعيش وسطها! فتبا لها من دنيا!

وبعد هذا كله تتساءل : لماذا يضيق صدرك وينقبض فؤادك؟ ولماذا تحس دائما ألما خفيا مبهما قد نغص عليك العيش وسلبك لذة الحياة؟ وكيف لا وأنت ثاو وسط هذا الدخان والطين، تحيط بك هذه العظام البالية، بدلا من أن تكون وسط الطبيعة الحية، التى خلقها الله لينعم بها الإنسان؟

فالهرب الهرب من هذه البؤرة. ولتنطلق فى فسيح الأرض! وحسبك هذا الكتاب الثمين الممتلئ بالأسرار الذى سطرته بنان (نصطر أداموس)^(١) رقيقاً ودليلاً يرشدك إلى مسرى النجوم وبورة الفلك. ولئن تلقيت العلم عن الطبيعة نفسها فسرعان ما تفيض نفسك قوة وهمة وتدرك كيف تتخاطب الأرواح وتتحدث. وهيهات أن تدرك فحوى هذه الرموز المقدسة^(٢) إن قضيت حياتك هنا فى تفكير جاف عقيم.

أيتها الأرواح! إنك تسبحين حولى! أجيبينى إن كنت تسمعين صوتى!

(يفتح الكتاب فيقع بصره على الطلسم المسمى بطلسم العالم)

أى طرب وأية نشوة يسريان فجأة فى جوارحى ومشاعرى حين أنظر إلى هذا الرسم؟
إنى أحس الشباب والحياة. والسعادة القدسية تتقد وتلتهب فى لحمى ودمى.

أكان ربا قادرا هذا الذى خط هذه الطلاسم التى سكنت ما فى أعماق صدرى من الغيظ والغضب، وملأت قلبى المنكود بالسرور. وبما لها من قوة خفية، وتأثير غامض مبهم، قد كشفت الغشاوة عن عيني فبت أشاهد قوى الطبيعة ماثلة أمامى.

(١) نصطر أداموس أو ميشل دي نوتردام Michel de Notre Dame من علماء الhipنة فى القرن السادس عشر وكان يعيش فى فرنسا. وله مؤلفات ظهرت فى أواسط ذلك القرن ملأها بالتنبؤات التى كان يعتقد صحتها الكثيرون من معاصريه.

(٢) الرموز المقدسة من الطلاسم الموجودة فى كتاب نصطر أداموس المزعوم.

هل أنا إله ؟

إن بصيرتي قد استتارت. أنظر إلى هذه الرسوم الجلية الواضحة فأرى بين يدي الطبيعة القادرة الفعالة، أحسها بجسدى وروحي.

الآن تحققت صحة ما قاله ذلك الحكيم: «إن عالم الأرواح ليس بمغلق الأبواب، ولكن صدرك قد أغلق، وعقلك قد جمد. فانهض أيها الطالب نشيطاً فرحاً، واغسل هذا الصدر الأرضى بنور الفجر المشرق».

(يتأمل الطلسم)

عجبا! كيف انتظمت هذه الأجزاء جميعها، فكونت كلا منسقا، حياة كل جزء متممة لحياة الأجزاء الأخرى. ومرتبطة بها الارتباط كله. والرسل السماوية في صعود ونزول دائمين. يناول بعضها بعضا أباريق الذهب، سابحة في الفضاء، تنثر البركة ذات اليمين وذات الشمال. وتهبط من السماء إلى الأرض فتجعل من سائر الكائنات منظومة منسقة منضدة^(١).

ما أجل هذا المنظر!! لكنه - وأسفاه - ليس إلا منظرا! وصورة تبدو لعيني! فمن لى بأن أبلغ أسبابك أيتها الطبيعة التى لا حد لها ولا نهاية؟ أين أنت أيتها الصدور؟ يا ينابيع الحياة التى تستقى منها السماء والأرض، التى يتلف إليها كل صدر أحرقه الظما! إنك تفيضين وتروين. وأنا هنا أشتاقك لا سبيل إليك.

(يقلب صفحات الكتاب وهو متهيج متأثر فيقع بصره على الطلسم المسمى روح الأرض)

شنان بين تأثير هذه الصورة فى نفسى وتأثير الأولى!

(١) هذه صورة العالم الكبير (ماكروكوزموس) كما كان يصورها بعض الكتاب. وأكثر الشراح يرى أننا يجب ألا ننظر إليها بأنها صورة كاملة أو أنها تمثل معتقد غوتيه نفسه، وإنما تمثل ما يخطر لرجل كفاوست فى حالة النفسية هذه.

أى روح الأرض! إنك أقرب إلى وأدنى منى رحما. ها أنذا أشعر بأن قواى قد ازدادت، وجسمى سرت فيه الحمية. وأحس من البسالة والإقدام ما يدفع بى إلى خوض غمار الكون، فأنزل بالعالم الويل والثبور، أو أحمل إليه السعادة والنعيم. ومن القدرة واللبأس ما أكافح به العواصف، وأقتحم الأمواج وهى ترغى وتزبد، وتحطم السفن، وتهلك الركب، دون أن أعرف للتردد والإحجام معنى.

أرى الضباب يتكاثف من حولى. كاد نور القمر أن يختفى. وهذا المصباح قد خبا نوره. ما لهذا البخار يتصاعد! وهذه الأشعة الحمراء قد أحاطت برأسى! كأن الرعب قد ملأ فضاء هذه الغرفة ثم انقض فاستحوذ على! إنى أشعر بك تسبح من حولى أيها الروح الذى ناجيته! والآن فاكشف عنك الحجب وابد لعينى. إنى أحس صدرى يتمزق! وجميع جوارحى قد ثارت، متشوقة إلى شعور جديد وإحساسات لا عهد لى بمثلها!

إنى أشعر بأن قلبى منجذب بأسره إليك. أيها الروح! لا بد لى أن أراك ولو كان فى ذلك هلاكى.

(يمسك بالكتاب ويقرأ عزيمة الروح بشكل مبهم، فيندلع لهيب أحمر ويبدو روح الأرض^(١) فى وسطه).

الروح

من ينادينى ؟

فاوست

(مشيحا بوجهه) منظر ترتعد له الفرائص!

(١) نصح غوته لإحدى فرق التمثيل التى أرادت تمثيل «فاوست» أن يكون ظهور روح الأرض على شكل وجه هائل بحيث يملأ جميع فراغ المسرح

الروح

إنك دعوتنى بقوة، وجذبتنى ببأس وعزم، وقد أطلت الامتصاص والارتضاع من مناملى. والآن!

فاوست

ويلى! لا أطيع رؤيتك!

الروح

عجبا لك! تتلهف وتتشوق للقائى وسماع صوتى ورؤية وجهى. وقد جذبنى إلى هنا نداء منبعث من روحك ملؤه القوة والبأس. فأتيت وهأنذا أمامك. أى رعب هائل قد استحوز عليك يا من يزعم أنه فوق البشر؟ أين ذهب نداء تلك الروح؟ أين ذلك الصدر الذى استطاع أن يخلق بين جوانحه عالما يعتز به ويزهى؟ ذلك الصدر الذى كان يهتز سرورا وطربا وينتفخ بكبرياء طمعا فى محاكاتها معشر الأرواح!

أين فاوست هذا الذى رن صدى صوته فى أذنى واندفع نحوى بكل ما أوتى من قوة؟ أهو أنت الذى لم يكد يلامسه نفسى المتصاعد حتى أخذت فرائصه تضطرب وبات كاللودة المنكمشة فرقا ورعبا؟

فاوست

أو أجبن أمامك أيتها الصورة من اللهب؟
أجل أنا هو! أنا فاوست! أنا نظيرك ومثلك.

الروح

مى تيار الحياة المتدفق، وفى وسط عواصف العمل والسعى،
أنا أبدا أطفو هنا وهناك؛ وأسبح ذات اليمين وذات الشمال.
مولد وممات!

بحر خضم أبدى!
نسيج دائم التغير والتبدل.
حياة دائمة التوقد والالتهاب.
هكذا أشتغل بجد وبأس، على منوال الدهر الهائل،
لكى أنسج بيدي الثوب الحى للألوهية^(١)

فاوست

أيها الروح الجمة مشاغله، الدائب السعى فى أنحاء العالم، إنى لأشعر أنى قريب
منك، شديد الشبه بك.

الروح: إنك تشبه ذلك الروح الذى يدركه فكرك. أما أنا فشتان بينى وبينك
(يختفى)

فاوست: (وقد صعق)

لست شبيها بك. إذن فشبيه بمن؟
أنا الذى برئت على صورة الإله، ألا أشبهك أنت؟

(يطرق الباب)

أواه! أعرف هذا الطارق... إنه تلميذى.

الآن يجئ هذا الجلف الجاف فينغص على مناجاتى الأرواح، ويقضى على أبهى
ساعات عمرى وأسعدها.

(يدخل واغتر بلباس النوم وفى يده مصباح فيلتفت إليه فاوست مغضبا)

(١) ليس بواضح تماما ما عناء غوته بروح الأرض. والنور الذى يلعبه فى العالم. وإنما نذكر أن غوته كان
حلويا. ولعله يقصد بالثوب الحى للألوهية جميع الكائنات التى هى بمثابة الثوب تحل فيه الألوهية وتتجلى.

واغنىر

عفوا ومعدرة! سمعتك تنشد شيئا بفصاحة وبيان، فما شككت فى أنك تطالع
مأساة إغريقية. وبودى أن أحصل القليل من هذا الفن، فله فى زماننا هذا شأن جليل.
وكثيرا ما سمعت الناس يقولون إنه خليك بالقسيس أن يتعلم فصاحة الإلقاء
وإجادة الإنشاد من الممثلين.

فاوست

أجل! خصوصا إن كان القسيس نفسه ممثلا ماهرا كما هى الحال فى بعض
الأحايين.

واغنىر

إذا كان مقضيا على طالب العلم أن يلتزم قاعة درسه وألا يرى العالم حتى فى
يوم عيد، اللهم إلا على بعد عظيم. ترى كيف يتاح لئله إذن أن يعظ الناس ويهديهم؟

فاوست

لن تدرك هذه الغاية ما لم تكن الهداية قد ملأت قلبك، ففاضت بها روحك، فملكك
قلوب سامعيك واستحوذت على مشاعرهم وكان لها عليهم سلطان لا يقاوم.
إنك تجلس وكل همك أن تلتقط الأجزاء المتناثرة فتلتصق بعضها إلى بعض وتصنع
طعاما من بقايا موائد الآخرين. ولا تزال تنفخ فى الرماد المتراكم حتى توقد نارا
ضئيلة. مثل هذا الشئ قد يستثير إعجاب القردة والصبيان، إن كان هذا ما تتوق إليه
نفسك، ولكن هيهات أن تستطيع تحريك القلوب وإثارة الوجدان ما لم تستمد القوة من
قلبك ووجدانك.

واغنىر

على أن حسن الإلقاء هو سر نجاح الخطيب. هذا أمر أحسه جيدا وإن كان بعيدا
على البعد كله.

فاوست

أسلك بنفسك السبيل القويم. ولا تك مثل مضحكي القصور، كثيرة ضوضاؤهم،
خاوية عقولهم. وأخلق بالمرء إذا أوتى عقلا وفطنة أن يبلغ ما يشتهي، من غير حاجة إلى
التعمل والتكلف. ولعمري لأن كان لديك أمر خطير تريد أن تقوله ففيم السعى وراء
الألفاظ والعبارات؟ إن خطبكم الرنانة الخلابة التي تقدمون فيها للعالم سخافات مزوقة
منمقة هي أشبه شيء بريح الخريف الباردة، يدوى صداها في أوراق الشجر الجافة
المنتاثرة، دون أن يكون فيها ما يثير الهمّة أو يوقد الحمية في النفوس.

واغنر

أى رياه! ما أطول العلم، وما أقصر العمر! لطلما ملأت رأسى وصدرى المخاوف
على تلك الأبحاث العلمية التي أكابد في تحصيلها كل عناء، خشية أن توافى المرء منيته
قبل أن يبلغ من العلم مأربه. ما كفى المرء أن يعاني الشدائد الجمة في إحراز تلك الوسائل^(١)
التي لابد منها للوصول إلى ينبوع الأسنى. فلا يكاد يبلغ منتصف الطريق حتى
يقضى المسكين نحبّه.

فاوست

وهل تحسب الصحائف والأوراق هي ينبوع الأقدس الذي تكفى شربة منه لإطفاء
الظمأ مدى الدهر؟ إن غليك لن يشفى، وظمأك لن يروى، ما لم يفض ينبوع من صدرك،
ويتفجر من أعماق نفسك.

واغنر

عفوا أيها الأستاذ! إنها لسعادة كبرى أن نقرأ كتب المتقدمين ونشاهد روح
الأعصر الخالية ماثلة لأعيننا. فنطالع الآراء التي أدلى بها الحكماء في مختلف الأزمنة.
ثم كيف ارتقيننا نحن بعد ذلك إلى أسمى المراتب.
فاوست: أجل لعمري! لقد ارتقيتم حتى بلغت السماء!

(١) يريد بالوسائل الكتب والأسفار التي لابد من مطالعتها قبل الوصول إلى مرتبة سامية في العلم. وهنا يبدأ حوار بين الأستاذ وتلميذه عن أهمية الكتب وقيمتها.

إن الأعصر الخالية أيها الصديق كتاب مغلق عليه سبعة خواتم. وما تسميه أنت روح العصور السالفة ليس لعمر ك سوى روحك أنت انطبعت فيها صورة لتلك العصور. صورة مشوهة محزنة، تألم العين من مجرد مرآها. لأنها ليست ويا للأسف سوى حثالة قدرة أو سقط متاع لا غناء فيه.

وإن أقصى ما تبلغونه من تصوير الأعصر القديمة، أن تأتونا بقصة خرافية ملأى بالحكم الجوفاء التى تصلح لأن يرددها الأطفال أو ترددها اللعب الخشبية التى يلعب بها فى الأسواق^(١).

واغنىر

لكن هنالك مسائل مهمة : كالعالم وقلب الإنسان وروحه. أشياء يود كل امرئ لو أدرك كنهها بعض الإدراك.

فاوسست

أى ما تسمونه أنتم إدراكا!

ومن ذا الذى يجرؤ أن يسمى كل شىء باسمه الصحيح؟ إن القليلين الذين وفقوا لفهم أسرار الكون وبلغت بهم البلاهة أن باحوا بمكنونات صدورهم للعامة والغوغاء، كان جزاؤهم أن قتلوا أو صلبوا أو أحرقوا.

والآن أيها الصديق لقد مضى من الليل شطر كبير. ويجب أن نفترق.

واغنىر

كان بودى أن أبقي ساهرا أحادثك هذا الحديث الممتلىء علما وحكمة. وعلى كل حال فغدا أول أيام عيد الفصح. ولعلك تأذن لى من حين لآخر أن أسألك ما ليس لى به

(١) فى القرن السابع عشر شاعت فى أوروبا عادة تمثيل قطع مسرحية بواسطة لعب خشبية. تحمل كانهما تمثل حادثا سياسيا خطيرا وتقوه بالفاظ وحكم وخطب جوفاء.

علم. لقد أكببت على الدرس والتحصيل بجد وعزم، ولئن كنت قد علمت الشيء الكثير،
فبودي لو أحطت بكل شيء علما.

(يخرج)

فاوست (وحده)

يا عجباً لهذا المخلوق! كيف لا تدركه السأمة ولا يصل إلى قلبه القنوط! أبدا يجد
وراء كل ما هو رث بال فيتشبث بأهدابه، ولا يزال يحفر في الصخر باحثاً عن الكنور
المدفونة. فإن لقي بعد الكد والعناء دودة حقيرة عدها فوزاً وغنيمة. أكان يليق أن مثل
هذا الصوت الأدمى يرن في أرجاء هذه الغرفة التي تملؤها الأرواح؟

لكنى في هذه المرة أشكرك وإن كنت أحقر من دب على أديم الثرى. فقد انتشلتني
من وهدة اليأس الأليم الذي كاد أن يذهب بلبى وحسى. إن هذا المشهد الهائل الذي
شهدته قد تضاعلت أمامه نفسى وبت لا أرانى بجانبه سوى قزم حقير.

أنا الذى برنت على صورة الله. وغدوت أحسب نفسى قد ارتقيت حتى اقتربت من
مرآة الحقيقة الأبدية. وبت أنعم وأمرح فى ضياء السموات اللامع وصفاعها الخاص.
ولم أعد أحسب نفسى بشريا سليل الطين بل أصبحت أرانى ملكا بل أسمى من الملك.
قادرا - بمحض قوتى وصولتى - على أن أسرى فى عروق الطبيعة سريان الدم.
وأتمتع بحياة الآلهة بما لى من قدرة على الخلق والإبداع.

هكذا أسأت تقدير نفسى وهكذا خلّقت بى الغرور. والآن وقد زالت سكرتى فأى
حسرة نعرونى وأى كمد يحرق فؤادى! كلمة فاه بها ذلك الروح الهائل قد هوت بى إلى
الحضيض، كأنما انقضت على الصواعق.

* * *

أجل! ليس لى أن أقيس نفسى بك أيها الروح أو أن أدنو من مقامك.
أيها الروح الجليل! ما لى قدرت على مناداتك وعجزت عن استيقانك!

تلك اللحظة القدسية التي شاهدتك فيها أحسست نفسى حقيرا بمقارنتى بك،
عظيما باقترابى منك. لقد دفعتنى عنك بغلظة وقسوة فهُويت إلى الحضيض، حيث
أشاطر بنى الإنسان عيشهم الأُنكد، ومصيرهم الغامض المبهم.

أين لى من يرشدونى ويهدينى؟ وأنى لى أن أعرف ما أتى وما أتجنب؟ وهل نافعى
أن أطيع ذلك الدافع وأجيب ذلك النداء؟^(١).

يا ويلاه! إن المصائب والكوارث ليت وحدها العلق الذى يعترضنا فى الحياة، بل
إن أعمالنا وجهودنا نفسها كثيرا ما تكون حربا علينا.

إن المثل العليا التى تتصورها النفس سرعان ما يذهب بحسنها ما يغشاها من
العناصر الغريبة.

ولقد يتاح لنا فى الحياة أن نصل إلى ما هو حسن فنرضى بما بلغنا ونحسب
السعى وراء ما هو أحسن وهماً باطلاً وتعباً ضائعاً^(٢).

إن أسمى العواصف وأرقى المشاعر التى ترفع النفس وتعليها لا تلبث وسط
عواصف الدهر المهلكة حتى تذوى وتذبل.

لقد كنت فيما مضى يسبح بى الخيال وتحلق طير آمالى فى سماء الأبدية؛ والآن
أصبحت أجتزئ من ذلك كله بمكان صغير، بعد أن تحطمت سعادتى المرة بعد المرة،
ما بين الأعاصير المدمرة، والزوابع المهلكة.

لقد ثوى الهم فى أعماق القلب، وهو هناك دائب يخلق للمرء آلامه الخفية. ولا يقر له
قرار حتى يذهب بالسرور ويقضى على الراحة، متذرعاً إلى ذلك بكل وسيلة، وسالكا لذلك
كل سبيل. فتارة يجعل من دورنا ومنازلنا، ومن زوجنا وولدنا مثارا لأحزاننا، وطورا يثير
آلامنا من خشية النار المتقدة أو السيل الجارف أو الخنجر المرفف أو السم الزعاف. وإننا
لنرتعد فرقا من ضربات لن تقع علينا. ونبكى حسرة على شئء لن يضيع منا أبداً.

(١) إشارة إلى ممارسة السحر.

(٢) أى أن الحسن عدو الأحسن: فالمرء قد يستحسن شيئا كالمال مثلا. فينصرف إليه فيلهيه ذلك عن التفكير
فيما هو أحسن.

أنا لا أشبه الآلهة! أعلم هذا الآن علم اليقين. إنما أشبه الدودة الحقيرة التي تزحف وسط التراب وتفتذى من التراب، حتى إذا داستها قدم عابر السبيل أوردتها حتفها وقبرتها في الثرى. ففي التراب محياها، وفي التراب مئواها.

ولعمري أليس ترابا ما على هذه الرفاف العديدة من الأسفار التي ضاقت بها الغرفة وضاق بها صدرى. وليست سوى سقط متاع ومجموع سخافات لا طائل تحتها. عالم تمرح فيه العثا وتضجر منه النفوس.

أهنا أبحث عن طلبى وأنشد ما يعوزنى؟ وماذا يجدينى أن أقرأ فى آلاف الكتب أن بنى الإنسان ما برحوا فى شقاء دائم فى كل زمان ومكان. وأنه وجد فى العالم من أن لأن رجل سعيد؟

وأنت أيتها الجمجمة! ما لك فاعرة فاك كأنما تضحكين منى؟ وهل تضحكين إلا لأن مخك مثل مخى قد دفعته الحيرة إلى البحث وراء النور. فألقى نفسه فى ظلام حالك، وجد فى طلب الحقيقة ثم باء بالخسران والضلال. وأنت أيتها الآلات العديدة: إنك تسخرين منى ولا ريب! ما أكثر ما فيك من عجالات ودوائر وشكول متنوعة غريبة. وكان أجدر بك، وقد وقفت لدى الباب الموصد، أن تكونى مفتاحا أستعين به على تبين ما وراء تلك الأبواب. لكنك عاجزة حتى عن فتح قفل واحد، برغم ما بك من دقة فى الصنع والتركيب. فيا للحسرة! إن الطبيعة ما برحت غامضة مظلمة حتى فى رابعة النهار! على وجهها نقاب كثيف لا تسمح للأيدى أن تلمسه. وهى إذا أبت أن تجود بشيء من دفائن سرها، فهيها أن تسلبها إياه قسرا أو تأخذه عنوة.

وأنت أيتها الأمتعة التى لم تكن بى يوما حاجة إليها. ما أنت هنا إلا لأن أبى كان يستخدمك، وينتفع بك. وكان أخلق بى أن أبدد هذا التراث القليل تبديدا، بدلا من تركه هنا ليكون جرحاً فى صدرى، وقذى فى عيني. وما خير إرث خلفه الآباء والوارث فى غنى عنه!

* * *

أرى بصرى لا يتحول عن تلك الناحية! فهل لهذه الزجاجة الصغيرة قوة تجذب بها
العيون؟ ولماذا أضاء فكرى واستنار فجأة كأنما طلع على البدر وأنا وسط غابة مظلمة
فى ليلة حالكة؟

أحييك أيتها القارورة المنقطعة النظير! وأتناولك بكل حزمة وإجلال. وأمجد فيك
ذكاء الإنسان وعلمه. لقد ثوى فى باطنك عصير الرقاد. رقاد الفرح والصفاء. أنت خلاصة
العناصر المرقدة، قد تجمعت فيك قوى الموت الزؤام. لقد أن لك أن تسدى إلى مولان^(١)
بدأ وتولييه جميلا.

أنظر إليك فتخف ألامى. وأمسك بيدي فيقل عنائي ونصبى. إن تيار الحياة المتدفق
قد أخذ مأوه بغيض. وكأنما يلقي بى فى بحر علوى. وكأنى أبصر صفحته اللجينية
تلمع تحت قدمى! لقد طلع فجر يوم جديد، يجذبنى إلى ساحل عالم جديد.

لكأنى أرى مركبة تطلق بأجنحتها فى الفضاء ميممة نحوى. وأحس الآن كأنما
أسلك سبيلا جديدة إلى حيث أخترق الأثير، إلى عوالم وأجرام ملؤها الجد والنشاط،
إلى تلك الحياة العلوية والسعادة القدسية. فيا ويحك! هل يتسنى لك وما زلت دودة حقيرة
أن تبلغ ذلك الشأو البعيد؟

أجل... لم يبق إلا أن تولى شمس هذا العالم ظهرك بعزم ثابت! لتكن لديك الجرأة
على تحطيم تلك الأبواب التى يفرق من منظرها الجبناء. ويجزعون من اقتحامها. لقد
أن لك أن تثبت بالفعل - لا بالقول - أن كرامة الإنسان لن تجبن عن التطلع إلى مقام
الآلهة. وأنت لن ترتعد فرقا أمام ذلك الغار المظلم الذى يتصوره الوهم ممثلا بالويل
والعذاب. لتقتحم الطريق الذى يوصلك إليه ولو اعترضتك نيران الجحيم المتسعة.
إنها خطوة هائلة وأخلق بك أن تخطوها بقلب طروب، وعزم لا يثنى. أجل ولو لم يكن
من ورائها سوى العدم والفناء.

(١) أى فاوست نفسه الذى صنع ذلك السم بيديه ويفكر الآن فى الانتحار كوسيلة لنيل مأربه المبهمة.

فتعال الآن أيها القدح البلورى اللامع! لقد طال ثواؤك فى صندوقك العتيق. مرت السنون دون أن تخطر لى ببال. وكنت من قبل كثيرا ما تزين موائد الأجداد. تتناولك أنامل الشاربين فتحمل السرور والبشر إلى القلوب الحزينة والوجوه العابسة. إنى أسرح الطرف فيما عليك من النقوش والصور، فأذكر الشرب حين كانوا يحاولون وصفها بالأوزان والقوافى. ثم يحتسون ما بك من الشراب جرعة واحدة. إن هذا يثير ذكرى شبابى وليالى صباى. أما الليلة فأنى لن أناولك أيها القدح إلى سوى. ولن أحاول وصف ما عليك من الصور الجميلة. وسأملأك بهذا العصير الأقمم اللون، الذى سرعان ما يسكر منه المرء. شراب أعدته بيدي، واخترته وانتقيته، فلا أعدل به الليلة بديلا. وهأنذا أتناول منه جرعتى الأخيرة بقلب هادئ ونفس مطمئنة.

ولتكن هذه الشربة تحية للصباح الذى أوشكت شمسهُ أن تشرق.

(يرفع الكأس إلى ثغره ثم يتوقف إذ يسمع دق النواقيس وأناشيد العيد)

غناء الملائكة

قام المسيح من الثرى
ورقى إلى أوج السماء
طوبى لهم فليهنأوا
وليطمئن بنو الفناء
من كاد أن يودى بهم
ما ورثوه من الشقاء
ومن الخطايا المهلكات
ودائها الداء العياء

فاوست

أى شىء هذا الصوت الشجى وتلك النغمات الرنانة التى انتزعت الكأس من فمى
بقوة لا تقهر؟ أترن هذه النواقيس إيدانا بحلول عيد الفصح؟ وهل قامت تلك الجماعات
لتغنى هذه الأناشيد التى تحمل إلى القلب السلوان والسرور. والتى تغنت بها الملائكة
من قبل لدى قبر جليل^(١) فى جنح ليل بهيم. فكانت إيدانا بعهد جديد.

نشيد النساء

نحن كفناه فى هذا الحرير
وغسلناه بمسك وعبير
وأغناه على هذا السرير !
ثم بتنا لا نراه بيننا ! أنت يا رب قوى وقدير !

نشيد الملائكة

بعث المسيح من الثرى
فلينعم القلب الحزين !
طوبى لمن عانى البلاء
وقرحت منه الجفون
حتى انجلت عنه الكروب،
وأى خطب لا يهون.

(١) يقصد بالقبر قبر المسيح عليه السلام، وعيد الفصح كما هو معلوم عيد للنصارى يحتفلون فيه بذكرى قيام السيد المسيح من قبره - بعد استشهاده - ثم صعوده إلى السماء. وفى بعض الكنائس كانت تنشيد الأناشيد على لسان الملائكة والنساء والحواريين. ويحب أن نتصور أن فاوست كان يسمع ترتيل هذه الأغاني فى كنيسة غير بعيدة.

فاوست

ماذا تبغين أيتها النغمات السماوية، التي جمعت بين الرقة والبأس، ماذا تبغين منى أنا حليف التراب؟ أولى لك أن يسمعك أناس لهم قلوب ترق وأفئدة تلين. أما أنا فقد طالما سمعت الرسالة ووعتها أذنائى، ولكن يعوزنى التصديق. إن تلك المعجزات الرائعة هى وليدة الإيمان الراسخ^(١). وهى أعز بناته عليه.

أرانى الآن قد هدا ثائرى ولم أعد قادرا على التطلع إلى تلك الأقطار العلوية التى يرن فيها صدى تلك الأنباء السارة. إن هذه الأناشيد التى ألفتها منذ الصبى قد ردتنى إلى الحياة ودفعت بى إلى هذا العالم.

إنى لأذكر أيامى الخالية حين كنت أجلس ليالى الأحاد فى هدوء وخشوع كأنما كانت تنصب على من السماء قبالات الحب العلوى. وكنت أجد فى دقائق النواقيس نغمات ذات معنى دقيق، وفى تلاوة الصلوات لذة تفوق كل لذة.

وكثيرا ما كان يجيش بالنفس شوق لا أعرف له كنها يدفع بى إلى المروج والغابات، وهناك كنت أصعد الزفرات وأسكب العبرات. حاسبا نفسى فى عالم جليلى ليس لغيرى به عهد. والآن أصغى إلى هذه الأناشيد العذبة فتثور فى نفسى ذكرى الشباب وكيف كنا نقضى عيد الربيع^(٢) فى لعب ومرح وصفاء لا يشوبه تكدير.

وهذه الذكرى تبعث فى قلبى حنيننا إلى عهد الطفولة والصبى. فيحول هذا بينى وبين تلك الخطوة الجدية التى كدت أخطوها.

فأطربى روحى أيتها الأصوات الشجية، واملئى مسامعى بنغماتك العذبة! لقد أخذ الدمع ينهمل. وأرانى قد رجعت إلى هذا العالم.

(١) يقول فاوست : إن المعجزة بنت الإيمان، أى أنه متى كان الإيمان راسخا فى قلب سهل عليه تصور المعجزات والتسليم بها. والمعجزة التى يشير إليها هى بالطبع قيام المسيح من قبره. والأصل أن يقال إن الإيمان ابن المعجزة، أى أن المرء يؤمن بعد أن يراها، ولكن فاوست عكس المعنى.

(٢) أى عيد الفصح. لأنه يكون دائما فى أول الربيع.

نشيد الخواريين

قد سما المولى إلى أوج السماء !
وارتقى نحو العلا أى ارتقاء !
وبقيننا نحن فى دار الفناء !
من أنصارك نبكى فرحاً لعلاه نلتها أى علاء

الملائكة

صعد المسيح إلى العلا
من بعد ما سكن الثرى
طوبى لكم قد آن لد
أغلال أن تنكسرا !
سيروا وجدوا رافعين
لواه فى أعلى الذرا !
ولتنشروا علم الأخوة
واغلبة فى الورى !
يكن الرئيس لكم ظهيرا
منجدا ومؤزرا

(٢)

أمام باب المدينة^(١)

الناس من سائر الطبقات يغدون ويروحون

جماعة من العمال

وما يدعونا للذهاب إلى هناك؟

جماعة أخرى

لنذهب كلنا إلى حانة «الصيد» !

الجماعة الأولى

أما نحن فميممون حانة «الطلاحون»

عامل

وما رأيكم إن ذهبنا إلى حانة «النهر»

عامل ثان

أرى أن الطريق إليها لا يلائمنا.

عامل ثالث

(١) بعض الأوصاف المذكورة هنا منطبقة تماما على مدينة (فرانكفورت) حيث ولد غوته ونشأ.

وأنت ما تصنع الآن !

عامل رابع

سأخذو حذو الجميع.

عامل خامس

إذن أنصح لكم أن تذهبوا بنا إلى تلکم القرية. فهناك نجد أطيپ الصهباء
ونغازل أجمل الفتیات. ومن أراد المشاکلة والمنازلة. فهناك الضراب والقتال من
أحسن طراز.

عامل آخر

يا لك من غر أحمق لا يبرح مولعا بالقتال والعراك. أما أنا فلا قرب الله بيني وبين
ذلك المكان.

خادمة

كلا ! لابد لى أن أرجع إلى المدينة.

خادمة ثانية

يا بلهاء ! إنا من غير شك سنجدہ هناك تحت أشجار الحور.

الأولى

وماذا أستفيد من تلاقیکما؟ إنه سياتخذ بذراعك ويسير إلى جنبك ويرقص وإياك.
فأی فائدة تعود على من سرورك بصديقك.

الثانية

أنا واثقة أنه اليوم لا یأتى وحده. وسيكون معه بلا ريب زميله ذو الشعر المجعد.

تلميذ (لصاحبه)

انظر ويحك إلى هاتين الفتاتين! كيف تجدان فى السير! أسرع ولنلحق بهما.
ولا تذهب هذه الفرصة من يدنا! أحب شىء فى العالم إلى الجعة المرة، والتبغ الحامى،
والغادة الحسناء عليها الحلى والحلل.

فتاة من بنات المدينة (لصاحبته)

انظرى! أين يذهب هذان الفتيان المليحان ! أليس من العار أن يتركا كرائم
الفتيات، ويجريا خلف هاتين الخادمتين.

تلميذ ثان (للأول)

ويلك لا تسرع! وانظر وراءك تر هاتين الحوريتين، عليهما أجمل ثياب وزينة. إن
إحدهما جارة لنا، وقلبى فى هواها مدله متيم. فهل بنا إليهما! إنهما تسيران الهوينى
فى حشمة وكمال ودلال. لكنهما رغم هذا ستسمحان لنا أن نصاحبهما.

التلميذ الأول

لا يا أخى! أنا لا أحب من يتجنى على ويتدلل. فاترك هاتين، وأسرع بنا قبل أن
يفلت الصيد من يدنا. ولا تحتقر الخادمتان، فإن اليد التى تمسك المكنسة فى يوم
السبت هى أكثر صلاحا للتقبيل فى يوم الأحد.

رجل من أعيان المدينة

لا! لست راضيا عن العمدة الجديد، الذى ما ازداد فى منصبه الحديث إلا عتوا
وتكبيرا. وماذا جنت المدينة على يديه، وهذه حالها تسوء يوما بعد يوم؟ ناهيكم بكثرة
الضرائب والاستبداد بالناس.

سائل (مغنيا)

حييتم من سادة أكابر
وسيدات ذات حسن باهر!

عليكم أبهى الحللى والحلل
وفى محياكم أرى نور الأمل !
هلا نظرتم لى بعين الشفقة
فهزكم فقرى لبذل صدقه
لا تتركونى عبثا أغنى !
يا حبذا الغنى حين يغنى !
من يبذل المال يعيش سعيدا
ممتعا مسودا مجيدا
وفاكم العيد السعيد ! فانعموا،
وانعموا كى يستفيد المعدم

رجل ثان من الأعيان

أحب شىء إلى فى أيام الأحاد والأعياد أن أتحدث عن الحرب الدائرة فى بلاد
الترك، بعيدا عن ديارنا وأوطاننا. هناك تزهق النفوس وتتطاير الرؤوس، وهنا أجلس
مطلا من نافذة الحانة، فأحتسى قدحا من الصهباء، وأرى الزوارق تغدو فى النهر
وتروح. ثم أعود إلى دارى فى المساء، فأرى السلم ضاربا أطنابه والسكون يشمل كل
شىء. فأحمد الله على أن متعنا بالسلام ، ووقانا غائلة الحروب.

ثالث من أهل المدينة

صدقت أيها الجار، وهذا هو رأى الذى أراه. دع العالم يناطح ويكافح، ويتضارب
ويتحارب، وينقلب رأسا على عقب، ما دامت أحوالنا المنزلية تجرى فى مجراها القديم.

عجوز ساحرة

ياما أُحيلى هاتين الغزالتين، وعليها أحسن الحلى والحلل! أى قلب لا يتقيد فى سلاسل هذا الحسن. رويدا كل هذا الكبر والخيلاء. فأننا أعلم ما تريدان وما تتشدان، وسوف أبلغكما قصدكما وأهديكما السبيل.

الفتاة الأولى (لصاحبته)

يا أغاثا! تعالى أسرعى بنا فإنى أخشى أن يرانا الناس ومعنا هذه العجوز، وإن كانت بسحرها العجيب قد أرتنى وجه محبوبى فى ليلة القديس أندريا^(١) فكان كأنه مائل أمامى.

الفتاة الثانية

أما أنا فأرنتيه فى قطعة من البلور، جندياً مليحاً وسط جمع من رفقائه، وقد بحثت عنه فى كل مكان فلم أهتد إليه.

جنود (يغنون)

أسد الثرى لا نفزع! منا الحمام يروع
فلنا الرماح الشرع ولنا الأسلحة تلمع

* * *

كم قد هزمنا عسكرا فارتد منحل العرى
من كل ما فوق الثرى يدنولنا المتـمنع،

* * *

(١) هى ليلة ٢٩ نوفمبر. ومن مزاعم العامة فى بعض ممالك أوروبا أنه يتاح فى تلك الليلة لكل فتاة أن ترى وجه الرجل الذى سيكون حبيبها.

أى المعـاقـل لم تدن أى الشـدائد لم تلن
ولنا عـزائم لم تهن منها الجبال تصدع

* * *

ولنحـن فى يوم الغـزل هدف لـطعنات المـقل
وعـزينا للـحب ذل لسـواه لسنا نخـضع

* * *

(يدخل فاوست وواغنر)

فاوست

أقبل الربيع ببهائه وصفائه، وانجاب الجليد عن الجداول والأنهار، وأعشب الوادى،
وأخصب المرعى. والشتاء قد أدركه الضعف والهرم فتراجع إلى قمم الجبال حيث
يرسل لنا من أن لأن شؤبوا من البرد فينثره فوق الحقول.

لكن سرعان ما تزول آثاره، لأن الشمس لا تترك جليدا إلا أذابته.

وقد سرت الحياة إلى كل جسم. فحيث سرت لا ترى إلا نباتا ينمو، وشجرا
يخضر، وغصنا يورق. وإذا كانت الزهور لم تظهر بعد للعين، فقد استعاضت عنها
الطبيعة بهذه الجماهير من الناس عليهم أحاسن الثياب وغرائب الألوان.

قف فوق هذا المكان المرتفع ! وانظر وراءك إلى المدينة، تر الناس خارجين من
بابها المظلم الضخم زمرا شتى وأفواجا إثر أفواج. وكلهم مفعم قلبه بالسرور، يحتفلون
باليوم الذى بعث فيه المسيح من مثواه. وهم لعمري كذلك ينشرون اليوم من قبورهم،
من غرفهم الرطبة ومنازلهم الضئيلة. ومن القيود والأغلال التى تقيدهم بها أعمالهم
وحرفهم. ومن تلك الأزقة الضيقة ذات الجدران العالية والسقوف المرفوعة التى تنقبض

لمراها الصدور. ومن بين تلك الكنائس القاتمة الحالكة. من وسط هذا كله قد خرجوا اليوم لينعموا بالنور والضياء والشمس والهواء. فلا يكادون يخرجون من الباب حتى يتدفقوا إلى الحقول وينتشروا في البساتين.

انظر كيف تشق الزوارق عباب النهر طولا وعرضا! وهذا الزورق الأخير يكاد أن يغرق لكثرة من فيه. وإن تلك الجبال القاصية قد لبست كذلك حلا ذات رونق وبهجة.

والآن أسمع صيحات الطرب التي يرددوها أهل تلك القرية برغم بعدها عنا. فالיום يوم نعيم مقيم لأبناء الشعب جميعا. فكبيرهم وصغيرهم فى طرب دائم وصفو لا يخالطه كدر. هنا أحسب نفسى من بنى الإنسان. وهنا يجمل بى أكون من بنى الإنسان.

واغنى

إن كل خطوة أخطوها وإياك أيها الأستاذ وكل لحظة أقضيها فى صحبتك شرف وفوز ومغنم. على أنى ما كنت لأخرج وحدى فى مثل هذا اليوم. لأنى أنفى من كل ما يفعله أولئك الغوغاء. وأكره غناءهم وصياحهم، ولهوهم ولعبهم. وما أراهم فى رقصهم الكريه إلا كمن يتخطبه الشيطان من المس. وهم يسمون كل هذا سرورا وطربا.

* * *

(فلاحون تحت شجرة يرقصون وينشدون)

أسرع الراعى إلى المرقص فى أحسن حلة،

وهناك الجمع يلهو، تحت دوح قد أظله

بين رقص وغناء، وصياح وطرب.

ترلالا، ترليلا!

ترلالا، ترلا!

يصدح القيثارة والنأى، وقد زاد اللجب

* * *

أقبل الراعى إليهم ، فرأى إحدى الغوانى .
دفع الغادة بالمرفق من غير توانى .
فانثنت نحو فتانا ، فى دلال وغضب .
ترلالا ، ترليلا !

ترلالا ، ترلا !
« يا فتى ويك ! أما فيك حياء أو أدب ؟ »

* * *

ثم مالت نحوه ميلاً ، وقد زال الجفاء .
وسط جمع كلهم حلف سرور وصفاء .
ملكتهم نشوة اللهو ، وقد زال الوقار .
ترلالا ، ترليلا !

ترلالا ، ترلا !
قد حلا اللهو ، ولذ الرقص ، وانحل العذار .
* * *

وفتانا سار بالغادة فى ركن أمين .
وأحاط الخصر بالساعد ، فى رفق ولين .
لم يزل حتى أجابت ، ما تمنى وأثابت .
ترلالا ، ترليلا !

ترلالا ، ترلا !
ما أحيلى ساعة الحب إذا طالت وطابت !

فلاح مسن (مخاطبا فاوست)

والله إنه لكرم منك أيها الأستاذ، أن تتنازل فتخرج في مثل هذا اليوم وتسير وسط هذا المزحم من الناس، يحف بك الجلال، ويتلأأ على ناصيتك تاج العلم. فهل تتناول مرة أخرى، فتقبل منا هذه الكأس التي ملأناها بأحسن الصهباء. ولتكن هذه الراح راوية للظمأ باعثة للفرح، تطيل في عمرك من السنين بقدر ما فيها من القطرات.

فاوست

أخذ الكأس مسرورا وأشربها شاكرا. (يلتف حوله الناس)

الفلاح المسن

لعمري إنه لجميل أن نراك وسطنا في هذا اليوم السعيد. ولقد والله كنت معنا كذلك في أيام المحنة. وكم من رجل في هذا المجتمع قد انتشله والدك من مخالب الجنون. ودفع عنه عادية الوباء. حين نزل الطاعون بالأرض وأخذ يفتك بنا الفتك الذريع. وأنت إذ ذاك فتى يافع. فكنت تعود المرضى وتأسو داءهم وتخفف بلاهم. ولقد قضى الكثير نحبه في تلك الأيام العصيبة. لكنك خرجت والحمد لله من وسط المهالك لم يمسسك سوء. لأن الله معين ومنقذ لمن ينصر الضعفاء العاجزين.

الجميع

متك الله بالصحة أيها السيد. وأبقاك للضعفاء نصيراً ومعيناً.

فاوست

أحنوا رؤوسكم خضوعاً وخشية بين يدي المولى القدير الذي يلهمنا كيف نتعاون والذي نستمد منه المعونة (يتمشى هو وواغنر)

واغنر

ليت شعري أي سرور تحسه أيها الرجل الخطير حين ترى إجلال الناس لك وتكرمهم إياك. وسعيد لعمري من أناله علمه ومواهبه تلك المنزلة السامية. ألم تر كيف كانوا يشيرون

إليك بالبنان. وقد أهدقوا بك إحدائق السوار. وكيف رغب اللاعب عن اللعب، والراقص عن الرقص. وانقطع الغناء وهدأت الضوضاء ووقف الناس صفا صفا مطأطئي رءوسهم، يكادون أن يَخروا أمامك راكعين، كأنما أبصروا الخبز المقدس^(١).

فاوست

سر بنا نحو هذا الحجر، حتى نأخذ قسطنا من الراحة.

كثيرا ما كنت أجلس في هذا المكان، بعيدا عن العالم، أمعن في التأمل والتفكير، وأرهق النفس بالدعاء والصلاة والصيام. ولى إذ ذاك أمل وطيد وإيمان راسخ أنى بهذا الابتهاال والتضرع، والبكاء والخشوع، أستطيع أن أستعطف إله السموات وأحملة على أن يرفع عن الناس ذلك الوباء. والآن أسمع هتاف هذه الجماهير فيرن في مسمعى كأوجع اللوم والتأنيب. وليتك تستطيع أن تقرأ ما فى أعماق نفسى. إذن لرأيت أن الوالد والولد لا يستحقان من هذا الثناء شيئا.

كان أبى رجلا شريف النفس، كثير الإطراق، لا ينفك دائبا فى التفكير فى الطبيعة وفى حظائرها القدسية. بجد لا يعرف الونى وإخلاص لا تشويه شائبة. فكان ينزوى فى معمله الأسود المظلم. ومعه زمرة من خيرة تابعيه وطلبته. فيصبون العقاقير المتنافرة بعضها فوق بعض، بمقتضى تعاليم وقوانين يخطئها العد. يتناولون الأسد الأحمر^(٢) - ذلك العاشق الملتهب - فيزوجونه عصير الزنبقة البيضاء^(٢) الفاترة الطبع. ولا يزالون ينقلونهما معا من دار عرس إلى دار عرس ومن لهيب مستعر إلى لهيب أشد منه، حتى إذا رأوا فى الأنبوبة بعد كل هذا النصب والعناء ما يسمونه بالملكة الصغيرة^(٢)

(١) الخبر المقدس الذى يمثل جسد السيد المسيح فى عرف النصارى يحمل فى المواكب الدينية الكبرى فى البلاد الكاثوليكية، فإذا رآه المتدينون ركعوا.

(٢) الأسد الأحمر فى لغة الكيمياء القديمة هو مادة الذهب. والزنبقة البيضاء مادة الفضة. وتزويجهما أى مزجهما فى الأنبوبة التى تكون بمثابة دار العرس. فإذا نجحت العملية وحدث التفاعل المطلوب نشأ من اتحاد المادتين ما يسمونه بالملكة الصغيرة، التى كانت تعد شفاء من كل داء ووسيلة لتحويل المعادن الحقيمة إلى معدن الذهب.

ذات الألوان البديعة كان ذاك هو البلسم الشافى والعلاج الناجع. فإذا الناس تزهق
أرواحهم. ولا يسأل سائل إن كان الدواء يشفى أم يقتل!

فكنا بأدويتنا الجهنمية أشد فتكا بسكان هذه البلاد من الوباء والطاعون. ولكم
ناولت بيميني الدواء للعليلين فكنت أرى أجسامهم تنحل وتذبل حتى توارى فى جوف
الثرى. والآن قدر لى أن أعيش. حتى أسمع الناس يصبون على القتلة الفجار أطيب
المدح والثناء

واغنىر

إنى لأعجب كيف يحزنك هذا الأمر! أما كفى الرجل الشهم أن يمارس علم الأوائل
بإخلاص قلب، محافظا على قوانين العلم حريصا عليها؟

ولئن كان مثلك فى أيام صباه يجل والده أى إجلال، فيتلقى منه سور العلم
والحكمة، حتى إذا كبرت رفعت لواء العلم وأعليت صرحه، فلا جرم إذا جاء ابنك من
بعدك فبلغ فيه الغاية التى ليس وراءها غاية.

فاوست

سعيد لعمرى من يكون ذا أمل فى النجاة، وهو غارق فى بحر من الضلال، يغشاه
موج من فوقه موج. إن المرء ليجهل تلك الأمور التى هو فى أشد الحاجة إليها. أما
الذى يعلمه حق العلم فهو مالا حاجة به إليه. على أنى لا أريد أن أكرر صفاء هذه
الساعة الجميلة بالتفكير فى مثل هذه الأمور الأليمة.

انظر إلى الشمس الآن ساعة الشفق وقد كست أشعتها المروج والدور! إنها تؤذن
بالرواح. وقد تصرم عمر النهار. وهى تجرى إلى الغرب مجدة فى السير كي تضىء
عالما آخر. وتشرق على ربوع غير هذه الربوع. فمن لى بجناحى طائر ذى بأس وقوة!
فأرقى فى الجو وأسرع العدو وراء الغزالة. ثم أنظر تحت قدمى فأرى العالم ساكتا
صامتا. ينيره الشفق الأبدى. وأرى أعالي الجبال تلمع وتتوهج والأودية هادئة مطمئنة.
وأشاهد الجداول تسيل كأنها اللجين مسكوبا فوقه النضار. هنالك تعجز الأطواد

الشامخة عن أن تعوق مسراى الذى يشبه مسرى الآلهة. ولقد يبدو لعينى البحر الزخار المترامى الأطراف وقد لمعت فوقه أشعة الشمس الغاربة ثم أبصر ربة السماء وقد أوشكت أن تغيب عن عينى، فأنتهب وراءها الخطى وأجد خلفها المسير لأروى ظمأ نفسى من نورها الأبدى. وما أجل ذلك الموقف وما أبهاه : النهار قدامى، والليل خلفى، ومن تحتى الماء، ومن فوقى السماء.

حلم ما أعذبه وما أبهاه، وما أبعده منى وما أقصاه! فواحزنى أن ليس للجسم كما للروح أجنحة يخلق بها فى جو السماء. على أن فى طبع المرء طموحا دائما يدفعه إلى العلياء وإلى الأمام. وكيف لا وهذه العنادل من فوقنا ترتل أناشيدها الشجية، وهذى النسور تسبح فوق أطواد يكسوها دوح الصنوبر. وتلك الكراكى ما برحت تحلق فوق السهول وتخترق البحار باحثة عن وكرها وموطنها.

واغنر

لقد تعبت بفكرى الأحلام حيناً بعد حين. لكن مثل هذا الحلم لم يخطر لى الدهر ببال. فإنى سرعان ما يعترينى الملل حين أدمن النظر إلى الغياض والمروج. وما أرانى حسدت طير السماء يوما. أو تمنيت أن يكون لى أجنحتها وطيرانها. وشتان بين مثل هذا السرور وبين النشوة التى يحسها المرء حين يطالع مختلف الأسفار مقلبا الصفحة أثر الصفحة. مثل هذا يجعل ليالى الشتاء حلوة جميلة. ويبعث الروح والحياة فى كل جارحة من الجوارح. وناهيك إذا حللت فى العلم معضلة أو اهتمتدت إلى سر جديد. فهناك تنزل إليك السموات السبع وتصبح كلها بين يديك.

فاوست

انصرفت نفسك إلى لذة واحدة فليهنك أنك لا تعرف الأخرى! أما أنا فيسكن جسدى روحان، مشاربهما متباينة. وتحاول كل واحدة أن تبين عن الأخرى: الأولى دنيوية دنيئة، تلتصق بأديم هذا الثرى وتتعلق بأهداب هذا العالم. والأخرى طماحة طامعة، تندفع محلقة فى السماء صاعدة إلى مسرى النجوم.

فيا ليت الأرواح السابحة فى الهواء بين الأرض والسماء تهبط إلى فتننشلنى من
وهدتى؛ وترقى بى إلى أقطار جديدة ذات ألوان بديعة. ويا ليت لى الآن «بساط سليمان»
فأطير به فى السماء وأسمو به إلى الكواكب. إذن لحرصت عليه أى حرص ولا عدلت به
ملء الأرض ذهباً.

واغنىر

أستحلفك! لا تستصرخ تلك الأرواح الشيطانية التى تملأ الجو وتسد الفضاء.
أليست هى التى تبعث لنا من الشمال البرد القارس كاشرا لنا عن أنيابه الحادة وألسنته
المندامة؟ ومن الشرق ترسل لنا رياحا جافة تمتص دماءنا وتضيق أنفاسنا؟ ومن الجنوب
تسوق نحونا ريح الصحراء التى تشيب منا النواصى وتقرب منا الآجال. ومن الغرب
تبعث لنا السيول الجارفة لكى تهلك لنا الحرث والنسل.

تلك الأرواح الخبيثة لا تنصت لقولنا إلا لتغرنا وتخدعنا. إن أطاعتنا فلكى تعد لنا
النكبات وتكيد لنا فى الخفاء. وربما بدت لنا فى شكل ملائكة السماء، باسمه ضاحكة؛
وقلبها ملؤه الحقد والضعفينة.

على أن وقت الرواح قد حان. وخيم الظلام ويرد لهواء، وأخذ الضباب ينتشر.
وإنما يعرف المرء قيمة منزله ومأواه حين يدركه الظلام ويؤله البرد. ولكنى أراك قد أخذت
منك الدهشة، واستولى عليك القلق، فأى شئ عراك؟ وما الذى أبصرت فى الشفق
فسبب لك هذه الحيرة؟

فاوست

أترى ذلك الكلب الأسود الذى يثب ما بين الأشجار؟

واغنىر

أجل أراه، وقد رأيته من قبل فلم ألاحظ ما يدعو للاهتمام بأمره.

فاوست

تأمله جيدا، أما تبصر فيه أمرا عجبا؟

واغنر

ما أرى إلا كلبا يقف أثر صاحبه شأن الكلاب.

فاوست

انظر كيف يدور حولنا كالحلزون مقتريا في كل دورة؛ وفي كل لحظة يدنو منا قليلا قليلا، وإن لم يخطئ ظني فإنني أبصر على أثر هذا الكلب شعلات من النار تلهب.

واغنر

أنا لا أشاهد إلا كلبا أسود ولعلك خدعتك عيناك.

فاوست

يخيل لي أنه ينصب لنا الحبال لكي يقتنصنا عاجلا.

واغنر

وأنا أراه يثب من حولنا خائفا مترددا كأنما أزعجه أن يرى غريبين وهو يبحث عن صاحبه.

فاوست

لقد ضاقت الحلقة، وهامو قد دنا منا.

واغنر

أرأيت أنه كلب وليس بعفريت؟ ها هو يبصّب بذنبه ويقعى على رجليه وهذه كلها عادة الكلاب.

فاوست

تعال اقترب منا .

واغنر

انظر إليه تجده حيوانا أعجم كسائر الكلاب، إن سكت ولم تخاطبه وقف ساكتا ينظر إليك، وإن خاطبته نهض قائما على رجليه. وإن ألقيت له شيئا عدا فأتاك به، وإن رميت عصاك فى الماء سبح وراعاها .

فاوست

صدق ظنك، إنى لا أجد فيه ما يدل على أنه عفريت، إن هو إلا كلب مدرب.

واغنر

الكلب إن أحسن تدريبه وتهذيبه صار للمرء رفيقا صالحا، فهو أهل لكل ما تبذله نحوه من العطف والعناية، لأنه تلميذ ذكى.

(يذهبان والكلب نحو المدينة)

(٣)

حجرة الدراسة

(يدخل فاوست ومعه الكلب)

فاوست

غادرت الحقول والوديان، وقد أرحى عليها الليل سدوله، وكستها الظلماء
جلبابا حالكا.

إن الليل البهيم، بما له من جمال ساحر وبما فيه من أسرار غامضة، ليوقظ فينا
روحا أرقى وإحساسا أشرف. فتهدأ في القلب كل عاطفة ثائرة ويرقد كل شعور هائج
مضطرب. وتتحرك في القلب عاطفتان: حب المرء لبنى جنسه وحبه لخالقه.

الزم السكون أيها الكلب، ولا تكثر الجلبة والحركة، وماذا يجديني أن تقف على
العتبة تجمجم وتهممهم! تعال أرقد خلف هذا الوجاق. وسأحبوك خير وسادة لدى، فتنزل
ضييفا مكرما رغم أنك صامت لا تحير كلاما. وسأبذل لك الرعاية التي تستحقها، جزاء
لك على ما سليتتنا اليوم بوثبك وعدوك ونحن بظاهر المدينة.

* * *

أراني كلما عدت إلى غرفتي الضيقة وجلست مستنيرا بهذا المصباح امتلأ صدرى
نورا وقلبي راحة وسرورا، ورجع إلى العقل والتدبر، وعادت زهرة الأمل فأينعت،
وأخذت أدمن التفكير في عجائب الحياة وأسرار السكون.

ويحك لا تزعجنى بصوتك. وهل يتلاءم صوت الدواب وتلك الخواطر المقدسة
التي تجيش بها نفسى الآن؟ إنا ألفنا أن نرى الناس يعادون ما لا يفقهون، ويهزون
بكل طيب وجميل إذا قصرت أفهامهم عن إدراكه. فهل أنت أيها الكلب مثلهم؟
لكنى رغم كل مجهود أبذله ورغم ما فى نفسى من نية خالصة مخلصه. لا أرى
صدرى يفيض بما يروى الظمأ ويشفى الغليل.

فواعجبى كيف غاض الينبوع بهذه السرعة دون أن يبيل أوامى!
تلك كانت تجربتى فى الحياة المرة بعد المرة.

على أن هذا النقص قد يدفع بنا إلى التفكير فى سداذه، فنطرق باب الأمور
الساوية، ونطمح بأعيننا إلى الإلهامات العلوية. ثم نرى أن ليس فى العالم إلهام أو
وحى أسمى وأجل مما فى الإنجيل.

وإنى لأشعر بشوق يدفعنى لأن أتناوله فأترجمه بدقة وإخلاص. فأنقله من لغته
الأصلية إلى لغتنا الألمانية المحبوبة.

”يتناول الإنجيل ويفتحه“

أول مسطور فى هذا السفر هو ما يلى : «فى البدء كانت الكلمة» ، لأقف هنا فلا
خير فى الماضى قبل أن أستوعب هذه الجملة فهما! يستحيل أن تفى لفظة «الكلمة»
بالمعنى المقصود، فلا ترجمها بعبارة أحسن:

”فى البدء كان الفكر“

لأتدبر هذه الترجمة مرة ثانية خشية أن تزل بى القدم؛ هل الفكر هو الذى يخلق
كل شيء ويدبر كل شيء؟ الأولى أن تكون الترجمة:

”فى البدء كانت القوة“

لكنى قبل أن يجف المواد عن هذه الجملة يخيل لى أنها قاصرة عن المعنى. الآن
أرى الرأى الصواب، فقد جاء الروح لنجدتى:

«فى البدء كان الفعل»^(١)

(مخاطبا الكلب)

إن كنا سنتقاسم هذه الغرفة أيها الكلب فدع الهرير!

أجل، كف عن العواء، فأنى لا أطيق جوار رفيق مثلك

يكثر من إزعاجى، ولا بد لأحدنا أن يغادر هذه الغرفة،

وأمامك الباب مفتوح لتذهب أنى شئت،

وإن عز على أن أنتهك حرمة الضيافة،

لكن يا للعجب! أى مشهد هذا الذى أراه!

أفى الإمكان أن يحدث هذا! وهل حقيقة ما أبصره؟ أم خيال؟

إن الكلب قد نما جسمه وازداد فى الطول وفى العرض!

وأراه يعلو وينتفخ بقوة. وليس هذا بجثمان كلب.

فأى عفريت هذا الذى جئت به إلى دارى؟

لقد بات يحاكي فرس البحر ضخامة ودمامة، وصار يكشر عن أنيابه ويقلب عينين

يتطاير منهما الشرار.

الآن عرفتك جد المعرفة. وإن خير سلاح لمحاربتكم ياسلالة جهنم هو خاتم سليمان.

عفاريت (فى الخارج) تنشد:

(١) يحاول فاوست ترجمة إنجيل يوحنا. والترجمة العربية المتداولة أولها: فى البدء كان الكلمة. ويرى بعض المترجمين أن اللفظ اليونانى الأسمى Logos غير قابل للترجمة ولهذا فهم يذكرونه كما هو.

رئيسنا محبوس	معذب منكوس
مرتبط مقيد	في سجنه مصفد
لكنه سيخرج	وسوف يأتي الفرج
لأنه كالشعلب	يصر ألف مهرب
فليقترب بعيدنا	لعله يريدنا
قفوا بهذى الدائرة	ولنتظر أوامرهم!

فلاوسيت

أول ما يجب عمله تلقاء هذا الحيوان أن أتلو عزيمة العفاريت الأربعة^(١):

ليحترق ساكن النار: سمندر!

لينهزم عفريت الماء: أندينه!

ليخنف عفريت الهواء: سيلفا!

وليحل الفناء بعفريت التراب: كويولد!

أجل لعمرى! من جهل العناصر والقوى المخبوءة فيها، عجز عن مقاومة الجان، ولم يكن له عليهم من سلطان.

يا ساكن النار! التهب التهايا.

يا عفريت الماء! فلتنصب انصيايا.

يا عفريت الهواء! المع كالشهاب الساطع.

(١) أى التى تقابل العناصر الأربعة المعروفة: النار والماء والهواء والتراب.

ويا عفريت التراب! منك المعونة أبداً.

اقصر الآن.. وتقدم إلى الأمام!

لكن يا للعجب! ليس فى هذا الوحش أحد هؤلاء الأربعة.

وما زال مقعياً على رجليه فاغرا فى وجهى فاه! كئنى ما فعلت به شيئاً ولا أحدثت له ألماً. فلاقرأن عليك عزائم أشد وقعا وأسرع فعلا.

لعلك أيها الرجيم. قد هربت من الجحيم؟

فانظر إلى هذه الإشارة^(١)

التي يخز أمامها الشياطين: تلك الزمر السوداء: هيبة ووجلا.

ها قد انتفخ ووقف الشعر فى جسده

أيها اللعين! هل تبصر هذا وهل تفقه كنهه؟

هذا القديم الذى لم يخلق،

الذى لا يتفوه باسمه،

ملء السموات كلها،

الذى طعنوه وصلبوه^(٢).

أراه تراجع إلى وراء الموقد وانتفخ حتى بات يحاكى الفيل. وقد ملأ الفضاء كله، وكأنما يريد أن يستحيل سحابة أو بخارا فيتطاير ويتلاشى!

احذر ويحك أن تخرج من السقف، قع راکعاً عند قدمى مولاك.

(١) هنا يرسم فاوست إشارة الصليب.

(٢) هذا كله يراود به السيد المسيح.

أنا لا أهدد عبثاً. لقد أصابك شواظ من تلك النار المقدسة. وأسهل على أن أحرقك بها إحراقاً. فلا تدعني أبرز أسلحتي الهائلة!

(يخرج إبليس من بين الضباب في زى طالب علم متجول^(١) فيتلاشى الضباب).

إبليس

فيم هذه الضجة؟ هل فى قدرتى أن أخدمك أيها السيد؟

فاوست

أأنت يا طالب العلم كنت تسكن فى جوف ذلك الكلب؟

إن القصة لطربة مضحكة.

إبليس

أحييك أيها الأستاذ العلامة، وإن كنت قد أتعبتني بعزائمك حتى جعل العرق يتصبب من جسدى.

فاوست

خبرنى أولاً عن اسمك.

إبليس

هذا لعمرك سؤال تافه؛ خصوصاً من رجل يحتقر الألفاظ أى احتقار. ولا يأبه بالعرض؛ ويأبى إلا التعمق فى البحث وراء الجوهر^(٢).

(١) فى القرن الوسطى كان هناك فريق من الطلبة يتنقلون من جامعة إلى أخرى ويرتزقون أثناء تجوالهم هذا.

(٢) هنا يتهم إبليس ويسخر من فاوست لمحاولته ترجمة الجمل الأولى من إنجيل يوحنا بما لا يؤديه اللفظ كما رأينا.

فاوست

لكنكم أيها السادة كثيرا ما تنم أسماؤكم عن حقيقة أمركم، فيظهر لنا جليا من أنتم حين يدعى الواحد منكم باله الذباب؛ أو المخرب المدمر؛ أو الكذاب الأشتر: أسماء تدل بوضوح على المسميات.

وعلى كل حال فقل لي من أنت.

إبليس

أنا جزء من تلك القوة، التي نيتها أبدا نية السوء وصنعها أبدا صنع الخير.

فاوست

ماذا عساك تقصد بهذه الألفاظ: أفصح ولا تلغز.

إبليس

أنا ذلك الروح الذي دأبه الإنكار والذي يعشق العدم والفناء. ويحق له هذا؛ لأن كل ما ينشأ في العالم وينمو جدير به أن يفنى ويمحى. وكان أولى له لو لم يوجد ولم يشأ. وما تسمونه أنتم الغي والضلال والمعصية والباطل. هذا كله هو عنصرى الخاص الذي أنتمى إليه.

فاوست

وكيف تزعم أنك جزء وأنا أراك أمامى كلا؟

إبليس

ما قلت لك إلا الحقيقة؛ أملاها على تواضعى.

إن الإنسان - ذلك العالم الصغير: عالم السخف والغرور - كثيرا ما يزعم أنه الكا. فى الكل؛ أما أنا فليست غير جزء من ذلك الجزء الذى كان فى البدء هو كل شىء. أنا جزء من الظلماء التى تولد منها النور.

والنور هو ذلك الابن العاق الذي جاء يزاحم أمه فى العالم، وينازعها ملكها القديم.

ولكن هيهات أن يبلغ مأربه، مادام دأبه أن يتعلق بالأجسام فينيرها. ومادام وجوده مرتبطا بوجودها. ولا تراه العين إلا إذا انعكس على جسم من الأجسام. وسيجئ اليوم الذى تمحى فيه الأجسام وتتعدم الصور والأشكال؛ وهناك تدول دولة النور، وتسود دولة الظلام.

فاوست

الآن فهمت الأعمال المجيدة التى أنت قائم بها. وإذ عجزت عن محو الكائنات «بالجملة» تريد أن تجعل باكورة أعمالك محو الأجزاء الصغيرة.

إبليس

وأصدقك الحديث أن ليس فى هذا ما يطفى الغلة.

إن هذا العالم الضخم يقاوم الفناء بقدم ثابتة وعزم وطيد. وقد تقهقرت أمامه - بعد اللأى والعناء - منهزما لم أفر منه بطائل. ولقد سلطنا عليه العواصف والأمواج والزلازل والنيران، ومع هذا لم يزل البر والبحر فى أمن وسلام لم يمسسهما سوء.

أما تلك المخلوقات الحقيرة: سلالة الحيوان والإنسان، فقد نفدت فيها الحيل. ولكم أهلكت من نسلها وقبرت. فقام على أثرهم نسل جديد وسلالة تملأ السهل والجبل، حتى كدت أجن حزنا ويأسا. فى الهواء وفى الماء، فى البر وفى البحر، تتزايد الكائنات وتتكاثر، لا يعوقها حر ولا برد ولا رطوبة ولا جفاف. ولولا أنى حفظت لى النار مسكنا لما وجدت مكانا أوى إليه.

فاوست

أأنت تريد أن تحارب القوة الخالقة الأبدية؟ أأنت تريد أن تسلط على العالم أسلحتك الجهنمية لتمحو الوجود وتنشر العدم؟ الخيبة والفشل نصيبك، وأولى بك يا ابن الخراب أن تقلع عن هذا وتنشد أمرا سواه.

إبليس

حقيقة قد أن لنا أن نفكر فى شىء جديد. وسأباحثك فى هذا مرة أخرى. أما الآن فأذن لى فى الذهاب.

فاوست

عجيب منك أن تسألنى هذا السؤال وأنا ما رأيتك قبل الساعة. أليس لك الحق أن تذهب متى شئت وتعود متى أردت العودة؟ وأمامك الباب مفتوح والنافذة، وإن حلا لك الخروج من المدخنة فأنت المخير.

إبليس

أعترف لك أنى أريد الخروج لولا أنى يمنعنى ذاك الشكل الخماسى المرسوم^(١) على عتبك.

فاوست

ويلك يا ابن الأبالسة! هل أزعجك هذا الخمس؟ فكيف إذن تسنى لك الدخول وكيف انخدعت هذه الخديعة؟

إبليس

لو تأملت الخمس لرأيت جانبه القريب من الباب مفتوحا - إهمالا من الراسم - فمن تلك الناحية تيسر لى الدخول، والآن استحال على الخروج حتى يمحق هذا الرسم.

فاوست

غرائب الصدف - لعمرى - صيرتك سجيناً فى يدى.

(١) هو شكل مما يستعمل فى السحر والشعوذة كشكل نجم ذى خمسة أركان، وكان يرسم على الاعتبار لى يمنع الشياطين من دخول الحجرات.

إبليس

لم يستطع الكلب حين وثب إلى هذه الغرفة أن ينعم النظر فيما حوله. والآن بات الشيطان من جراء تلك الهفوة سجيناً لا يستطيع الخلاص.

فاوست

لكن لم لا تخرج من النافذة؟

إبليس

قانون الجن والشرطيين يقضى عليهم ألا يخرجوا إلا من حيث دخلوا؛ فنحن عند الدخول مخيرون وعند الخروج مسيرون مكرهون.

فاوست

إذن فللجحيم أيضاً نظم وقوانين. وهذا لعمرى حسن. ولقد يتيسر إذن أن يعقد المرء وإياكم أيها السادة الأبالسة اتفاقاً ومعاهدة.

إبليس

نحن قوم نفى بكل ما نعد لا ننقص ولا ننقص منه شيئاً؛ ولكن الأمر يطول شرحه، وسنتخاطب في هذا مرة أخرى. أما الآن فأسترحمك أن تفك أسرى.

فاوست

ابق لحظة لتقص على قصة صغيرة.

إبليس

دعنى الآن وسأعود إليك قريباً فتسألنى ما شئت.

فاوست

ما أرغمتك على المجيء إلى هذه الغرفة؛ بل أنت الذى وضعت رجلك فى الحباله وأولى بمن احتبس الشيطان أن يحرص عليه فإنه قل أن يقع فى الشرك مرة ثانية.

إبليس

إن كان يطلو لك بقائى فلأبقى فى صحبتك. على شرط أن أقضى الوقت فى إبداء
ما لدى من الفنون.

فاوست

أنت حر فى هذا، ويلذ لى أن أرى ما لديك من الفنون على شرط أن يكون فيه
تسلية وفكاهة.

إبليس

فى هذه الساعة القصيرة يا صديقى ستغنم حواسك من اللذة ما لم تبلغه طوال
هذه السنين. وإن ما ستطريك به الأرواح اللطيفة من الأناشيد الشجية وتبديه لعينيك
من الصور البديعة ليس بمجرد سحر تافه. وسترى أن لذته ليست قاصرة على ما
تسمعه الأذن وتبصره العين، بل إن الأنف سيجد فيها متعته والقم لذته وشهوته
واللمس نعيمه وسعادته.

وسترتجل الأرواح كل هذا ارتجالا من غير سابق استعداد.

ابتدئوا الآن

(الأرواح تنشد)^(١):

(١) لابد من كلمة نفسر بها هذا النشيد ومغزاه! يعلم إبليس عن فاوست - ما لا يعلم فاوست عن نفسه - أنه فى حاجة لأن يترك غرفته المظلمة ويخرج إلى العالم الفسيح فيرى السماء والماء والمروج والكروم والخمر والعشاق والغيد، وكل ما فى العالم من بواعث السرور. ولكى يثير فى نفسه رغبة شديدة ومبهمة لكل هذه الأشياء أخذ يسمعه هذا النشيد. وفيه يعرض لعينيهِ صورا متباعدة مفككة قليلة الارتباط بعضها ببعض، أشبه شئ، بما يراه النائم فى الحلم. وقد أخذت فاوست فعلا سنة من النوم أثناء إصغانه للأنشودة التى سماها غوته المرقد. Einschläferungslied. هذا ما يحسن أن يذكره القارئ لى يدرك السر فى أن الأبيات الآتية مبهمة المعنى والرابطة. والترجمة فى هذا ليست إلا صدق للأصل.

ولتُرفَعِ السُّقُوفُ	لتنجل الغياهب
فوجهها مخيفُ!	ولتنمح السحاب
ولتشرق الشمس	ولتظهر الزرقاء
تصبو له النفوس!	فملؤها بهاء
لا تبَقْ منك باقية!	أيا غيوم انقشعي
وسط الليالي الداجية	ويا كواكب المعى
أبدعْ بذاك منظرًا!	انظر لسكان السما
تشتاق أنفس الورى	فى كفهم جميع ما
مرُّوا على وجه الثرى	يا ما أحيَلاهم إذا
عبيرهم منتشرا.	غُصَّ الفضاء من شذا
منهمك في حبه؛	كم أبصروا من عاشق
ينعم وسط صحبه.	فى الروض والحدائق
أنظر إلى الأزهار	أنظر إلى الأنهار،
أبدعْ بذى الثمار!	أنظر إلى الأشجار
من أفرع الكروم؛	عناقيد تدلّت
تصبى نُهى الحليم	بسدائع تجلت
تسيل خمراً صافيه!	انظر إلى الأعناب
أنهار راح جارية.	تسيل فى الهضاب

حسباؤها من الدرر	وخالص الزبرجد
يميل فوقها الشجر	بكل غصن أملد.
أبدع بذاك نهرا	يسيل في المروج
ثم يصير بحرا	ذا منظر بهيج!
وسط جبال عالية	يكسورباها السندس
فيها العيون الجارية	من الصفا تنبجس
يا طير! هاك فاشربى	من راحها وغردى!
ولتمرحى ولتطربى	وسط جنان الخلد!
وفى السماء حلقى	نحو النجوم الزهر.
للغرب أو للمشرق:	للشمس أو للقمر.
حتى توافى جزرا	وسط البحار قائمة؛
يا حسن هذا منظرأ	يشفى النفوس الحائمة!
فيها الرياض الزاهرة	فيها المروج الناضرة
فيها العيون الساحرة	ذات الجفون الفاتره.
الخور فيها تمرح	ترقص أو تغرد
أو فى البحار تسبح	أو فى السماء تصمد

* * *

إبليس

ها قد أخذته سنة من النوم. فمرحى مرحى يا زهرة شباب الشياطين. لقد أجدتم
النشيد وأحسنتم الغناء حتى غشيه النعاس. وأنا مدين لكم من أجل هذه الأنشودة.
أنت أعجز يا صديقى من أن تمسك الشيطان فلا يفلك منك. فلتبق غريقا فى سباتك،
ولتعبث بفكرك الأحلام الحلوة وتتلاعب بك الأوهام.

لكن كيف أخرج من هنا وهذا الطلسم منقوش على عتبة الغرفة. لابد لى من فأرة
تقرضه بأسنانها.

ولست بحاجة لأن أقرأ عزيمة طويلة فيها أنا أسمع صوت فأرة وإخالها تسمع
صوتى.

«إن زعيم الفئران وإمام الجرذان وعميد بنات عرس الذى يدين له الذباب والبق
والقمل، يأمرك أن تحملى على هذه العتبة فتقرضى ذلك الطلسم وتمحيه.

ها أنت قد أتيت فأسرعى: لا تتركى من هذا الرسم أثرا. لم يبق إلا القليل. ها
أنت قد انتهيت من عملك. وقضى الأمر.

وأنت يا فاوست طابت لك الأحلام حتى ألقاك بعد قليل.

(يخرج إبليس)

فاوست (مستيقظا)

هل أرانى خدعت مرة أخرى؟ أهكذا تختفى الأرواح بعد ظهورها. ولا يبقى سوى
حلم كاذب خدعنى به الشيطان وذكرى كلب قد هرب منى.

(٤)

حجرة الدراسة

(يطرق الباب)

فاوست

ادخل!

من جاء يزيد في كربى وتعذيبى ؟

إبليس

أنا

فاوست

ادخل!

إبليس

حتى تقولها مرة ثالثة.

فاوست

ادخل إذن

إبليس

يعجبني منك هذا اللطف. وإخال أنى ساكون وإياك على وفاق ووثام. أردت أن أشرح صدرك وأطرد عنك الهموم، فجنّتك فى زى السادة الأشراف، مرتديا حلة حمراء مزينة بالقصب، ذات أكمام من خالص الدمقس، وعلى قلنسوتى هذه الريشة، وفى خاصرتى هذا الخنجر الماضى الغرارين؛ والآن أسالك أن تتزين بهذا الزى وتتحدى بهذا الحلى، حتى تفك عنك هذه الأغلال وتنقشع عن سماء محياك هذه الغيوم، فتدرك حقيقة الحياة.

فاوست

إن مثل هذا الثوب ليزيدنى شعورا بالأم هذه الحياة الأرضية الضيقة المحدودة. ما أنا بالشاب الفتى فآلهو وألعب؛ ولا بالشيخ الهرم فأقطع من الحياة كل رجاء، وكلما سألت الدهر منحة ومددت كفى أبتغى نوالا، كان الجواب الأبدى على سؤالى أن «يجب أن نحرم. يجب أن نحرم!». مثل هذا الرد الخشن الجاف هو كل ما طرق أذانى طوال هذه السنين.

وإنى لأستيقظ كل يوم فأكاد أتميز من الغيظ وأذرف الدمع كمدا وحسرة على أيام تذهب سريعا، دون أن تبغنى من الدنيا قصدا أو تنيلنى أمنية واحدة.

ولو صور لى الوهم أن نجم سعدى قد بدا فما يلبث حتى تداهمه سحب الأحزان فتحجبه وأعود كما كنت فى ظلمات بعضها فوق بعض.

وترانى إذا جن الليل وذهب كل إلى فراشه يبتغى لنفسه الراحة، أويت إلى مضجعى فإذا هو كانه من شوك القتاد. وإذا أنا أتلوى عليه كالملسوع وأقلب كائى راقدا على الجمر. فإذا تجاسرت وأغمضت عينى لحظة أتننى الأحلام المروعة التى يهلع لها الفؤاد، ويفزع منها القلب الجليد.

إن الإله الذى يسكن فى أعماق صدرى هو أقدر ما يكون على إثارة مشاعرى.
مسيطر على قواى يسيرها كيف شاء. لكنه أعجز ما يكون عن التحكم فى العالم
الخارجى لا حول له أمامه ولا قوة^(١).

لا غرو - إذن - إن باتت الحياة عبثا على كاهلى وحرجا فى صدرى. وأمسييت
والحمام ضالتي المنشودة، وشفاه قلبى الكليم.

إبليس

برغم هذا كله، فما الموت بمرغوب فيه ولا محبوب.

فاوست

أجل لعمرى! وسعيد جدا ذلك المحارب الذى يتجرع كأس المنون وسط أعلام
النصر فيعقد الموت على جبينه إكليلا من الغار مخضبا بالدماء. وسعيد ذلك الفتى الذى
قتل الليل ونفسه رقصا، ثم خر بين ذراعى غادته صريعا. ويا ليتنى ليلة أن رأيت ذاك
الروح وتمثل جلاله أمام عيني داهمتنى المنية وفاضت نفسى بين يديه.

إبليس

على أنه فى تلك الليلة نفسها أراد أحد الناس الانتحار بالسّم، ثم أبى أن يتجرع
الكأس.

فاوست

أراك ولوعا بالتجسس.

(١) أى أن روحه قادرة على تعذيبه وتنغيص عيشه، بقدر عجزها عن تسخير العالم الخارجى لراحته
وسعادته.

إبليس

أنا محيط بكثير من الأمور علما: وإن لم أكن عليما بكل شيء.

فاوست

لئن كانت تلك النغمات العذبة التي ألفتها من الصبي قد انتشلتني من وهدة اليأس
القاتل، بأن أعادت إلى خاطري ذكرى أيام أسعد وعيش أرغد، فأيقظت كامن أشجاني،
وحالت بيني وبين الموت الذي كنت أتمناه.

فالآن أصب اللعنة على كل شيء من شأنه أن يخدع الروح ويغرها بالزخارف
والأباطيل لكي يلقي بها في بؤرة هذه الحياة الملأى بالأحزان والهموم.

ألا لعنت تلك المثل العليا التي تقيد بها الروح نفسها.

وتبا لتلك الظواهر الخلابة الجذابة التي تملك منا الحواس.

وبعدا للأحلام المغررة التي تطمعنا في الشهرة وفي خلود الذكر.

ألا لعن المال؛ تصبوا لإحرازه النفس.

وبعداً للزوجة والأهل، وللبنين والبنات، وللخدم والحشم.

ألا لعن مامون - إله النضار - إذ يدفع بنا لاقتحام المهالك من أجل كنوزه؛
ثم يسلمنا إلى نعيم الكسل والبطالة، ويوسدنا الراحة والدعة.

ألا تبا للخندريس وإن كان فيها الشفاء.

وبعداً للعشق ووصال العاشقين.

ألا لعنت الآمال والأمانى. ولعن الإيمان الثابت.

واللعنة كل اللعنة على الصبر الجميل.

أرواح (غير ظاهرة)

ويك قد شوهت وجه العالم الغض الجميل .
وغدا طرفك أعمى لا يرى قصد السبيل .
تزدري ويملك هذا الكون ذا الشأن الجليل .
هاك أنهار عذاب فى نواحيه تسيل ؛
فلماذا - ويك - لا يشفى لك اليوم غليل .

إبليس

هؤلاء هم الأحداث الصغار من قومي وعشيرتي، لهم من أصالة الرأي والحكمة ما
للشيوخ المحنكين. وأراهم يريدون أن يجذبوك إلى محاسن هذا العالم الفسيع.
ويخرجوك من هذه البؤرة التى تقضى فيها أيامك فى وحدة تضجر النفس وتخمد
جمرة الحوا .

والآن لا تدع هذه الكآبة تذهب بك كل مذهب فإنها كالأفعوان فاغرة فاها لتلتهمك
وأنت على قيد الحياة .

إنك لو خرجت إلى العالم وجالست حتى الأسافل من الناس لاستشعرت لذة
جديدة؛ ولأدركت أنك آدمى تعيش وسط الأمديين أمثالك. على أنى لا أريد أن ألقى بك
بين سوقة الناس وعامتهم .

أنا لست من العظماء ذوى القوة والجبروت؛ لكنك إن أردت أن أصاحبك مصاحبة
الظل وأسلك وإياك سبل الحياة، فإنى مستعد لأن أنصرف إلى خدمتك منذ الآن، فأكون
لك فى الحياة رفيقاً رفيقاً، وإن شئت أكن لك خادماً وعبداً رقيقاً .

فاوست

ويحك فما تطلب منى لقاء هذا كله؟

إبليس

أمامنا من الوقت متسع، فلنترك هذا إلى ما بعد.

فاوست

لا وأبيك فأننا أعلم أن الأبالسة أهل طمع وجشع، ولا يعملون عملا لوجه الله إن كان للناس فيه فائدة. فقل لي أى جزاء تريد منى تلقاء خدماتك تلك. فإن خادما مثلك خطر على الدار وصاحبها أى خطر.

إبليس

هاك ما أبتغيه منك:

مادمت فى هذا العالم فأننا أطوع لك من العصا، وأسرع إلى إجابة أمرك من البرق. وأعدى خلف ما تشتهييه من السهم، وأشد إخلاصا لك من يمينك. حتى إذا حان الحين وانتقلت إلى العالم الآخر، فهناك فلتطعننى كما كنت هنا أطيعك.

فاوست

لست أعبأ كثيرا بالعالم الآخر. فى هذه الأرض رى من ظمئى، وشيع من سغبى وشفاء لعلتى وغذاء لروحى. وهذه الشمس هى سراج حياتى، وهدايتى وسط الغياهب. فإن غاب هاتان عنى وحيل بينهما وبينى، فليحدث لى ما عساه أن يحدث، فإنى لا أبالى بعدهما بشىء. وما يهمنى أن أعلم إن كان فى العالم الثانى شقاء أو نعيم، وحب أم بغض، ورقعة أم ضعة.

إبليس

إن كان هذا رأيك فأبرم أمرك، وليتم بيننا التحالف. وعمما قريب ترى من سحرى العجائب وتنعم بما لم تره العيون، وما لم يخطر لإنسان ببال.

فاوست

أأنت أيها الشيطان الحقيير تمطر الهبات وتجزل العطايا؟ وأنى لملك أن يدرك
ما يخطر للنفس البشرية حين تحلق فى السماء وترقى؟ وهل عندك إلا شراب لا يطفى
الظمأ وطعام لا يشبع من جوع؛ ومال كالزئبق لا تكاد تمسكه الكف حتى يزول ويختفى؛
أو لهو ولعب ليس وراءهما إلا الخسار والدمار؛ أو فتاة حبها رياء ووصلها نفاق، تضع
رأسها على صدرى وعينها تنظر إلى جارى؛ أو شهرة ومجد هما كالشهاب الساقط
يضى لحظة ثم يخبو إلى الأبد؟

أتريد أن تخدعنى بتلك الثمار التى أدركها العطب قبل أن تمد الأيدي لاقتطافها.
أم بتلك الأغصان التى ما أورقت حتى نوت ولا أينعت حتى صوحت؟

إبليس

هيهات أن تزعجنى بمثل هذا الكلام.

حقيقة إنى قد أقدم لك مثل تلك الكنوز، لكن سيأتى وقت أيها الصديق فتتعم
بطعام أشهى وألذ فى صفاء وراحة.

فاوست

لئن جاء اليوم الذى أرقد فيه على فراش الكسل والراحة، ولئن أصبحت بفضل
مكر وخداعك، ويحييك وألاعيبك، أتوهم أنى فى رغد من العيش، أو خيل لى أنى غدوت
من السعداء، فليكن ذلك اليوم آخر أيام عمرى.
وهذى مراهنه بينى وبينك.

إبليس

إذن اتفقنا.

فاوست

وأزيدك فوق ما قلت: إنى لو مرت بى لحظة من الزمن وكانت من الحسن بحيث قلت لهما: إن «لا تبرحى فما أحلاك!». فهناك فلتهى لى سلاسلك وأغلاك. هناك أرحب بالمت؛ هناك فلتندبنى النوادب، وهناك تنتهى خدماتك لى، وعندها فلتقف ساعة عمرى وليخب سراج حياتى.

إبليس

تبصر فيما تقول فأنى لن أنساه.

فاوست

ويحق لك ذلك، فأنى لم أفه بكلمة عبثاً. ومتى كان بينى وبين امرئ عهد فكلمتى تقيدى ووعدى يسترقنى. سواء أكان العهد معك أم مع سواك.

إبليس

حسن. وسأشرع من هذه الساعة فى القيام بما يجب على من فروض الخدمة والطاعة.

على أنى أسألك أن تخط لى سطرين يتضمنان ما تعاهدنا عليه.

فاوست

ويلك! أتريد أن يكون العهد الذى بيننا مكتوباً؟ أما سمعت فى عمرك بوعد الرجل الحر، ووفاء المرء بالعهد؟ أما يكفى أن كلمة فहत بها ستقيدى أمامك ما حييت، وسأبقى فى ربقتها مدى الدهر؟ فبينما الناس أحرار طليقون أكون أبداً أسير الوعد الذى وعدته.

على أنها قيود محبوبة إلى النفس وأسر يستعذبه الحر. سعيد من حمل الوفاء فى صدره نقياً من كل شائبة، وضحى بكل ثمين فى سبيل المحافظة على عهده.

أما العهود المسطورة على الأوراق فشبح مخيف تنفر منه النفس الصادقة، لأن
الكتابة تسلب الكلمة روحها وسرها، فلا يبقى منها سوى الورق والمداد.
وماذا تبتغي مني أن أكتب لك أيها الشيطان الرجيم؟ وهل تريد أن أكتبه لك على
الطروس أو أنقشه على الرق أو أحفره على الصخر؟
اختر ما يحلو لك.

إبليس

عجبي منك كيف غلوت في الأمر وأخذت منك الحدة مأخذها. والمسألة هينة. أكتب
على أى ورقة شئت. ومتى وصلت إلى النهاية فأمض العهد بقطرة من الدم.

فاوست

مادام هذا ما تشتهي، فسأعطه على ما به من سخافة.

إبليس

الدم عصير عجيب لا يعدل عنه إلى غيره.

فاوست

لا يخطر ببالك أنى أنقض العهد الذى أبرمته وإياك، فإن كل ما لدى من حول ومن
قوة موقوف على إنفاذ ما عاهدتك عليه.

ولقد مضى على زمان كنت فيه كثير الطموح، لا أتطلع لما دون مرتبة الأرواح.
حتى بدا لى ذلك الروح الجليل منذ ليال، فازدرانى وأرانى حقارة قدرى. ونظرت فإذا
الطبيعة قد أوصدت أبوابها فى وجهى، وإذا خيط التفكير قد تقطع. ومن قبل كرمت
نفسى العلم ونفرت منه.

والآن فلنخمد عواطفنا الثائرة المضطربة فى أعماق بحر من الشهوات، ولنكشف
قناع السحر عن كل أية وأعجوبة لم تقع على مثلها العيون، ولتثب بقوة وسط أمواج

الدهر المتلاطمة، وتيار الحوادث المتدفق. وسيان عندي أن تعاقبت على الراحة والألم، والصحة والسقم، والنجاح والفشل، على شرط ألا يستقر لنا قرار، ولا نخلد إلى السكون.

إبليس

أطلق لنفسك العنان كما تشاء. فإن أردت أن تشرب من سائر اللذات حتى تروى، أو أردت أن تتذوقها على عجل، فلك الخيار. وعلى أن أنيلك ما تريد. فتمسك بأذيالي! وأخلع عنك برقع الحياء.

فاوست

ليس التمتع والتنعيم هما بغيتي وضالتي. أريد أن ألقى بنفسى فى مرجل الدهر الهائج المضطرب. أريد أن أمارس النعيم المؤلم، والغيبض المنعش، والبغض الذى ملؤه الحب. والآن وقد بات صدرى حرا من ممارسة العلوم، فلن أحول بينه وبين الآلام مهما جلت. أريد أن أشرب بالكأس التى يشرب بها سائر الناس، وأن أرقى إلى أسمى غاية ثم أهبط إلى أعمق هوة. حتى يمتلئ صدرى بما يعانىة الناس من سعادة وشقاء، فلا تزال نفسى تكبر وتعظم حتى تحتوى نفوس الناس جميعا، ثم أرد الحوض التى قدر لهم أن يردوها.

إبليس

صدقنى، أنا الذى قضيت آلاف السنين أطعم من ذلك الصاب، إنه لا يوجد فى العالم رجل استطاع أن يسيغ الحزن غذاء والهموم شرابا. ولو قضى فى محاولة هذا العمر كله من المهدي إلى اللحد. وثق بقولى إن هذا العالم البديع إنما هو ملك لإله واحد. فهو وحده يعيش وسط النور الأبدى. أما نحن - الشياطين - فقد ألقى بنا فى حنادس الظلماء. وأما أنت فيتعاقب عليك النور والظلام والسعادة والشقاء.

فاوست

ولكنى أريد.

إبليس

يا حبذا ما تريده لولا أنني أرى أمامنا عقبة هائلة: ذلك أن العمر قصير والقصد بعيد.

وقد يحسن بك أن تتلقى بضعة دروس. فالتمس لك شاعرا من الشعراء ولازمه ملازمة الظل، ودعه يسبح بك فى سماء الخيال^(١)، فيحشو رأسك المبجل بسائر الصفات الكريمة والأخلاق النبيلة، ببسالة الأسد وخفة الظباء، ونخوة الإيطالي وثبات الجرمانى. دعه يعلمك كيف تجمع بين خبث النفس وكرم الطباع. وكيف تستطيع - ودم الشباب يغلى فى عروقك؛ وشهوات الصبا تجيش فى صدرك - أن تعشق عشقا هادئا مطابقا لقوانين ونظم موضوعة.

وأنا نفسى أود أن لو رأيت مثل هذا المعلم؛ إذن لأطلقت عليه اسم العالم الصغير.

فاوست

ومن أنا حتى أعجز عن إحراز ذلك التاج الجليل الذى تطمح إليه النفس وتشتاقه كل جارحة من جوارحي؟

إبليس

أنت كما أنت! حاول ما شئت أن تطول وتسمو. ضع على ناصيتك من الشعر المستعار آلاف الخصلات. وضع فى رجلك أحذية عالية، فلا وأبيك ما أنت بعد هذا كله إلا حيث كنت من قبل.

فاوست

إنى أحسن صدق ما تقول. وعبثا أحرزت سائر الكنوز التى أنتجها الفكر البشرى على مر السنين. ثم جلست بعد لى أتأمل حالتي، فإذا أنا لا تفيض من نفسى قوة جديدة، ولا أرانى اقتربت قيد شعرة من الذات اللانهائية.

(١) هذه العبارة وما بعدها يقولها إبليس على سبيل التهكم.

إبليس

يا سيدى الطيب القلب إنك ترى الأشياء كما يراها سائر الناس. والواجب يقضى علينا أن نسلك مسلكا جديدا. قبل أن تنصرم لذات العمر ويفوت الأوان.

أليست لك يداك ورجلاك، ورأسك وبطنك. فلماذا لا تستخدمها جميعا فى التمتع والتمتع؟ وهل هذا ضايرك بشىء، ألا ترى أنه لو كان لى ستة من جياد الخيل لأصبحت قادرا على التصرف فى قواها كيف أشاء فأعدو بها حيث أريد كأن لى أربعا وعشرين ساقاً.

فلتنهض الآن ولتسارع إلى العالم! ودع كل هذا التفكير الذى لا يجدى. فلعمرك ما الرجل الذى يقضى عمره يفكر ويحسب إلا كالحيوان الأعجم، يدور فى دائرة ضيقة لا زرع فيها ولا عشب؛ ولو خرج عنها لحظة لرأى حوله الزروع الناضرة والمراعى الخصيبة.

فاوست

إذن فيماذا نبدأ؟

إبليس

أول شىء نعمله أن نغادر هذا المكان. يا عجباً لك كيف استطعت البقاء فى دار العذاب هذه؟ أى عيش هذا الذى تعيشه أنت وتلاميذك؛ وأى بلاء تعانونه فى هذه البؤرة؟ وكان الأخلق بك أن تترك هذه الأعمال العقيمة لرجل بليد غليظ القلب ممن يستطيعون لها احتمالا. وماذا يجديك أن تقضى عمرك تذرو الهشيم المرة بعد المرة. ومع هذا فإنك لا تقدر أن تبوح لتلاميذك بأجل وأسمى ماتعلم.

كأنى الآن أسمع صوت أحدهم قادما إلينا.

فاوست

أنا لا أطيق رؤية أحد.

إبليس

وما يصنع المسكين وقد طال به الانتظار؟ أولى بنا ألا نتركه يرجع بخفى حنين.
أعطني رداءك وقلنسوتك. إن التكر بهذا الزى يلائمى الملاءمة كلها.
(يليس ثياب فاوست)

ولن يخوننى ذكائى فى مثل هذا الموقف. وحسبى أن أتكلم وإياه هنيهة ريثما
تتأهب لرحلتنا الميمونة.
يخرج فاوست

إبليس (فى ثياب فاوست الطويلة)

احتقر العلم والعقل ما شئت؛ وهما أجل وأغلى ما يملكه البشر. ثم تعال فآلق
بنفسك بين مخالب الشيطان المضل ليخدعك بسحره وحيله! الآن قد أصبحت لى،
بلا قيد ولا شرط.

إن القضاء قد منح هذا الرجل روحاً طموحة: تسعى أبداً إلى الأمام وتشرئب أبداً
إلى العلياء؛ ولشدة تسرعه وتطلعه إلى السماء قد عميت عينه عن رؤية ما على الأرض
من لذات وخيرات.

والآن سأجره جراً فى مسالك الحياة الوعرة، وأرضيه عن مطامعه الجسيمة بالحقير
التافه. ولسوف يقتله الجوع وينهك قواه الظمأ؛ ثم يلتمس الطعام والشراب فيراهما
على كثر منه، ويمد يديه فلا يستطيع لهما طلباً.

ولا نجاة لمثل هذا من الدمار. فلو لم يسلم نفسه إلى الشيطان لرأيناه بعد حين
يسير إلى حتفه من تلقاء نفسه.
(يدخل تلميذ)

التلميذ

قصدت هذه البلدة منذ زمن قصير. وجئت وقلبي ملؤه الهيبة، لكى أتشرف برؤية
ذلك الرجل العظيم الذى سارت بذكره الركبان، والذى يعظمه الجميع ويبجلونه.

إبليس

سرني أدبك؛ على أنك لا ترى أمامك إلا رجلا مثله في العالم كثير.

هل سبق لك أن ذهبت إلى معهد آخر؟

التلميذ

إنى ألتمس منك أن تعنى بأمر تعليمي. وقد أتيت ولى رغبة شديدة في العلم ونشاط جم. ولدى من المال ما يكفى حاجتى. وقد غادرت أهلى ووطنى رغم معارضة أُمى الشديدة، لعلى أحرز من المعارف ما يعلى قدر المرء ويرفع منزلته.

إبليس

إذن لقد وفقت إلى خير مكان.

التلميذ

أقول لك الحق. لقد حدثتني نفسى بالرجوع؛ ولم يرق فى عينى منظر هذه الجدران، وتلك الحجرات القاتمة؛ والمكان كله محدود محصور؛ لا ترى فيه ماء ولا خضرة ولا نباتا ولا شجرا. وفى مثل هذه الغرف وبين تلك المقاعد يخمد الفكر ويعيا السمع والبصر.

إبليس

ستعتاد نفسك كل هذا. والطفل ينفر بادی بدء من ثدى أمه، ثم متى ألفه وعرفه أكب عليه برغبة وشهوة. وأنت كذلك ستقبل على لبان الحكمة والعلم فترتضع منها ما فيه رى لظمتك وغذاء لروحك.

التلميذ

سأتمسك بأذيال العلم، وأقبل عليه فرحا مسروراً. فقل لى كيف أصل إلى غايتى.

إبليس

قبل أن نتعمق فى الحديث أريد أن أسألك. هل اخترت الكلية التى تريد أن تلتحق بها؟

التلميذ

أريد أن أصبح فى مصاف رجال العلم، وأود أن أحيط بما فى الأرض وما فى السماء، وأن أدرك أسرار العلوم ومكونات الطبيعة.

إبليس

إنك سائر فى أقوم طريق، فحذار أن تضيع وقتك سدى!

التلميذ

سأنهمك فى الدرس روحاً وجسداً. بيد أنى لا أكتمك أنى لا أستطيع أن أستغنى عن قليل من اللهو والتسلية من أن لأن. ناهيك بأيام الصيف الجميلة.

إبليس

أحسن الانتفاع بالوقت فإنه سريع الذهاب. ونظم عملك حتى تتوفر لديك فسحة من الزمن. وإنى أنصحك أن تبدأ أولاً بدراسة المنطق، حتى يمرن ذهنك وترتاض روحك وتحصر فكرك فى دائرة ضيقة وتقيد به بسلاسل من الفولاذ؛ كى لا يكون طليقاً حراً يسرح ويمرح حيث شاء.

وسيعلمك المنطق أن كثيراً من الحركات والأعمال البسيطة الهينة - التى نعملها فى كل حين ونظنها أمراً واحداً مثل الأكل والشرب - هى فى الحقيقة حركات معقدة لها أوائل وأواسط وأواخر؛ وأن الفكر عند اشتغاله يشبه آلة النسيج، تضرب بيمينك فى موضع منها فتتحرك آلاف الخيوط؛ ثم تضرب بيسارك فى موضع آخر فتتشبك الخيوط بعضها ببعض، وترتبط اللحمة بالسدى.

ويجىء الفيلسوف بعد هذا فيريك بالدليل القاطع أن سير المنسج يجب أن يكون على هذا النمط؛ وأنه لو لم يكن الأمر الثالث لما كان الرابع؛ وأن الثانى سبب وجود الثالث؛ وأنه لولا الأول لما كان الجميع.

مثل هذه المعلومات قد شغفت التلاميذ حبا، ولو أنها لم تزدهم بالنساجة علما.

وطريقة العلماء إذا أرادوا وصف جسم حى، أن ينتزعوا منه الروح، ثم يمسكوا أوصاله بأيديهم ويحدقوا فيها بأبصارهم؛ وقد ذهبت قيمتها بعد أن غادرتها تلك الجوهرة الغالية. وهم يسمون هذا «خصائص الطبيعة». وما يسخرون إلا بأنفسهم وهم لا يشعرون.

التلميذ

لم أستطع فهم عبارتك الأخيرة.

إبليس

لا بأس. فستعتاد فهم هذه الأمور، متى علمت كيف تفرق بين الأشياء ثم تعود فتجمعها بعضها إلى بعض.

التلميذ

لكن ما بال رأسى قد تشوش واضطرب كأنما تدور فى طاحون.

إبليس

أنصت إلى! أول ما يجب عليك عمله هو أن تدرس ما وراء الطبيعة؛ فبذلك تحصل من المعلومات العميقة ما يستحيل على الفكر البشرى إدراكه وفهمه. وسواء أفهمت الأمور أم لم تفهم؛ فتصبح لديك مجموعة قيمة من الألفاظ والأسماء.

ونصيحتى لك أن تواظب على درسك فى الأشهر الأولى. فاذا ذكر أن ساعات الدراسة خمس. ويكر إلى الدرس ما استطعت التذكير. واحرص على قراءة درسك قبل أن تدخل حجرة التعليم، لترى أن الأستاذ لن يلقى إليك كلمة واحدة فى ما فى كتابك. وبرغم هذا يجب أن تكتب كل ما يلقى عليك حرفا بحرف، كأنك تتلقى درسك من الروح القدس.

التلميذ

سأحفظ نصيحتك هذه فى أعماق صدرى. وأنا أعلم أن كل ما يسطره المرء بالمداد الأسود على الصفائف البيضاء خير ذخيرة يفتنى.

إيليس

إذن فاختر لنفسك إحدى الكليات.

التلميذ

دراسة الحقوق لا تلائمني.

إيليس

أمر لا تؤاخذ عليه. وأنا أعرف حالة ذلك العلم معرفة تامة. فما الشرائع والقوانين سوى أمراض مزمنة متوارثة تركها لنا أبائنا وأجدادنا، وأسلمها السلف للخلف، فتنتقل عداوها من جيل إلى جيل ومن بلد إلى بلد؛ ويمضي الزمن تصبح حكمتها خرافة وصالحها خبيثا. والويل لنا ما دما أحفادا لأولئك الأجداد الذين أورثونا حقوقهم وقوانينهم، أما الحقوق التي تولد معنا حين نأتى إلى هذا العالم فضائعة لا يطالب بها أحد.

التلميذ

أراني ازدددت لها كرها بعد الذي سمعته منك؛ فيا سعادة من تكون له مرشدا وهاديا. فما قولك في دراسة الفقه وعلوم الدين؟

إيليس

أريد ألا تضل السبيل. فهذا العلم صعب المسلك، وسرعان ما يضل فيه الطالب. وقد امتزج فيه الشهد والسم الزعاف امتزاجا يتعذر معه أن يميز المرء بين الدواء الشافي والسم القاتل.

وخير سبيل تسلكه في هذا العلم هو أن تصغى بانتباه لكل ما يقوله الأستاذ ثم تردده لنفسك وتكرره أمام الناس؛ وفي كل المسائل: عويصها وسهلها، تمسك بالألفاظ، وتعلق بأهداب العبارات - فإنها أسلم منهاج يوصلك إلى كعبة الحق واليقين.

التلميذ

لكن لابد للكلام من معنى يؤديه.

إيليس

لا بأس. وإنما يجب على الإنسان ألا يفقد ثقته بنفسه. فكثيرا ما يعوز المعنى فتجد لديك من الألفاظ الحسان ما فيه الغناء. والألفاظ هي المحور الذي تدور عليه المحاورات؛ والسلاح الذي تقوِّز به في مواقف الجدل. وباللفظ تبني القواعد والمذاهب. فتقوِّم بأهمية الألفاظ، واحرص عليها الحرص كله.

التلميذ

سامحني، إن ضايقتك بكثرة الأسئلة. هل تتكرم بأن تقول لي كلمة عن علم الطب! لقد سمعت أن مدة الدراسة ثلاث سنوات، ثم ذكرت أن بحر هذا العلم فسيح شاسع. فأخذتني الدهشة. وحبذا لو بينت لي السبيل، وأوضحت لي أقوم طريق أتبعه.

إيليس (لنفسه)

حسبي. تكلمت حتى الآن بتلك اللهجة العقيمة. ولأرجع لأصلي وأتكلم كما يتكلم الأبالسة.

(بصوت عال) سهل عليك أن تفهم روح علم الطب وسره. بعد أن تدرس علوم الأوائل والأواخر وتفهم حقائق العالمين الأصغر والأكبر تترك الأمور على غاربها وتسلم كل شيء للقضاء والقدر. وعبثا تحاول أن تسبح في بحار العلوم والفنون، فما يمكن للمرء أن يعلم إلا ما يستطيع أن يتعلم - وإنما رجل الدنيا من عرف كيف ينتهز الفرصة. وأنا أراك قوى البنية، كثير الجرأة، فإن قدرت أن تكون كثير الثقة والاعتداد بنفسك فستكسب كذلك ثقة الناس أجمع.

تعلم بنوع خاص كيف تسوس النساء، فإن عللهن وأوجاعهن - على كثرتها وتنوعها - تعالج كلها بطريقة واحدة. وحسبك أن تتصف بالشرف وكنتمان الأسرار فيصبحن جميعا في قبضة يدك.

لكن لابد لك من إحراز لقب فى العلم حتى يكون لهن من هذا دليل قاطع على تفوقك.
ثم تصبح وقد أحرزت منهن ما عجز الآخرون عن إدراكه طوال السنين.
تعلم كيف تجس نبضهن الصغير؛ ملقيا عليهن نظرات يشتعل فيها لهيب الخبث
والمكر؛ مطوقا خصرهن النحيل بذراعك لتعلم إن كان النطاق مشدودا ومجهدا
لأجسامهن.

التلميذ

هذا لعمري أحب إلى نفسى. وهنا أرى الغاية واضحة والطريق المؤدية إليها.

إبليس

إن النظريات كلها عتيقة بالية وأما شجرة الحياة فيانعة خضراء.

التلميذ

أقسم لك أنى من شدة السرور فى حلم.
فهل تسمح لى مرة أخرى أن أرجوك لتفضل على بحكمة من حكمك الغالية ودره
من كنوزك؟

إبليس

لك منى ما أقدر عليه.

التلميذ

لا أستطيع أن أرجع أدراجى دون أن أقدم لك كناشتى هذه لتفضل على
بسطر تكتبه.

إبليس

عن طيب خاطر. (يكتب ويرد الكراسه).

التلميذ

(يقرأ بإعجاب)

Eritis sicut Deus, Scientes bonum et malum

ستبلغون مرتبة الآلهة وتميزون الطيب من الخبيث^(١)

(يطوى الكراسة بإجلال وأدب ويخرج)

إبليس

تمسك بهذه النصيحة واتبع ما أشارت به خالتى الحية. وبرغم ما تزعم من اقترابك من مرتبة الآلهة؛ فلسوف ترتعد فرقا حين تسير فى تلك الطريق الوعرة.

(يدخل فاوست)

فاوست

أين نذهب الآن!

إبليس

حيث يحلو لك. نشاهد أولاً العالم الأصغر ثم العالم الأكبر^(٢) ولا تسئل عما ستحسه من السرور وما تجنى من الفائدة.

(١) هذه العبارة التى أوصى إبليس بها التلميذ هى كذلك العبارة التى قالتها الحية لى تغرى حواء على الأكل من الشجرة - راجع سفر التكوين - الإصحاح الثالث.

(٢) ذكر العالم الأصغر (ميكرو كوزموس) والأكبر (ماكرو كوزموس) كثيراً فى هذا الكتاب. والعالم الأصغر هو الإنسان فى مختلف أحواله وأطواره. وفى الجزء الأول من كتاب فاوست يقود إبليس فريسته؛ حيث يريه الناس وطباعهم ولذاتهم ونزعاتهم، وبهذا يريه العالم الأصغر؛ أما فى الجزء الثانى فيريه شيئاً من العالم الأكبر وهو الكون العظيم اللانهائى الذى لا يحده زمان ولا مكان.

فاوست

لكن ألا ترى أن لحيتي الطويلة لا يلائمها اللهو واللعب. وأكبر ظنى أنى لن ألاقى
فى هذا السبيل أى توفيق. وأنا أجهل أساليب العالم الجهل كله. ولا أكاد أرانى بين
أناس آخرين حتى تملكنى الحيرة والاضطراب، وتصغر نفسى فى عينى.

إبليس

يا صديقى كن ذا وثوق بنفسك تهن عليك كل هذه الشدائد.

فاوست

وكيف نخرج الآن من هنا؟ هل أعددت المركبة والجياد؟

إبليس

لا حاجة بنا إلى هذا. فأنا أبسط عباءتى ثم نمتطى صهوتها فتشوق بنا الجو
وتسبح بنا فى الهواء. والأفضل ألا تحمل معك أمتعة ثقيلة فتعوق طيراننا؛ وسأهين
نسيما ناريا ليحملنا. فإن كنا خفافاً كان هذا أدعى إلى السرعة.
ولتهناً وتنعم بحياتك الجديدة.

(٥)

حانة أورباخ فى لايبزغ^(١)

جماعة من الشاريين

ضفدعة

ويلكم! ما لكم لا تشربون ولا تضحكون. وما لوجوهكم عابسة وجباهكم مقطبة!
لقد خدمت نار حميتكم وصرتم كالحطب الرطب لا ترجى منكم فائدة.

براندر

أنت المقصر: لماذا لا تأتينا بنكتة من نكاتك السخيفة أو فصل من فصولك
الباردة؟

ضفدعة

(يصب على رأسه خمرا) دونك ما تريد.

براندر

حقيقة إنك بارد جدا.

(١) هذه الحانة القديمة التى لم تزل موجودة إلى يومنا اكتسبت شهرة غير قليلة.
أولا : لأن فاوست كان يتردد عليها فى زعم كتاب القرون الوسطى الذين نقلوا إلينا قصته.
ثانيا : لأن غوته نفسه كان يكثر من ارتيادها وهو طالب فى جامعة لايبزغ وجماعة الشاريين المذكورين
فى هذا الفصل هم كذلك من الطلبة.

ضفدعة

أنت الذى طلبت الفصل البارد.

سيبيل

الطرد جزاء من يعكر صفو مجلسنا بالمشاحنة والمشاكلة. هلموا فلنغن
ولنشرب ولنصح بملء أفواهنا. أه يا ليل!

التماير

أسعفوني بقطعة قطن : فقد كاد الملعون يخرق طيلة أذنى بصياحه.

سيبيل

ويحك إنى متى رن صوتى فى أركان هذا المكان وملأ بصداه الأذان فهناك تحس
لذة الطرب وتذوق حلاوة الغناء.

ضفدعة

بلا ريب! ومن لم يعجبه هذا فليولنا ظهره. هيه يا ليل!

النماير

(صائحاً) هيه يا ليل!

ضفدعة

ما شاء الله! إن الحناجر منتظمة الأوتار.

(يغنى) يا لقومى عجباً ما لى أرى دولة (روما)

لم تزل فى يومنا هذا كما كانت قديماً،

براندر

قبحا لك ولأنشودتك! أتعكر علينا سرورنا بأغنية سياسية كريهة! وما لك أنت
والسياسة؟ لو كنت تعقل لحمدت الله كل يوم على أن ليس لك فى دولة روما لا ناقة
ولا جمل. أما أنا فأرى أن أكبر مغنم لى هو أنى لست بقيصر ولا وزير. وإن كان لابد
لنا من رئيس فلننتخب من بيننا رجلا نسميه «شيخنا البابا». وأنتم تعلمون الصفات
التي تؤهل الإنسان وترفعه لمثل هذا المنصب الجليل^(١).

ضفدعة

(مغنياً)

انطلق نحو الحمى يا عندليب

حاملاً ألف سلامٍ للحبيب

سبيل

لا ترسل للمحبوبة أية تحية. فإنى لا أريد أن أسمع بمثل هذا.

ضفدعة

بل أرسل لها التحيات والقبل بالرغم منك!

(يغنى)

افتحى الخدر لصب مستهام

جاء كى يلقاك والقوم نيام

ثم يمضى حين ينجاب الظلام

(١) من عادة طلبة ألمانيا - أو كان من عاداتهم - الاجتماع للشرب فى نهاية السنة أو نصف السنة المكتبية؛ ومن شرب أكثر من غيره انتخبوه «بابا».

سبيل

تغن بها ما شئت وامدحها ما استطعت! وسيأتى وقت فأضحك منك وأسخر؛
ولا وأبيك لتخدعنك وتتلاعب بك كما خدعتنى من قبل. ولو كنت تعقل لأتحفتها بعفريت
كالتيس الهرم، يقابلها عند ملتقى الطرق^(١) أثناء عودته من نادى العفاريت فى
بلوكسبرغ^(٢) فيلعب وإياها الأعييه الجهنمية ويصرخ فى وجهها ويثب من حولها؛
وهو يحييها تحية المساء.

أما من كان آدميا من لحم ودم، فأطيب من أن تكون له بها علاقة. والطرء من
بيتى هو أحسن تحية تنتظرها منى.

براندر

(ضارباً بيده على الخوان)

انتبهوا إلى جميعا! وارعوني أسماعكم؛ واعترفوا لى جميعا بالحق والدراية. وفى
وسطنا هنا أناس عشاق ويجب علينا قبل انصرافهم أن نحییهم تحية جميلة كما هى
العادة والعرف، فاصغوا إلى وسأغنيكم أنشودة من أحسن طراز وأحدثه. ولتكرروا
المصراع الأخير من بعدى.

(يغنى) سكنت فى مخزن المأكول فاره،

ذات مكر واحتيال وشطاره،

أكثرت فى البيت نهبا وإغاره.

لم تدع فيه من السمن آثاره

يا ذكى الفهم تكفيك الإشارة!

يا ذكى الفهم تكفيك الإشارة!

الكل (منشدين)

(١) من الخرافات الشائعة أن العفاريت تقابل الناس عند تقاطع الطرق.

(٢) بلسكسبرغ هو أعلى جبال الهارتس Harz بألمانيا وهو ملتقى الشياطين فى عرف المعتقدين بالخرافات.

براندر

مرة - عفوا - رأتها الطاهيه

وهي في لحس الأواني لاهيه

قالت : الآن اصبري يا جانیه

سوف تصلين بناى الحاسيه

حينما تأتيك من جمرى شراره

يا ذكى الفهم تكفيك الإشارة!

دست السم لها وسط الدسم

وأنت فارتنا تجرى ولم

تدر ما فى الغيب من هم وهم

إن حلو العيش تتلوه المراره

يا ذكى الفهم تكفيك الإشارة

يا ذكى الفهم تكفيك الإشارة

براندر

الكل

لحست ما فى الأواني بنهم

وانشنت تصرخ من فرط الألم

أى حزن؛ أى كرب؛ أى هم!

باتت الفساره فى طى العدم

كل ربح سوف تتلوه الخساره

يا ذكى الفهم تكفيك الإشارة

يا ذكى الفهم تكفيك الإشارة

الكل

سبيل

ما لهؤلاء الطغام يفرحون ويطربون كأن تسميم الفيران المساكين فن من أدق
الفنون. وصناعة من أشرف الصناعات.

براندر

يظهر أن بينك وبين الفيران صداقة متينة.

ألتماير

ويك يا سمين البطن يا أصلع الرأس. كأن مصيبة الفيران قد أدخلت الرقة
والحنان إلى قلبك. أترك تنتصر للفيران لأنها تحاكك في الغلظة والثقل.
(يدخل فاوست وإبليس)

إبليس

أو ما يجب على أن أتى بك إلى مواضع اللهو، لترى كيف سهل على القوم أن
يمرحوا ويفرحوا، كأن أيام دهرهم كلها أعياد وكأن السرور عليهم سرمد.
فقليل الفكاهة يسبب لهم الفرح الكثير. ومثلهم كمثّل الهريرة التي تدور وتجري
وراء ذنبها لاهية لاعبة؛ وعلى شدة سرورها لا تدور تلك الدائرة الضيقة التي تدور حولها.
وكذلك هؤلاء القوم. فمادام الشراب لا يسبب لهم صداعا، وصاحب الحانة يسقيهم والدفع
نسيئة، فهم في سرور دائم وانبساط لا يشويه انقباض!

براندر

أظنهما قادمين الساعة من السفر، لما يبدو عليهما من الدهشة والاستغراب.

ضفدعة

لعلك صادق فيما تقول. وإخالهما جاءا لرؤية (لاييزغ) تلك المدينة الجميلة
التي تحاكى باريس حسنا وبهجة.

سيبل

ولكن من عساهما أن يكونا؟

ضفدعة

دعوني وإياهما! فبكأس واحدة أستدرجهما وأستخرج سرهما من صدرهما
كما تستخرج ثنايا الأطفال. وأكبر ظنى أنهما من أسرة شريفة لما يبدو عليهما من
الكبرياء والتبرم بالعالم.

براند

وأنا أظنهما مناديين فى الأسواق وأراهنكم!

التماير

ربما.

ضفدعة

انظروا الآن كيف أعبت بهما

إبليس

(لفاوست) ما رأى الناس يحسون وجود الشيطان ولو كان أقرب إليهم من
حبلى الوريد.

فاوست

حييتم أيها السادة.

سيبل

شكراً لك على تحيتك.

(ثم يهمس مشيراً إلى إبليس): ما بال زميله الآخر يمشى مشية الأعرج^(١)!

إبليس

أسمحون لنا أن نجالسكم؟ إن في مصاحبتكم عوضاً للمرء عن كؤوس الصهباء
الجيدة التي يستحيل أن نجدها الآن.

أتماير

كأنك لترفك لا تجد لذة في خمرتنا هذه.

ضفدعة

أخالك قد غادرت ريباخ^(٢) في ساعة متأخرة، إذ اضطررت للتخلف قليلاً لتتناول
الطعام مع (يوجنا) المغفل.

إبليس

لقد مررنا به أثناء سفرنا اليوم. وتحادثنا معه ملياً فما كان أشد شوقه إلى
أقربائه وبنى عمه. وقد سألنا أن نبليغهم تحياته وأشواقه.
(ثم ينحنى أمام ضفدعة).

أتماير

(همساً) أرايت أنه فهم؟

سيبل

الرجل نو مكر وخبيث.

(١) أصيب إبليس بالعرج في زعمهم حينما سقط من السماء.

(٢) ريباخ بلدة بقرب لايبزغ؛ وهي آخر مرحلة في طريق القادم على لايبزغ.

ضفدعة

انتظروا قليلا وسأغلب عليه.

إبليس

إن لم أكن مخطئا فقد سمعناكم تنشدون أغاني جميلة. وهذه الدار يلائمها الغناء لأن الصدى يرن فيها من جانب لجانب.

ضفدعة

لعلك من النابغين في الغناء.

إبليس

كلا! إن بضاعتي فيه قليلة لكن حبي له كثير.

ألتماير

أنشدنا بعض ما عندك.

إبليس

إن شئت كل ما عندي.

سميبل

لتكن أنشودتك جديدة ما دخلت أذنا قط.

إبليس

نحن قادمون الساعة من الأندلس بلاد الخمر والغناء.

(يغنى)

كان فيما مر سلطان خطير،

وله في القصر برغوث كبير

ضفدعة

اسمعوا! برغووث! هل انتبهتم جميعا لقوله؟ مرحبا بالبرغووث من ضيف كريم.

إبليس

كان فيما مر سلطان خطير ،
وله فى القصر برغووث كبير .
كان يعلى فى الورى من شأنه
ويراعى قدره مثل ابنه .
فدعا خياطه يوما لقصره
فأتى مستعجلاً طوعاً لأمره
قال : هئى لى ثياب السندس
واكس برغووثى أبهى ملبس !

براندر

لا تنس أن تشدد على الخياط كى يحسن قياس الثياب على قامة البرغووث. والويل
له إن كانت السراويل ضيقة أو كانت أزرار القميص مخالفة لأحدث طراز.

إبليس

(مغنياً)

أصبح البرغووث فى أحسن حال
ينثنى عجباً ويمشى باختيال .
فى ثياب من حرير وقصب

يلمع الدر عليها والذهب .
في بلاط الملك أمسى كالأمير
مستجاب الأمر ذا شأن خطير .
بعد أن أحرز ما يرجو لنفسه
أرسل استدعى له أبناء جنسه
فأتى يجرى أبوه إثر أمه
وأخوه وحموه وابن عمه
ملأوا القصر على من كان فيه
وغدا منهم نبيل ووجيه؟
وأذاقوا أهله مر العذاب .
نغصوا الأكل عليهم والشراب .
أكثروا في جسمهم قرصا ولسعا
ورجال القصر خافوا الآن إن هم
قاوموهم غضب السلطان منهم
أيهم يقدر أن يفتح فاه
والبراغيث جميعا في حماه؟

الكل: (منشدين)

أيهم يقدر أن يفتح فاه ،
والبراغيث جميعا في حماه؟

ضفدعة

مرحى! مرحى! لعمري لقد أحسنت!

سيبل

هكذا فليكن حظ كل برغوث فى العالم

براندر

مدوا أصابعكم وأمسكوهم.

ألتماير

لتحى الحرية! ولتحى الخمر.

إبليس

وددت لو أنى أستطيع أن أشرب وإياكم كأسا تكريما للحرية، لولا أن خمرتكم ليست على ما يرام.

سيبل

لا نريد أن نسمع هذه العبارة مرة ثانية.

إبليس

لولا خشيتى أن يتألم صاحب الحانة لأتحفت هؤلاء الضيوف الكرام بهدية من الخمر المعتقد.

سيبل

اثت بها وأنا المسئول.

ضفدعة

أتحفنا بكأس مترعة تنل منا الشكر والثناء. ولا تأنى وبالشىء القليل، لأنى إذا أريد منى أن أكون حكما فلا بد لى أن أملأ فمى وبلعومى.

أَلْتَمَايِر

(همسا) صدق ظننى فهما تاجرا خمر من إقليم الرين.

إِبْلِيْس

انْتُونِى بِمُتَقَب!

بِرَانْدِر

وما تصنع بالمتقَب؟ هل تركت الدنان عند الباب؟

أَلْتَمَايِر

وراءك مخلاة لصاحب الحانة فيها كثير من الآلات.

إِبْلِيْس

(الضفدعة) قل لى أى نوع من الخمر تريد.

ضفدعة

وهل لديك من كل نوع؟

إِبْلِيْس

أترك لكم الخيار؛ وليطلب كل ما يشاء.

أَلْتَمَايِر

ويك يا ضفدعة لقد بدأت تلحق شفقتيك!

ضفدعة

ما دمت تركت لى الخيار؛ فإننى أريد كأسا من نبيذ (الرين)، إذ أحب شىء إلى
هو ما ينبته الوطن المحبوب.

إبليس

(يقترب من ضفدعة ويثقب أمامه فى جانب المائدة ثقباً)

احضروا لى قليلا من الشمع لأصنع منه سدادات.

التهامير

هذه هى الشعوذة بعينها.

إبليس

(مخاطباً براندر) وأنت ماذا تشتهى؟

براندر

أنا أشتهى نبيذ (شامبانيا) بشرط أن يكون من خير ما عصر العاصرون.

(يثقب إبليس أمامه ثقباً ويسده بالشمع)

لا يمكن للإنسان أن يتباعد عن كل شىء أجنبى. فكثيرا ما تكون مشتهيات النفس فى بلاد بعيدة. والألماني الصميم يستثقل كل رجل فرنسى. أما الخمرة الفرنسية فيشربها بشهوة.

سيبل

أما أنا فلا أحب الخمر المرة. ويجب أن تعطينى أطيب الخمرة وأحلاها.

إبليس

(يثقب فى المائدة ثقباً أمام سيبل) ستملاً كأسك بما تهواه نفسك.

التهامير

مهلا أيها السيدان! حسبما لا تسخرا منا.

إبليس

ما يجرؤ أحد أن يسخر من سادة أمثالكم. والآن أسرع وأجبنى، أى صنف من الخمر أقدم لك؟

التماير

أريد من كل صنف؛ فلا تكثر الأسئلة.

(يثقب إبليس أمامه ثقباً ويسده)

إبليس

(مشيراً بيده إشارات غريبة)

تنمو الأعناب على الكروم. والقرون على رأس التيس. وما الكرمة إلا خشب وهذه المائدة الخشبية ستخرج لنا خمرًا.

تأملوا فى عجائب الطبيعة. وآمنوا بهذه المعجزات.

الآن أخرجوا السدادات واشربوا أطيب الخمر.

الكل

(يخرجون السدادات ويملأون أقداحهم بما طلبوه من الخمر)

يا حسنه ينبوعا يفيض علينا وما يغض.

إبليس

لكن احذروا كي لا يسقط على الأرض من الخمر شيء.

الكل

(يشربون مرارا ويفنون)

نحن فى لعب ولهو وسرور لا يريم،

نحتسى الخمر كأننا ألف خنزير عظيم.

إبليس

. (لفاوست) أترى هؤلاء القوم الأحرار! كيف ينعمون ويطربون؟

فاوست

وددت لو تغادر هذا المكان.

إبليس

انتظر حتى تراهم بعد قليل وقد ملكتهم نشوة الخمر ولعب السكر بألبابهم.

سيبل

(يشربون من غير اكتراث، فيقع بعض الخمر على الأرض ويخرج منها لهيب)

المعونة! النار! سعيير جهنم!

إبليس

(مخاطبا اللهيب) اهدأ أيها العنصر الحبيب!

(مخاطبا الجماعة) لم تكن هذه غير شعلة صغيرة من النار المطهرة^(١).

سيبل

ويلك أى شئ فعلت؟ انتظر حتى أريك عاقبة فعلك هذا!

أجهلت من نحن؟

ضفدعة

الهلاك لك إن عدت لمثل هذا الأمر.

(١) أى النار التى تطهر من الذنوب فى عرف النصارى.

ألتماير

أرى أنه يجب أن ينسحب من هنا بسكون.

سيبل

ما هذا؟ أهنا تتجاسر على أن تسلط علينا الأعيك الشيطانية!

إبليس

أسكت يا خابية النبيذ.

سيبل

اخسأ يا عصا الكنيسة! اتجرؤ أن تجابهنا بهذه البذاءة؟

براندر

انتظر وستهمي شأبيب الصفع والضرب.

ألتماير

(ينزع السداة من ثقب الخمر فيخرج منه لهيب)

النار! النار! إنى أحترق.

سيبل

ويل للساحر الفاجر! اهجموا فقد أصبح دمه هدراً.

إبليس

(بشكل جدى).

سحرى وشدة مكرى تضل كل جنان!

كونوا بغير توان فى غير هذا المكان

(يقفون كلهم حائرين ينظر بعضهم إلى بعض)

أَلْتَهَامِير

أَيْنَ أَنَا ؟ مَا هَذِهِ الْأَرْضُ الْجَمِيلَةُ ؟

ضَفْدَعَةٌ

أَحْقُولُ كَرَمَ هَذِهِ الَّتِي أَرَاهَا ؟

سَسِيلٌ

أَهْذِي عَنَاقِيدَ الْعَنْبِ عَلَى مَقْرِبَةٍ مِنْ يَدَيَّ ؟

بِرَانْدَر

وَانْظُرْ تَحْتَ هَذِهِ الْعَرِيشَةِ تَرِ اغْصَانِ الْكَرْمِ عَلَيْهَا أَحْسَنَ الْعَنَاقِيدِ .

(ثُمَّ يُمْسِكُ بِأَنْفِ سَسِيلٍ وَالْآخَرُونَ يُمْسِكُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِأَنْفِ صَاحِبِهِ) .

إِبْلِيسُ

الْآنَ فَلْيَنْكْشِفِ الْغَطَاءَ عَنْ أَبْصَارِهِمْ وَلْيَنْظُرُوا كَيْفَ يَدَاعِبُهُمُ الشَّيْطَانُ .

(يَخْتَفِي مَرُوفَاوَسْتُ فَيَسْتَفِيقُ الْآخَرُونَ) .

سَسِيلٌ

مَاذَا جَرَى ؟

أَلْتَهَامِير

مَا هَذَا ؟

ضَفْدَعَةٌ

أَهَذَا أَنْفَكَ الَّذِي أُمْسَكَتَهُ ؟

براندر

وهذا أنفك ما زال بيدى.

ألتماير

إنها لضربة شديدة أصابت سائر أعضائى. ناولنى كرسيا فقد خارت قواى.

ضفدعة

لكن قل لى كيف حدث هذا الأمر؟

سيبل

وأين هرب الملعون؟ لو لقيته الآن لطيرت روحه من جسده.

ألتماير

بعينى رأيته خارجا من الباب وهو راكب على باطية النبيذ.

أشعر بثقل شديد فى رجلى... (يقترّب من المائدة) ترى لم يزل فى المائدة خمر؟

سيبل

وهل كان الأمر كله إلا خداعاً وغشاً وسحراً باطلاً؟

ضفدعة

ومع هذا فقد خيل لى أنى أشرب نبيذا.

براندر

ثم ما خطب تلك العناقيد.

ألتماير

بالله قل لى! أبعد هذا لا يؤمن المرء بالمعجزات؟

(١)

مطبخ الساحرة^(١)

فى جانب من الغرفة قدر على وفاق تغلى؛ ويتصاعد منها بخار تبدو فيه صور وأشكال شتى
وبجانب النار قدرة تجمع الرغوة من القدر وتراقبها كى لا تطفح، وعلى مقربة منها القرد،
وحوله صفاره تتدفأ، وعلى الجدران وفى أركان الغرفة أدوات سحر غريبة متنوعة.

إبليس وفاوست

فاوست

إن نفسى تمج هذه السخافات وهذا السحر! وعجيب أنك تزعم أنى سأجد شفائى
وسط هذه الشعوذة وفى هذا المكان الكريه!

أألتمس الدواء لدى عجوز شوهاء وأسألها أن تساعدنى بعقاقيرها القذرة كى
ترجع إلى شبابى وأعود أصغر مما أنا اليوم بثلاثين عاماً؟

فيا ولى إن لم يكن لديك وسيلة غير هذى أنال بها مقصدى! لقد عاد اليأس
فاستولى على، وعجيب أن ليس فى العالم ذلك البلسم المنشود، وأن قوة الذكاء البشرى
ما برحت عاجزة عن الوصول إليه.

(١) لم يستطع إبليس أن يؤثر فى فاوست وفى نفسه باقتياده إلى تلك الحانة. فرأى أن لابد من إحداث تغيير
كبير فى حالة فاوست الجثمانية. فأتى به إلى إحدى الساحرات لكى يحصل له منها على شراب يعيد إليه
شبابه؛ ويجعله أصغر مما هو بثلاثين عاماً.

إبليس

أراك رجعت إلى التكلم بعقل وحكمة؛ فاعلم أن هناك واسطة أخرى تصير بها
شابا فتيا. ولكنها بعيدة عما نحن بصده الآن. ومكتوبة في سفر غير هذا السفر
وقصتها قصة غريبة.

فاوست

أريد أن أَلَم بها.

إبليس

الواسطة المذكورة تنيلك بغيتك من غير مال ولا سحر ولا علاج. تنطلق الآن إلى
الحقول وتحمل فأسك على كاهلك. ثم تنهمك في الحفر والحرث. وتحصر ذهنك وفكرك
في دائرة ضيقة. وتتغذى بأخشن الأطعمة وأبسطها. تعيش وسط البهائم كأنك بهيمة.
وتعمل في حقلك وتشقى؛ حتى تحصد ما زرعت. مثل هذه الحياة تعيد إليك شبابك
ولو كنت شيخا هرما مشتعلاً رأسك شيبا.

فاوست

ما تعودت مثل هذا الأمر. ويدي لا تستطيع حمل الفأس. وأما أن أحصر فكري
في دائرة ضيقة فهو ما لا أطيعه.

إبليس

إذن لابد لنا من الاستعانة بالساحرة.

فاوست

لكن ما الذي يدعونا للالتجاء إلى العجوز؟ أما تقدر أنت أن تهبيء هذا العلاج؟

إبليس

ما أحسنها تسليّة لو كانت من السهولة بحيث تتصور! أهون على أن أبني ألف جسر ضخّم من أن أصنع هذا العلاج، إنه عمل لا تكفى فيه المعارف والعلوم، بل لابد للمرء من الصبر والجلد، ويجب أن تظل بجانبه العام بعد العام وتنتظر حتى يختمر على مر الدهور، والزمن وحده هو المساعد على تكوين هذا العلاج فأتى للشيطان هذا الصبر الطويل وتلك المقدرة على الانتظار.

أما جميع ما يلزم لهذا العلاج من المواد الغريبة والعقاقير النادرة فالشيطان يهدى الساحرة إليها، ولكنه أعجز الناس عن صنع الدواء،

(يلتفت إلى الحيوانات)

انظر إلى هذه المخلوقات الجميلة! هذا هو العبد وتلك هي الجارية.

إن سيدتكم ليست فى الدار؛ فأين ذهبت؟

الحيوانات

خرجت من المدخنة؛ وذهبت إلى الوليمة!

إبليس

وهل تغيب طويلاً؟

الحيوانات

بقدر ما نصطلى ونتدفأ.

إبليس

(لفاوست) أما أعجبتك هذه الحيوانات اللطيفة؟

فاوست

هى أبشع وأقبح ما وقعت عليه عيني.

إبليس

أحب شيء إلى هو التحدث إلى أمثالها.

(للحيوانات) ويحكم أجيبوني! ماذا تطبخون فى هذه القدر؟

الحيوانات

نطبخ مرقا للفقراء والمساكين!

إبليس

حقا أرى المحتاجين قد تراحموا على بابكم.

القرود

(يتقدم نحو إبليس متملقا إياه).

أنعم علىّ بمال	فالفقر هدّ حىالى
لو صرت يوماً غنياً	لحزت أقصى المعالى
إن لم يكن لى عقل	فالمال يستر حالى

إبليس

لو كانت الحظوظ تصيب القرودة كما تصيب غيرهم؛ لكان لهذا القرود مطامع وآمال.

(فى هذه الآونة تأتى القرودة الصغار بكرة كبيرة ويلعبون بها ويدحرجونها)

القرود

هذه الدنيا تراها فى هبوط وصعود
ما لها قط ثبات ما لها الدهر ركود
تعد الناس وما صحت لها الدهر وعود
للبلى هذى البرايا للفنا هذا الوجود
سل قبور الأرض كم من أم فيها رقود
قد ثوى الأحفاد والآ باء فيها والجدود
ومتى كنت من التراب فلتترب تعود
فسواء حظك اليوم نحوس أم سعود

إبليس

ولكن ما هذا الغريبال؟

القرود

(يتناول الغريبال بيده) لو كنت لصا لعرفت خفايا أمرك الساعة.
(ثم يجرى إلى القردة ويجعلها تنظر من وراء الغريبال).
انظري من هذا الغريبال! وقولى هل ترين اللص وهل تعرفين اسمه؟

إبليس

(مقتربا من النار) وما هذه القدر؟

القرود والقردة معاً:

يا لك من أبله؟ ألا تعرف هذه القدر؟ أما تعرف هذا الوعاء؟

إبليس

تبا لك من حيوان سيئ الأدب.

القرود

خذ هذه الخرقه واجلس على هذا الكرسي.

ثم يضطر إبليس للجلوس

فاوست

(وكان في هذه الأثناء واقفا أمام امرأة يقترب منها حيناً ويبتعد عنها حيناً ويرى فيها صورة جميلة)

ويحيى ما هذا الذى أراه؟ أى صورة سماوية تبدو لعيني فى هذه المرأة المسحورة؟
أيها الحب! أعرنى أقوى ما لديك من الأجنحة فأطير بهما إلى هذه الفاتنة فأنعم بقلائها
وألذ بقربها!

أرأنى كلما انتقلت من المكان الذى أقف فيه الآن واقتربت من المرأة محاولاً الدنو
من هذه الصورة الماثلة أمامى احتجبت عن ناظرى كأنما تتوارى خلف الغمام.

وما أحلاها صورة وأبهاها! أيمكن لامرأة أن تحوز كل هذا الجمال؟ أم ترى أن
ما فى السموات من الحسن قد تجمع كله فسكن فى هذا الجسم المائل بين يدي؟ وإلا
فأنى لهذا الثرى أن ينبت مثل هذا الحسن الرائع؟

إبليس

ولم لا؟ ألم يشتغل ربك ستة أيام فى صنع هذا العالم؛ حتى أنه هو قد أعجب به
أى إعجاب^(١)؟ وإذا كان الرب أجاد صنع شئ فهل يكون إلا بالغاً الغاية التى ليس
وراءها غاية؟

(١) إشارة إلى ما جاء فى سفر التكوين (الإصحاح الأول) «ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً».

والآن أنعم النظر فى هذه الصورة المليحة. حتى تطفئ غليل قلبك الحائم؛ وأنا أعلم أين أتيك بمثل هذا الكنز الثمين. وسعيد لعمري من ساعده الجد فحظى بعروس كهذه العروس وأحرز مثل هذه اللؤلؤة المكنونة.

(فاوست يديم النظر إلى المرأة متأثراً: وإبليس يلعب بالخرقة التى فى يده).
أنا هنا جالس على هذا الكرسي كالمالك فوق عرشه؛ وهذه الخرقة صولجانى. وما يعوزنى الآن إلا التاج.

(هنا تتناول الحيوانات الصغار تاجاً وتأتى به إلى إبليس).

يا أيها المولى الذى له المقام الأرفع
جنائك بالتاج الذى فيه اللآلى تلمع

ثم يعدون ويثبون والتاج بيدهم فيسقط وينكسر.

الحيوانات

يا ويحه قد انكسر قضى بذلك القدر
لم يغن من ذاك الحذر

فاوست

(محدقا بالمرأة) ويلى لقد كدت أن أجن جنونا.

إبليس

وأنا كذلك قد بدأ رأسى يدور.

الحيوانات

أما علمت أننا أشعر من فوق الثرى
لنا قواف عذبة كأن فيها سكرا
إن لم تجد معنى لها فذاك دأب الشعرا

إبليس

هذا اعتراف بالحقيقة ولئن لم تكونوا أشعر القردة، فأنتم بلا ريب أصدق الشعراء.

فاوست

أحس صدري كأنما أخذت تتأجج فيه النار. فأسرع بنا من هذا المكان.

(هنا تطفح القدر التي أهمل القردة مراقبتها؛ فيفيض ما فيها من النار؛ ويخرج منها لهيب هائل يرتفع إلى المدخنة. فعندها تنزل الساحرة من المدخنة وتخرج من وسط اللهيب وهي تصرخ صراخا مزعجا).

الساحرة

أواه! أواه! بعدا لك أيها الحيوان الملعون وسحقا! وياك أما تعلم أنك بإهمالك القدر كدت تحرق بدني! يا لك من لعين.

(ملتفتة إلى فاوست وإبليس).

وأنتما ما شأنكما؟ وما الذي تريدان؟ وما أنى بكما إلى هنا؟
لأحرقن عظامكما بنيرانى.

(تملا المغرفة من القدر وتثر بها اللهيب على فاوست وإبليس والحيوانات؛ فتتن هذه متائلة)

إبليس

(يضرب بالخرقة التي بيده بعض الزجاجات والأواني فيكسرها)

تحطمي! تهشمي! انكسري نصفين!

هذا جزاؤك أيها العجوز الشمطاء!

(هنا تتراجع الساحرة منزعجة مندهشة)

ويك هل عرفتيني الآن أيتها الهيكل العظمي؟ أعلمت من أنا أيتها الرمة البالية؟

أرأيت أنى أنا سيدك ومولاك. وأسهل على بأن أمحوك من الوجود أنت وعصبتك
وقردتك؟ أما عدت تعظمين هذا الكساء الأحمر؛ ولا هذه الريشة السوداء التى فوق
قلنسوتي؟ وهل أخفيت وجهى عن الأبصار فلم تبصرينى؟ أم تحسبين أنه لابد لى أن
أعرفك بنفسى؟

الساحرة

مولاي اغفر لى إن لم أحسن استقبالك! فما عرفتك لأول وهلة لأنى لم أبصر لك
خوافر الخيل المعهودة؛ ولا الغرابين الذين أُلفنا أن نراهما معك.

إبليس

عفوت عنك هذه المرة. لأننا والحق يقال لم نجتمع منذ زمن بعيد. فاعلمى ويلك أن
الحضارة التى تلوث بها العالم كله قد امتد نفوذها حتى إلى الشيطان؛ فلم يعد أحد
يرانى فى تلك الصورة الشمالية^(١) وقد أصبحت وما لى قرون ولا ذنب ولا مخالب.
أما أقدامى فلا غنى لى عنها. ولكنى خشيت أن ينالنى بعض الأذى من جرائمها فاضطرت
لإخفائها ولبست أرجلا مستعارة كما يفعل الكثير من أبناء هذا الزمان.

الساحرة (وهى ترقص فرحا)

إن أكن قد فقدت حسى ورشدى فلأن النبيل إبليس عندى

إبليس

ويلك لا تسمينى بهذا الاسم.

الساحرة

لماذا ؟ هل ساءك هذا الاسم بشىء؟

(١) الصورة الشمالية هى صورة إبليس ومعه الغرابان؛ وذلك أن سكان شمال أوربا كانوا يزعمون أن لإبليس
غرابين لا يرى إلا وهما معه.

إبليس

هذا اسم قد طرح فى زوايا النسيان؛ وأصبح الناس يعتقدون أن ليس أمر الشيطان إلا حديث خرافة. على أن إنكارهم هذا لم يصلح من شأنهم، ولم يهدم سبيل الرشاد. بل هم، على العكس، أنكروا وجود شيطان واحد فنبغ من بينهم من الشياطين ما لا يدركه العد.

أما أنا فسمينى البارون؛ فأنا اليوم رجل من كبار الفرسان عريق فى الحسب والنسب ويجرى فى جسدى دم الأشراف النبلاء؛ أما إن سألت عن شعاع أسرتى فهأنذا أريك إياه.

(ثم يأتى بحركة قبيحة).

الساحرة

(تقهقه ضاحكة) ها! ها! لعمري إنك لكما عهدتك ماجن فاجر حلو الفكاهة.

إبليس

(لفاوست) يا صديقى تعلم هذه الأمور، فهذه هى الخطة التى ترضى بها الساحرات.

الساحرة

والآن قولاً أيها السيدان ما خطبكما؟

إبليس

جننا نطلب منك كأساً من العصير المعهود. لكننى أسألك أن تعطينا أقدم ما عندك؛ فإن مر السنين يضاعف من قوته.

الساحرة

عن طيب خاطر. هنا زجاجة أعتز بها وأحرص عليها؛ وأنا نفسى أتناول منها جرعة بين أن وأن ولم يعد بها أدنى رائحة كريهة. وسأملأ لكما منها قدحاً.

(همسا لإبليس) لكنك تعلم أن هذا الرجل إن تناول الشراب ولم يكن لديه الاستعداد الكامل فلن تمض ساعة حتى يصبح جثة هامدة.

إبليس

إنه من خيار أصدقائنا؛ وسيستفيد من الشراب أجل فائدة. ويجب ألا نبخل عليه بأجود ما عندنا. فهلمى الآن ارسمى دائرتك المعهودة، واقرئى من العزائم ما تريدين قراءته ثم ناوليه كأساً مترعة.

الساحرة

(ترسم دائرة كبرى؛ وتضم فى داخلها أشياء شتى وأوانى مختلفة؛ فعند ذلك تبدأ الزجاجات والأوانى ترن وتحدث أصواتاً موسيقية؛ بعد هذا تجى الساحرة بكتاب ضخم وتدخل القردة فى الدائرة وتضع الكتاب فوق أحدها. ويمسك الآخرون المشاعل بأيديهم؛ ثم تشير إلى فاوست أن يدخل الدائرة).

فاوست

(لإبليس) أجبنى ويحك؛ ما فائدة هذا كله؟ هذه الأعمال الكريهة والإشارات الجنونية والشعوذة الموقوتة أعرفها جد المعرفة وأبغضها أشد البغض.

إبليس

هذه فكاة لا يقصد منها سوى التسلية والضحك؛ فتساهل فى هذا الأمر. إن العجوز تريد بتلك الهمهمة والتمتمة أن تريك أنها من نطس الأطباء، وأن الدواء سيكون سائفاً والشفاء عاجلاً.

(ثم يدخل فاوست إلى الدائرة كرها).

الساحرة

(تشرع فى قراءة ما فى الكتاب بصوت عال ولهجة متكلفة).

إفهم حديث السحرة	من واحد لعشره
دع اثنتين تذهبا	وخذ ثلاثاً نجبا

وإن أخذت الأربعا	تمسى غنيا أروعا
من ستة خمس	قالت عجوز النحس
وسبعة ثمانية	تدنى الأمور القاصيه
ما التسع إلا واحده	والعشر إلا جاحده
وإن هذا سائر	جدول ضرب الساحره

فاوست

ما أراها إلا تهذى هذيان المحموم.

إبليس

وهل أسمعك إلا النذر اليسير من بضاعتها؟ وأنا أعرف كتابها هذا جد المعرفة فهو ممتلئ مفعم بهذه الترهات؛ ولكم أضعت ساعات من وقتي الثمين أحاول عبثاً أن أتفهم بعض ما فيه.

إن هذه المتناقضات المتقنة ليست سوى ألغاز ومعميات خاوية، يستوى في فهمها الذكى والبليد. والإتيان بمثلها من الفنون التى مارسها الأوائل والأواخر وحيلة تذرعوها بها فى كل زمن وفى كل مصر، فزعموا أن الثلاثة واحد وأن الواحد ثلاثة^(١) فضللوا بالناس؛ وانتشر الباطل وطويت الحقيقة، وتسنى لهم بهذه الوسيلة أن يتقوا فضول السائلين والباحثين إذ ليس فى العالم من يرغب فى مجادلة المجانين ومناقشتهم.

ومن عادة الناس إذا سمعوا كلاماً أن يتوهموا أنه لابد أن يكون ذا مغزى ومعنى وإن لم تدركه أفهامهم.

(١) هنا يشير إبليس إلى عقيدة الثلاث. ولم يكن غوته من المؤمنين بها. راجع شرح كالفن توماس على فاوست (ص ٣٠٧).

الساحرة

إنما العلم خفيٌّ عن عقول الناس جدًّا
نالهُ قوم كسالي لم يعانون فيه جَهْدًا
وكثير العقل محروم وإن كد وجدًّا

فاوست

تبا لها ولما تأتي به من السخافات. لقد أوشك أن يتصدع وبب كائن أسمع عصابة
من المجانين يصرخون كلهم مرة واحدة ويهزون بأسخف الأقوال.

إبليس

حسبك أيتها الساحرة الهائلة! أسرعى فاملئى له الكأس حتى الحافة وأيقنى أنه
لن يمسه منها أقل أذى. فلقد طالما اضطر لأن يسيغ ويبلع كل شيء غريب لكما يحصل
على شهاداته ودرجاته الكثيرة.

الساحرة

(تأمل القدح بالشراب فيتناوله منها فاوست. وحين يدنى الكأس من فمه يبدو بأعلاها لهيب
صغير فيتردد فى الشراب).

إبليس

تشجع ولا تحجم! وعما قليل يمتلئ صدرك فرحا وطربا. أتخشى لهيبا صغيرا بعد
أن بث الشيطان صاحباً وخديناً؟

(يشرب فاوست الكأس فتفك الساحرة الدائرة التى رسمتها ويخرج منها).

إبليس

والآن لنبرح هذا المكان إذ يجب ألا تستريح بعد شرب هذا الدواء.

الساحرة

هنيئاً لك الجرعة التى شربت!

إبليس

إن كانت لك حاجة تريدين قضاءها فحدثينى عنها حين نلتقى فى ليلة والبورغ.

الساحرة

(لفاوست) وهذى أشودة جميلة لو تغنيت بها من أن لأن لأحدث فى صدرك انشراحاً؛
وتركت فى نفسك أحسن أثر.

إبليس

أسرع بنا الآن ودعنى أريك السبيل. لابد أن يسيل العرق على جسدك حتى تسرى
القوة إلى جسمك ظاهره وباطنه ويعود إليك شبابك الناضر. وأمامك فيما بعد متسع
من الوقت للراحة والكسل. وسترى نفسك فى لمحة الطرف وقد اتقدت فى جسدك جمرة
الشباب وجرى فى عروقك دم الصبى.

فاوست

دعنى لحظة ريثما أنظر مرة فى تلك المرأة! إن مغنطيس حسن تلك المرأة
يجذبنى بقوة لا تقاوم.

إبليس

لا داعى لهذا! ويعد قليل سأريك أجمل نساء العالمين فتراها وجها لوجه.
(همساً).

لعمري بعد أن سرت حميا ذلك الشراب فى جسدك. فكل امرأة تراها حورية فتانة.

(٧)

طريق

فاوست - ومرغريت مارة

فاوست

أيتها الحساء الشريفة الحسب! أتأذنين لى أن أرافك إلى منزلك؟

مرغريت

ما أنا حسناء ولا شريفة الحسب. وفى قدرتى أن أذهب وحدى إلى البيت.

(ثم تتخلص منه وتمضى).

فاوست

تباركت النهم! أى حسن هذا الحسن وأى ملاحاة قد صبت على هذه الطفلة!

وهل وقعت عين على مثل هذا الجمال؟

يا عيون المها وطهر العذارى	قد أسرت النهى ففكى الأسارا
يا خدودا تنير وسط الدياجى	وترد الليل البهيم نهارا
يا شفاه المرجان هلا تبسمت	لصب فى سحر حسنك حارا
يا شفاه الصدر الكليم أنلى	مغرما لا يطيق عنك اصطبارا

أنفورا منى ولله ما أحلاك لما أكثرت منى النفارا
افعللى ما أردت لابد لى منك فأقضى من حبك الأوطارا
يدخل إبليس

فاوست

اسمع! لبد أن تأتيني بهذه البنت!

إبليس

أى بنت تعنى؟

فاوست

اللى عرت من هنا منذ قليل.

إبليس

تلك الفتاة؟ لقد كانت آتية من الكنيسة حيث قال لها القسيس إنها بريئة من كل
ذنوب وإن خطاياها قد غفرت. لله أبوها! لقد مررت بها وهى راکعة أمام القسيس:
فألفيتها طفلة نقيية طاهرة؛ ذهبت للاعتراف وما جنت فى عمرها ذنبا؛ ولا خطرت لها
المعصية ببال.

مثل هذا الملك ليس له عليه سلطان.

فاوست

ولم لا ؟ أليست قد بلغت الحلم؟

إبليس

إنك تتكلم كأنك من كبار الفاسقين؛ الذين يقدمون على اقتطاف كل زهرة وجنى كل ثمرة. وهتك كل ستر وانتهاك كل حرمة؛ لا يباليون بعفاف أو عصمة ولا يراعون فى شيء إلا ولا ذمة. لكن لكل شيء حد؛ ومثل هذه الأمور لا تجوز فى كل حين.

فاوست

يا سيدى ومولائى الشريف العفيف؛ دعنى من عواطفك ونصائحك؛ وأقول لك باختصار؛ إن هذه الفتاة المليحة إن لم تبت بين ذراعى الليلة فهذا فراق بينى وبينك. ولن أرى وجهك بعد اليوم أبداً.

إبليس

فكر ويحك فيما يعترض مثل هذا الأمر من العقبات أقل ما يلزمنى من الزمن أربعة عشر يوماً حتى أستنبط الحيلة التى أجمع بها بينكما.

فاوست

لو أنى أستطيع أن أهدأ سبع ساعات، لما احتجت إلى شيطان مثلك كى يساعدنى على إغواء مثل تلك الفتاة الساذجة.

إبليس

ما شاء الله! أراك تتكلم كأحد أبناء فرنسا. لكنى لا أرى داعية لانفعاك هذا. تدبر الأمر ملياً! أى فائدة تجنيها وأى سرور تشعر به حين تنال لذتك لقمة باردة من غير عناء ولا مشقة؛ شتان بين مثل هذا السرور وبين ذلك الفرح الذى يملأ صدرك حين ترى الصيد بعيد المنال صعب المرام فتتنصب له الشراك ثم ترصد وتترقب؛ حتى إذا حان الوقت وعلق الظبى بالحبال؛ وثبت وثبة المنتصر واقتطفت الثمرة الحلوة وهصررت إليك الغصن الرطيب.

فاوست

لى من قوة الشهية ما يغنى عن كل هذا .

إبليس

أقول لك قولاً لا مزح فيه ولا جدل؛ إنه يستحيل علينا أن نبلغ من تلك الحسناء مرامنا بالسرعة التى تتوهمها؛ الشدة والعنف لا يجديان نفعاً؛ وإنما يوصلنا المكر والاحتيال إلى بغيتنا المنشودة.

فاوست

انتنى بشيء نفيس مما يليق إهداؤه للملائكة. ثم سر بى إلى كناس ذلك الظبى. وأرنى مستقر تلك الفاتنة. وهناك فلتختلس لى من بين أثوابها وأمتعته منديلاً أو رباط جورب أو أثراً أدخره وأحرص عليه.

إبليس

لكى أبرهن لك على شدة إخلاصى وأنى لا ألو جهداً فى إرضائك سأذهب بك اليوم إلى منزلها وأدلك على غرفتها .

فاوست

وهل أراها وألتقى بها؟

إبليس

لا! إنها ستكون فى بيت جارتها؛ وفى أثباء غيابها يمكنك أن تخلو بنفسك فى حجرتها فتنشق من هوائها وتتنسم عبيرها، وصدرك ملؤه الأمل بما ستتعلم به فى المستقبل.

فاوست

وهل نذهب الآن ؟

إبليس

لم يحن الوقت بعد.

فاوست

يجب أن تأتيني بهدية نفيسة. (يخرج)

إبليس

أهدية الآن ولم نكد نخطو الخطوة الأولى؟ حييت من بطل مقدام! إن مساعى فيك
ستكلل بالنجاح.

إنى أعرف أمكنة شتى كنت قد خبأت فيها منذ زمن بعيد كنوزا نادرة.
والآن فلاستجمع خاطرى ولأفكر قليلا.

(يخرج)

(٨)

فى المساء

حجرة صغيرة نظيفة

(مرغريت تضفر شعرها ثم تعقسه)

مرغريت

لن أتردد فى بذل الشيء الكثير لكى أعرف من ذلك السيد الذى قابلنى اليوم فى الطريق، لقد كانت تلوح عليه سيما النجابة والنبيل، وقد طالعت فى جبينه أنه من بيت شريف المحتد كريم العنصر، وإلا لما كان جريئاً بهذا القدر.

(تخرج)

(يدخل إبليس وفاوست)

إبليس

ادخل بسكون وامش بتؤدة.

فاوست

(بعد قليل) أرجو أن تغادرنى وحدى.

إبليس

(متأملًا فيما حوله) لعمري ليس لكل فتاة ما لها من حب النظافة والإتقان.

(يخرج)

فاوست

(ناظرا حوله) مرحبا بك يا ضياء الشفق! وأهلا بك إذ تسكب نورك على هذا المسكن
الأمين بل هذا الهيكل المقدس.

وأنت أيها الهوى المبرح! أيها العذاب العذب! لقد شغفت منى قلبي كاد يقتله حر
الظما لولا قطرات من ندى الأمل.

أى سكون وأى صفاء قد خيما على هذه الدار! وأى تنسيق بديع وأى قناعة ورضى!
وإن أعجب فعجبي لهذا الرخاء وسط الفاقة والسعادة التى تملأ هذا السجن.

(يرتقى على كرسى كبير من الجلد بجوار السرير)

أجلس الآن على هذا الكرسى الذى طالما كان متكا للأباء والأجداد! يفتح لهم
ذراعيه مرحبا بهم فى أيام سرورهم أو محنتهم. وكم من مرة تبوأ رب الدار هذا العرش.
وأقبل أبنائه وأحفاده فأحذقوا به من كل جانب. ورب ليلة جاءت حبيبتي إلى هذا
الكرسى وجئت بين يدي جدها ولثمت كفه الذابلة وقلبها يطفح إجلالا وشكرا على هدية
أهداها لها فى يوم عيد أو تحفة حباها بها.

حييت أيتها الفتاة! إننى لأشعر بروحك، روح القناعة والتدبير وكأنته يهمس من
حولى، ذلك الروح الذى يلهمك كل يوم كيف تقومين بتنسيق هذا المنزل وتجميله.
ويعلمك كيف تبسطين الغطاء على المنضدة بهذا الإتقان، وتنقشين فى الرمل الذى تحت
قدميك رسوماً وأشكالاً^(١).

بوركت أيتها اليد العزيزة، التى تحاكي يد الآلهة، لقد صيرت هذا الكوخ الحقيق
قصرًا من قصور السماء. (يزيح سترا من أستار السرير)

(١) إشارة إلى عادة نثر الرمل فى الغرفة (حين لا توجد أبسطة) وكان يعد من زيادة الإتقان ألا ينثر الرمل
بغير نظام بل بحيث يكون أشكالا ورسوماً.

هذا المنظر يثير فى نفسى مزيجاً من الرهبة والفرح. هنا يحلو لى البقاء ساعات طوالاً!

على هذا السرير تسنى لك أيتها الطبيعة أن تتعهدي هذا الملك الكريم وسط الأحلام الهادئة والخواطر البريئة.

هنا مضجع تلك الطفلة! وفوق هذا الفراش امتلأ صدرها الرقيق بحرارة الحياة. هنا تعهدتها العناية وكلاستها حتى نمت وترعرعت، فإذا هى زهرة ملؤها الحسن والطهارة.

وأنت يا فاوست! أى ريح قذفت بك إلى هذا المكان الطيب؟ أى خطب خطبك. وأى غرض جئت تنشده هنا، ألعلك الآن قد بدأت تحزن وتندم. فيا ويحك يا مسكين! لقد تبدلت وتغيرت حتى استحال على أن أعرفك.

أفى هذه الغرفة هواء سحرى قد أثر فى أبلغ تأثير؟ لقد جئت هنا ولا هم لى إلا أن ألتذ وأتمتع، والآن لا أشعر إلا بمهجة تنوب وجدا. وفكر تطير به الأحلام كل مطار. فهل نحن من الضعف بحيث نتغير ونتحول كلما تغير الهواء وتبدل؟

ويلى لو دخلت الساعة وداهمتني وأنا فى حالتى هذه فما يكون خطبى وكيف أكفر عن ذنبى! اللهم لا أرى إلا أن أركع أمامها وأكب على قدميها وأنوب بين يديها خجلاً ووجداً.

(يدخل إبليس)

إبليس

اسرع بنا فإننى أراها آتية.

فاوست

هلم بنا ولن أعود بعد اليوم أبداً.

إبليس

أتيتك بصندوق لا بأس به. فلنضعه بتؤدة حيث تحفظ ثيابها، وإنى أقسم لك أنها سيطير عقلها سروراً حين ترى ما فى هذا الصندوق. فإن فيه من التحف مايكفى بعضه لاستلاب فكر الكثيرات من النساء.

فاوست

لست أدري هل أقدم على هذا الأمر!

إبليس

أتردد؟ ألعك تريد أن تستبقى الحلى لنفسك، فلئن كانت هذه نيتك فما كان أحراك أن تنتظر إلى الصباح وتوفر على كل هذا العناء الذى قاسيته والوقت الذى ضيعته. على أنى لا أظن البخل قد بلغ بك هذا الحد. أما ترى ما أكابد وأعانى فى سبيل خدمتك.

(يضع الصندوق داخل الخزانة ويغلقها).

والآن أسرع بنا، ولن يمضى زمن طويل حتى تحرز تلك اللؤلؤة وتنعم بها كما تشتهى. لكن ما بالك عابسا مقطب الجبين كأنك داخل إلى غرفة الدراسة وقد تمتلئ أمامك الطبيعة وما وراء الطبيعة!

(يخرجان)

(تدخل مرغريت وييدها مصباح).

مرغريت

ما بال هواء الغرفة حاراً ممتلئاً بالبخار!

(تفتح النافذة)

على أن الهواء فى الخارج ليس حاراً، أشعر بشيء من الضيق لا أعرف له سبباً. عسى أن تعود الآن أُمى، فإن قلبى قد استحوذ عليه الرعب وما أنا إلا فتاة ضعيفة القلب.

(تغنى وهى تخلع ثيابها)

كان في أرض (طلا)^(١) ملك همام
طاهر القلب وفى بالذمام
زوجه أهدت إليه قدحا _____ إذ رأت أن قد دنا منها الحمام
أخذ الكوب بصمت وسكون
ورآها وهي فى أيدي المنون
منظر تدمى لمآه العيون _____ «رب عدل منك ! ما تقضى يكون»
كلما أدركه وقت الشراب
ملأ الكوب بحزن واكتئاب
هاجت الذكرى جواه فجرى _____ دمعته بين انسجام وانسكاب
ثم حال الدهر والدهر يحول
ورأى أيامه كادت تزول
وأنته رسل الموت، وهل _____ دولة فى الناس إلا استدول ؟
فدعا أبناءه يوما وآله
وحباهم ملكه طرا وماله
قال : مُلكي كله اليوم لكم _____ إننى قد حان حينى لا محالة.

(١) اسم أطلقه القدماء على جزيرة أو جزر فى شمال غربى أوروبا . ولعلها جزيرة آيسلندة وكانت فى عرفهم هى نهاية العالم فى تلك الناحية. (Ultima Thule).

واتركوا لى ذلك الكوب، فقد
طالما أذهب عن قلبى الكمد
لا يلامس بعد موتى شفة لا ينله بعد أن أقضى أحد،
ورمى فى اليم ذاك القدحا
وانقضى عهد صباه وانمحي
لم يذق قطرة خمر بعدها وصحا عنها ولأياً ما صحا
وغدا الموت أشهى ما يروم
فهو يشفى قلبه الدامى الكلوم
والردى أقصى أمانى تعس عيشه الدهر عذاب وهموم.

(تفتح خزانة الثياب لتضع ثوبها فتجد صندوق الحلى).

يا للعجب! من أين أتى هذا الصندوق، وقد أحكمت إغلاق الخزانة، إنه لأمر عجاب!
ليت شعرى ماذا بداخله؟ أظن أحد الناس استعار من أمى نقوداً وتركه لدينا رهناً؛
وأرى مفتاحاً صغيراً معلقاً به فلأفتح لأرى ما فيه.

رباه! ما هذا الذى أراه؟ إنى طول عمرى ما شاهدت شيئاً كهذا! هذه الحلى يليق
أن تلبسها أشرف النساء فى يوم عرسهن. ما أشد شوقى لمعرفة صاحبة هذا الكنز
الثمين! عجياً! لو تقلدت هذا العقد هل يلائمنى؟

(تترين بما فى الصندوق من الحلى وتقف أمام المرأة).

أه لو كان هذا القرط البديع لى. إذن لكان لى مظهر غير هذا المظهر. وماذا ينفع
الشباب والجمال حين يكون الجيد عاطلاً. والجسد عارياً من كل زينة. مسكينة من لم
يكن لها مثل هذه الحلى! إن مدحها أحد أو أثنى على جمالها فهو إنما يتحسر عليها،
ولا عجب فما يجذب القلوب، ولا يسحر الأبصار إلا الذهب اللامع والجوهر البراق.
والويل لنا معشر الفقيرات المعوزات.

(٩)

متنزه

فاوست يتمشى وهو يفكر - ثم يدخل إبليس

إبليس

أقسم بالعشق المدنس! وبالعناصر الجهنمية المخربة! ويا ليتى أعرف ما هو أنكى
وأنكر من هذه الأشياء حتى أسب وألعن كما أشتهى!

فاوست

ماذا جرى؟ لقد انقلب كيائك ومسخت سحتك! وما رأيت طول عمرى صورة أقبح
من صورتك الآن.

إبليس

كنت أود أن يخطفنى الشيطان من هذا العالم لولا أنى أنا الشيطان!

فاوست

إنك تهذى هذيان المجانين الكبار! كأنما اختل دماغك وطار صوابك!

إبليس

تُصور الكارثة التى نزلت!

الكنز الثمين الغالى الذى أهديناه لمرغريت بات الآن فى حوزة قسيس! فإن الأم لما تناولته بيدها ونظرت إليه داخلها الرعب، وملأ قلبها الشك. وهى امرأة حاسة الشم لديها قوة؛ وأنفها ملصق أبداً بكتاب الصلاة. وهى تشم بأنفها كل ما تقع عليه عينها. لتعلم أطاهر هو أم نجس. فحين رأت الصنّيديق، أدنت منه أنفها لتشمه؛ فعلمت عند ذلك علم اليقين أنه ليس من الطهارة بمكان عظيم. فقالت لفتاتها: «يا ابنتى! المال الحرام عذاب للروح وتدنيس للجسم؛ ورأى أن نقرب هذا الكنز للعدراء الطاهرة فنريح من ورائه المن والسوى.

فلما سمعت مرغريت هذه العبارة قطبت قليلا؛ كأنما أرادت أن تذكر أمها بأن الشيء، إن كان هدية، فهو مقبول على علاقته؛ وأن من يهدى مثل هذا الذخر لا يكون إلا ممن امتلأ قلبه بالتقوى والإيمان.

لم تبال الأم بنظرات البنت. وأرسلت فاستدعت القسيس. فلما حضر وسمع القصة أعجبته؛ وظهر على وجهه السرور وقال: يا ابنتى هكذا يكون التدين والصلاح. ومن قاوم الشهوة وحارب المعصية نال الفوز والنجاح.

أما الكنيسة فلن يضرها هذا. لأن لها معدة قوية. وكم ابتلعت دياراً وأقطاراً وأكلت الممالك بعد الممالك؛ فما اشتكت من التُّخمة يوماً ولا من عسر الهضم. الكنيسة وحدها يا ابنتى العزيزتين تستطيع أن تهضم المال الحرام.

فاوست

هذا أمر شائع، وكثير من اليهود والحكام قد استطاعوا هضم المال الحرام.

إبليس

بعد هذا تناول القسيس تلك العقود والخواتيم ورمى بها فى جيبه بسكون كأنها أشياء تافهة حقيرة. ولم يبد على وجهه من الاهتمام أكثر مما لو كان الصندوق مملوءاً نقلا. ثم وعدهما الأجر من عند الله فتلقتا هذا الوعد بكل خشوع وتقوى!

فاوست

ومرغريت؟

إبليس

استحوذ عليها الإضطراب فما تدري أى شىء تصنع؛ فهي تقضى الليل والنهار
وهى تفكر حيناً فى تلك الحلى النفيسة وأحياناً فيمن أتى بتلك الحلى.

فاوست

إن حزنها يؤلنى جداً. فالتمس لها حلياً أخرى أحسن من الأولى. لأنك فى المرة
الأولى لم تأت بالشىء الكثير.

إبليس

أنت تحسب هذا الأمر ألعبية هينة.

فاوست

لا تطل الجدال. وافعل ما قلت لك! فلتهد لها حلياً جديدة ثم تذهب بعد ذلك إلى
جارتها! ولتكن شيطاناً ماهراً.

إبليس

ليكن ما تريد وسأفعل هذا كله عن طيب خاطر.

(يخرج فاوست)

إبليس

يا عجباً لهذا العاشق الأبله! يود أن ينسف الشمس والقمر والنجوم جميعاً لو كان
فى هذا بعض تسلية لمعشوقته.

(١٠)

بيت الجارة «مارتا»

مارتا (وحدها)

مارتا

سامح الله زوجي على ما ارتكبه من السيئات نحوى! أيجمل به وأنا زوجته المخلصة
الوفية، أن يغادرني في هذه الدار وحدي؛ أقضى السنين الطوال في وحشة وعذاب
فريسة الهموم والشجون، وهو ما برح يسبح في مناكب الأرض ويتنقل من بلد إلى بلد،
دون أن أخطر بباله لحظة. وماذا أجزمت وقد كنت مشغوفة حباً به وما أذكر أنى أسأت
إليه يوماً ما. (تبكى)

ويلي! ألعلة قد مات! فمن لى بشهادة تثبت وفاته.

(تدخل مرغريت)

مرغريت

سيدتى مارتا.

مارتا

مرغريت! ماذا جرى؟

مرغريت

لا تكاد رجلاى أن تحملانى. قواى خائرة وقلبى مضطرب. إنى وجدت صندوقاً
آخر من خشب الآبنوس مملوءاً بالهدايا السنوية والتحف البديعة ويفوق الأول
ألف مرة.

مارتا

حذار أن تخبرى أمك هذه المرة لئلا تحمله إلى القسيس فيصنع به ما صنع
بالصندوق الأول.

مرغريت

آه! انظرى ما أحلاها!

مارتا

(وهى تقلد مرغريت بعض الحلى) لله ما أسعدك من فتاة!

مرغريت

لكنى ويا للأسف لا أقدر أن أظهرها للناس لا فى الطريق ولا فى الكنيسة.

مارتا

تعالى إلى كلما سنحت لك الفرص ! وهنا - فى هذا المكان الأمين - تتحلين بهذه
الزينة الجميلة؛ وتسيرين متبخثرة أمام المرأة؛ وفى هذا ما يسر قلوبنا ويشرح صدورنا؛
ثم إن حانت لنا فرصة فى يوم عيد فأظهرى للناس تلك الحلى قليلا قليلا. أولا تقلدين
جيدك هذا العقد الصغير. ثم تحلين أذنك بهذا القرط الدرى. ولن تعوزنا حجة نقنع
بها أمك كي لا تدخل الريبة قلبها.

مرغريت

وهل تعلمين من أهدى لنا هذين الصندوقين؟ إن قلبي مملوء قلقاً واضطراباً لهذا الأمر الخارج عن المألوف.

(يطرق الباب)

مرغريت

رباه! أهذه أمي؟

مارتا

(ناظرة من وراء الستر) لا . إنه رجل أجنبي! دخل.

(يدخل إبليس)

إبليس

ألتمس منكما الصفح عن جرأتى إن كان فى وجودى ما يعكر صفاء اجتماعكما .

(يتراجع أمام مرغريت مظهرا كل تعظيم وإجلال).

أردت السؤال عن سيدة مارتا شوردين.

مارتا

أنا هى! فهل لديك ما تقوله لى؟

إبليس

(همساً لمارتا) أما وقد عرفتك فلاكتف بهذا اليوم، لأنى أرى عندك زائرة ذات حسب رفيع. فسامحينى على هذه الهفوة، وسأعود إليك بعد الظهر.

مارتا (بصوت عال)

أعلمت يا مرغريت أن هذا السيد يحسبك من بنات الأشراف.

مرغريت

هذا كرم منه وحسن ظن. وما أنا إلا فتاة فقيرة، وهذه الحلى ليست لى.

إبليس

وأين تذهب الحلى بجانب هذا اللحظ الفاتك والحسن الفاتن؟ ما أسعدنى الآن بوجودى هنا!

مارتا

لكنك لم تخبرنى أى شىء أتى بك؟

إبليس

ليتنى كنت قادراً أن أحمل إليك نبأ خيراً من الذى جئت به. لكن ما الذنب لو تعلمين ذنبى. إن زوجك المرحوم توفاه الله وهو يقرئك السلام.

مارتا

مات؟ هل ماتت تلك النفس الزكية؟ ولى قد مات زوجى فيا لتعسى!

مرغريت

لا تحزنى أيتها العزيزة ولا تجزعى!

إبليس

وما كما القصة المحزنة.

مرغريت

إنى أبغض الحياة من أجل هذه الأحزان؛ ومن مثل هذا الرزء يقضى على غمًا.

إبليس

كل صفاء يعقبه كدر، ورب عسر بعده اليسر.

مارتا

قص على حكاية موته.

إبليس

لقد دفن فى بلدة بادوا، وهناك استراحت عظامه راحة أبدية. فى بقعة مباركة مطهرة فى جوار القديس أنطونيوس.

مارتا

ألم تحضر معك شيئاً آخر منه؟

إبليس

أجل! أحمل إليك رسالة جلية كلفنى إبلاغها إياك. فهو يستحلفك أن تسعى لدى القسيس لكى يقرأ له ثلاثمائة صلاة. وعدا هذا فإن المسكين لم يترك شيئاً قط.

مارتا

ماذا تقول؟ أما أعطاك هدية توصلها إليّ؟ ألم يترك لى تذكّاراً لو حلية أدرها من بعده؛ لعمري ما هذا دأب الرجال. فإن أحقر العمال ليختزن مثل هذا الشيء فى حقيبته ويحرص عليه الحرص كله. مفضلاً أن يموت جوعاً على أن يفرط فى حقوق زوجه.

إبليس

يعز على أيتها السيدة الكريمة أن أرى حزنك وجزعك . لكنه لم يكن - علم الله -
من المبذرين. وقد ندم المسكين أشد الندم على هفواته وزلاته. وتولاه الحزن الشديد
على جده العاثر وطالعه المنكود.

مرغريت

واحرّ قلبي لبنى الإنسان البائسين! سأصلى ألف مرة على روح ذلك المسكين.

إبليس

أولى لك - وأنت ربة هذا الحسن الفتان - أن تبادرى إلى الزواج.

مرغريت

لا، هذا أمر غير ممكن بعد.

إبليس

ولم لا؟ إن لم يكن حليلاً فليكن مؤقتاً خليلاً. ولعمري إنه لمن أكبر النعم أن يضم
إنسان مثل هذا الجسم البديع بين ذراعيه.

مرغريت

ليس مثل هذا من عادة هذه البلاد.

إبليس

لكنه رغم هذا أمر كثير الحدوث.

مارتا

أتمم القصة.

إبليس

كنت بجانبه وهو على فراش الموت. وما كان فراشه القصر إلا مزيجاً من روث البهائم وأصفاث من الحشيش العفن. فرحمه الله. لقد مات كما يموت المسيحى الصميم، موقناً أن أمامه حساباً عسيراً.

تذكر المسكين وهو يحتضر أحبابه وأهله فألته الذكرى. وصاح بى: «إنى لأمقت نفسى على ما قصرت فى واجبى نحو زوجتى العزيزة. فتعسا لى من شقى بأئس! إن تذكر هذا الإهمال يقتلنى ألماً وندماً. فىا ويلى إن لم تكن زوجتى قد سامحتنى وعفت عنى».

مارتا

(باكية) رباه! إنى سامحته وعفوت عنه منذ زمان.

إبليس

ثم قال . «لكن يعلم الله أن زوجتى قد أذنبت إلى أكثر مما أذنبت إليها».

مارتا

كذب وافتراء! يا ويحه أيكذب وهو على باب القبر؟

إبليس

إن لم يخطئ فقد أصابه وهو فى نزعات الموت شىء من الخرف.

قال لى: «إنى قضيت حياتى فى جد وسعى لكى يتسنى لى أن أتيها بالأطفال ثم بالقوت وتأبى على بعد هذا أن أكل لقمتى فى راحة وسلام».

مارتا

وهل نسى إفراطى فى الحب وإخلاصى البالغ حد النهاية. هل نسى أنه كان يعذبنى ويعينى فى الليل والنهار؟

إبليس

لا. إن هذا لم يبرح من فكره لحظة.

وقد حدثنى قائلا: «إنى لما غادرت جزيرة مالطة كنت لا أنفك أدعو لزوجتى ولأبنائى فى كل صلاة. وقد أسعدنا الجد. وبسم لنا الدهر. فصادفنا سفينة تركية مشحونة بالذخائر الثمينة والكنوز الغالية فكانت لنا غنيمة باردة فإستولينا عليها وأخذ كل ذى حق حقه. فنالنى حظ وافر.

مارتا

أصحيح ما ذكرت؟ أترأه قد خبأ ذلك الكنز فى موضع ما؟

إبليس

من يدرى ماصنعت به المقادير. كان زوجك يجوب بلدة نابولى فريدا غريباً فأحب فتاة حسناء كانت تصاحبه وترعى شئونه وأبدت له من المودة والحب ما جعله يذكرها حتى الممات.

مارتا

تباً للمجرم! سرق مال أبنائه وجر عليهم الفقر والشقاء. وعرضهم للحاجة القاتلة بمسلكه الشائن وعمله الدنىء.

إبليس

حسبه أنه قد مات. ولو كنت مكانك للبت عليه الحداد عاما كاملا: ويحثت فى أثناء هذا العام عن عرس آخر.

مارتا

هيهات! لن أجد فى العالم زوجاً ثانياً يحاكى زوجى الأول. فقد كان عذب الروح حسن الطباع؛ وهل كان عيبه غير أنه يحب السياحة فى البلاد البعيدة، ويكثر من شرب الخمر ولعب القمار ومغازلة النساء الأجنيات؟

إبليس

أحجب بهذا الطبع لو كان صاحبه يفض الطرف عنك كما كنت تغضين النظر عنه.
ولو كنت ترصين الآن مثل هذا الزوج لكنت أول الخاطبين.

مارتا

بالله أتمزح أم تقول الجد؟

إبليس

(لنفسه) لم يبق إلا أن أغادر هذه الدار. فإنها تريد حتى الشيطان أن يتقيد بكلمة قالها.

«ملتفتاً إلى مرغريت» وأنت يا ابنتي كيف حال قلبك؟

مرغريت

ماذا تعنى أيها السيد؟

إبليس

(لنفسه) ما أظهر هذه النفس وما أطيها!

(بصوت عال) فى رعاية الله يا سيدتى!

مرغريت

فى رعاية الله.

مارتا

لكن قل لى قبل أن تذهب! أنا لابد لى من الحصول على شهادة مكتوبة تنبئ عن اليوم الذى مات فيه زوجى والمكان الذى دفن فيه. فإنى امرأة تحب النظام والترتيب فى كل شىء وأريد أن ينشر نبأ وفاته فى الصحيفة الأسبوعية.

إبليس

ويحق لك هذا أيتها السيدة، وسأتي برفيق لي شهد معي وفاة زوجك -
وسنتقدم بالشهادة أمام القاضي . وفى شهادة اثنين جلاء للشك وإظهار للحقيقة.

مارتا

إذن أحضره هنا.

إبليس

وهل نراك هنا أيتها الحسنة؟ إن صديقي فتى ظريف قد طاف أنحاء العالم؛
وهو يبدي لكل فتاة منتهى الأدب واللفظ.

مرغريت

إنى أحمر خجلاً أمامك أيها السيد.

إبليس

مثلك لن تحمر خجلاً أمام ملوك الأرض جميعاً.

مارتا

سوف ننتظرك كلتانا هذا المساء بالحديقة التى خلف منزلى.

(١١)

فى الطريق (فاوست وإبليس)

فاوست

هل قضى الأمر على ما نشتهى؟

إبليس

حبذا جمرة غرامك المشتعلة! عما قليل تمسى مرغريت فى حوزتك. واليوم ستراها
فى بيت جارتها مارتا، تلك المرأة التى ما خلقت إلا لتكون قوادة. لكنها تطالبنا بشىء.

فاوست

ما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

إبليس

تطلب منا أن نشهد أن زوجها المرحوم قد انتقل من العالم الفانى ونرى فى قبره
المقدس ببلدة بادوا.

فاوست

فكرة حسنة! لكن لابد لنا أولاً أن نساغر إلى تلك البلدة.

إبليس

يا لهذه السذاجة! الأمر أيسر بكثير من هذا. فما عليك إلا أن تؤدي الشهادة من غير أن تعلم عن حقيقة هذا الأمر شيئاً.

فاوست

إن لم يكن لديك رأى أحسن من هذا فقد فسد التدبير.

إبليس

يا لك من قديس ورع! أهذه أول مرة في عمرك شهدت فيها زوراً وافتراء؟ ألم تكن تتكلم في سالف عمرك عن الإله الخالق وعن العالم وما انطوى عليه من الأسرار. وعن الإنسان وما يدور بفكره أو يجيش بصدرة.

ألم تكن تعرف هذا كله للناس وتصفه بكل جرأة ووقاحة. وأنت لو راجعت ضميرك لحظة لرأيت أنك لا تعلم عن هذه الأمور أكثر مما تعلم عن وفاة صاحبنا زوج مارتا.

فاوست

إنك كنت وما زلت أكذب الكاذبين وأكبر المضللين.

إبليس

أجل أنا وحدي الكذاب! أما أنت حين تلتقي غداً بمرغريت وتنصب لها حبانك وتجذبها بسحرك وحيلك وتقسم لها أنك مشغوف بها حباً.

فاوست

وهذا صدق لا مرية فيه.

إبليس

أجل ثم تحلف بعد ذلك أنك لن تحول عن هواها مدى الدهر. وأن وفاءك باق على مر السنين، وحبك أبدي دائم وعاطفتك فوق كل عاطفة. فهذا أيضا كله صدق لا ريب فيه.

فاوست

دع عنك هذا! أما إنى لأشعر بحب يتأجج فى صدرى وأحس عاطفة قد طغت على فكرى ولبى. وقد حرت كيف أسمى تلك العاطفة التى ملكت قىادى وسرت فى لحمى ودمى. فلما أعتنتى الحيلة ولم أجد فيما نعلمه من الألفاظ والعبارات كلمة أنعت بها ذلك اللهب الذى يتقد فى جوانحى وصفته بالأبدي الدائم السرمدى. وهل هذا يشبه أكاذيبك وأباطيلك الشيطانية.

إبليس

إذن أنا مصيب.

فاوست

لا تطل الجدل وأشفق على رثتى! ما على من يريد الانتصار فى جدال غير أن يكون طويل اللسان والنفس. فهلم بنا فقد سئمت المناقشة. وإن أردت أن يكون الحق لك فليكن.

(١٢)

حديقة

مرغريت مسكة بذراع فاوست - وخلفهما مارتا وإيليس

وكلهم يسيرون جيئة وذهابا

مرغريت

هيهات! إنى أعلم يقينا أن هذا اللطف الذى تبديه نحوى وهذا التواضع والتنازل لمخاطبة مثلى ليس إلا لتناهيك فى الكرم. ومن عادة السائحين أنهم يتلففون بكل من يلاقونه فى سبيلهم. وهيهات أن يكون لك أدنى تسلية فى فتاة جاهلة مثلى.

فاوست

إنى لأجد من أنسب والطرب فى النظرة الواحدة من طرفك وفى الكلمة الساحرة من ثغرك ما لا أجده فى حكمة العالم أجمع (يقبل يدها).

مرغريت

بالغت فى التلطف. أترضى أن تقبل هذه اليد على ما بها من الخشونة والقبح؟ وما من عمل شاق لم أعمله بيدي هاتين. ناهيك أن أمدى شديدة التدقيق والتفتير.

(يمضيان إلى ناحية أخرى)

مارتا

وأنت أيها السيد أما تنفك في سفر وترحال.

إيليس

مكره أخوك لا بطل. إن حرفتنا الشاقة ومشاغلنا الجمة لا تتركنا لحظة في راحة وأمان. وكم من بلد طيب يهواه القلب، وترتاح له النفس، أرغمنا جدناً العاثر على أن نتركه أسفين محزونين.

مارتا

ربما قدرتم أن تعملوا هذا في أيام الشباب وزمن الطيش. فتسيحون في العالم وتتنقلون عن بلد إلى بلد. أما إذا حان الحين وجاء الشيب والهرم. ومات المسكين من غير أن يتزوج فهذا هو الشقاء الذي ليس وراءه شقاء.

إيليس

صدقته وأنا كلما أبصرت هذه العقبى استولى على رعب شديد.

مارتا

إذن لماذا لا تحتاط من الآن قبل أن تفوت الفرصة.

(يذهبان إلى الناحية الأخرى)

مرغريت

البعيد عن العين بعيد عن القلب، وإن منعك أدبك الجَم عن أن تقر بهذا. وعما قليل تلتقى بأقرانك وأصحابك ومن هم أكثر منى ذكاء وعلماً.

فاوست

ثقى أيتها الحبيبة أن ما يسميه الناس ذكاء وعلماً ليس في الغالب إلا غروراً وحمقاً.

مرغريت

أصحيح ما تقول؟

فاوست

ليت هذه السذاجة الطاهرة تبقى أبداً جاهلة بنفسها وبقدرها الأسنى! اللهم إن صفة الاستكانة والضعة هي أعلى وأعلى ما وهبته الطبيعة الحكيمة لبنى الإنسان.

مرغريت

عساك تذكرنى وتفكر فى من حين إلى حين. أما أنا فلدى للتفكير فيك ساعات طوال.

فاوست

أكثرأ ما تكونين وحيدة من غير رفيق ولا أنيس؟

مرغريت

إن دارنا، على صغرها، تحتاج إلى الكثير من التعهد والعناية. وليست لنا خادم تساعدنى. فترانى لا أنفك أعمل وأدأب وأجرى ههنا وههنا فى الصباح والمساء. وأمى كثيرة التدقيق والتفتير، وطاعتها فرض. ومع هذا فلسنا بحاجة شديدة إلى الاقتصاد والتقشف فى المعيشة. وفى قدرتنا أن نعيش فى سعة أكثر من غيرنا. فإن أبى قد ترك لنا إرثاً حسناً وداراً صغيرة فى ظاهر المدينة تحف بها حديقة جميلة.

على أنى الآن فى راحة أكثر من قبل. فأخى انتظم فى الجندية وشقيقتى الصغرى توفيت. وبرغم ما كانت تسبب لى من النصب والعناء أتمنى لو رجعت إلى وعادات إلى تغذيتى من جديد. فلقد كانت قرّة عين لى.

فاوست

لئن كانت تشابهك فهى - ولا ريب - منك من أظهر الملائكة.

مرغريت

لقد توليت أمر تربيته من يوم ولادتها. فنشأت على حبي والتعلق بى. وكانت ولادتها بعد موت أبى بقليل. وأمى حينذاك سقيمة قد اشتد بها المرض حتى يئسنا من شفائها. إلى أن أنعم الله وزال عنها الضر شيئاً فشيئاً. فكانت من الضعف بحيث لم تقدر على الإرضاع. فانفردت أنا بتعهد الطفلة ورعايتها؛ فكنت أسقيها اللبن ممزوجاً بالماء؛ وكنت ألعبها وحدى وأداعبها. وأحملها بين ذراعى حيناً وفى حجرى حيناً، حتى نمت وترعرعت.

فلاوست

فكانت لك فى هذا السعادة الكبرى.

مرغريت

أجل. وإن لم يخل الأمر من بعض التعب والمشقة. فقد كان مهدها بجانب فراشى. فإن أنت بأقل حركة انتبهت من نومى وانصرغت إليها لأرى أى شىء تحتاجه. فحيناً كنت أسقيها اللبن وحيناً كنت أرقدها بجانبى. فإن لم تسكت اضطرت للنهوض من مضجعى فأحملها بين ذراعى وأرقص بها فى الغرفة حتى تسكن وتهدأ.

ثم لابد لى بعد هذا من التكبير لغسل الثياب والذهاب بعد ذلك إلى السوق لشراء حاجات البيت. ثم أعود فأنهمك فى تأدية أعمال المنزل. وهكذا تمضى الأيام تباعاً. ما أشبه الليلة بالبارحة. وحبذا لو كان للإنسان الجلد دائماً على تحمل كل هذا. على أنه بعد التعب والجهد يحلو للمرء طعامه ويدرك لذة الراحة.

(ينصرفان إلى الناحية الأخرى).

مارتا

ما أشقى حظ النساء وما أكثر ما يعانين إذ يحاولن إرشاد الرجل الأعزب إلى السبيل الأقوم والطريق الأرشد.

إبليس

سهل على مثلك إرشادى وهدايتى إلى ما هو خير وأمثل.

مارتا

إذن قل لى ! ألم تهتد بعد إلى شىء ما؟ ألم يرتبط قلبك بعلاقة فى بلد من البلاد؟

إبليس

ما زلت أذكر المنزل المشهور؛ الدار الفسيحة والزوجة المليحة هما أثنى من الدر والذهب.

مارتا

لكنى أريد أن أسألك : هل انتهيت مرّة فى عمرك؟

إبليس

كنت محبوباً فى كل مكان، مكرماً حيثما نزلت.

مارتا

ولكنى أردت أن أعرف إن كان قلبك لم يداخله هوى قط؟ هوى حسبته هزلاً
فصار جداً.

إبليس

أرى أن الهزل مع السيدات من أكبر السيئات.

مارتا

أف! إنك لم تفهم ما عنيت.

إبليس

يسوءنى هذا جدا ، لكنى فهمت ولاشك أنك من أطيب النساء قلباً .
(يمضيان إلى الناحية الأخرى).

فاوست

إذن قد عرفتني أيها الملك الصغير بمجرد دخولى هذه الحديقة.

مرغريت

ألم تلاحظ أنى أغمضت عينيَّ حياءً إذ أبصرتك قادماً؟

فاوست

وهل تصفحين عن تلك الجرأة والقحة اللتين دفعتاى إلى مخاطبتك والتعرض لك
عند خروجك من الكنيسة؟

مرغريت

لقد دهشت وحررت فى أمرى، ومثل هذا الأمر ما حدث لى من قبل. وما من أحد
يقدر أن يتهمنى بسوء، فسألت نفسى: ليت شعرى كيف تجرأ أحد على مخاطبتى وأنا
سائرة فى طريقي، اللهم إلا أن يكون فى مشيتى ومسلكى خفة وتهتك حتى تجاسر ذلك
الغريب وأقدم يريد العبث بى. وأقول لك الحق إنى حين خطر لى هذا الخاطر بت حانقة
على نفسى وشغللت بتأنيبها وتوبيخها عن لومك أنت وتأنيك.

فاوست

أيتها العزيزة!

مرغريت

دعنى لحظة.

(تنحنى فتقطف أقحوانة ثم تنتزع وريقاتها الواحدة بعد الأخرى)

فاوست

ماذا تصنعين؟ هل تجمعين باقة زهر؟

مرغريت

لا! إن هذا على سبيل اللهو واللعب.

فاوست

وكيف هذا؟

مرغريت

انتظر لئلا تسخر منى.

(تنتزع وريقات الأقحوانة واحدة واحدة وهى تهمس وتهممهم).

فاوست

بماذا تهمسين.

مرغريت

(بصوت مسموع وهى تنتزع الوريقات) يحبنى! لا يحبنى.

فاوست

لله هذا المحيا السماوى البديع!

مرغريت

يحبني! لا يحبني! يحبني! لا يحبني.
(تنزع الورقة الأخيرة وتقف مسرورة).
يحبني!

فاوست

أجل أيتها الحبيبة. فاعتبرى ما أبدته لك وريقات هذه الزهرة وحيًا سماويًا،
وفلا صادقًا! فهل تفهمين معنى هذا: إنه يحبك ويهواك.
(يمسك بكلتا يديها).

مرغريت

أراني أرتعد.

فاوست

وعلام ترتعدين؟ ليكن من نظري إليك وإمساكي براحتيك ما ينبئك عما يعجز عن
ذكره اللسان. لنسلم أنفسنا إلى غرام شديد نحسه وننعم به. غرام يجب أن يبقى نعيمه
إلى الأبد. غرام لا حد له ولا نهاية. فإن انتهاءه جزع قاتل وكمد ساحق. يجب ألا تكون
له نهاية ولا يكون له آخر.
(تضغط مرغريت على يديه ثم تتركه وتجري مسرعة. فيقف مفكرًا لحظة ثم يتبعها).

مارتا (داخلة هي وإبليس).

لقد خيم الظلام.

إبليس

صدقت وأن وقت رواحنا .

مارتا

بودى أن تطول إقامتكما في هذا البلد، لولا أنه مكان ردىء. فالناس هنا من ذلك الصنف الذى لا شغل له إلا التجسس على الجيران ومراقبة حركاتهم وسكناتهم؛ ثم التحدث عنهم بما لم يعلموا . ترى أين ذهب فتانا وفتياتنا؟

إبليس

هما كزوج القطا يمرحان هناك ويسرحان .

مارتا

أراه يحبها كثيراً .

إبليس

وهى تحبه . هكذا يدور الفلك .

(١٣)

كوخ صغير فى موضع آخر من الحديقة

(تدخل مرغريت الكوخ وتختبئ خلف الباب واضعة أصبعها على ثغرها وهى تنظر من الثقب)

مرغريت

هاهو أت!

فاوست

(داخلا) ويلك: أهكذا تعبتين بى؟

(يرى مرغريت) أأنت هنا؟ (يقبلها).

مرغريت

(تعانقه وتقبله ثانية) أحبك من صميم قلبى.

(إيليس يقرع الباب)

فاوست (مغضبا)

من الطارق؟

إيليس

صديق.

فاوست

حيوان أهجم.

إبليس

أذن وقت الرجوع.

مارتا (داخلية)

أجل أيها السيد لقد تأخرتما.

فاوست

هل لي أن أصاحبك إلى منزلك؟

مرغريت

ستجئ أُمى لتأخذنى معها . فاذهب أنت فى رعاية الله.

فاوست

إن كان لابد من الذهاب، فابقى فى حماية الله.

مارتا

تصبحك السلامة.

مرغريت

إلى الملتقى القريب.

(يخرج فاوست وإبليس)

مرغريت

تباركت اللهم! أى شىء فى العالم لم يحط به هذا الرجل الخطير علماً؟ وأنا أمامه
كالمجر الأصم لا أقدر على الكلام وأجيب عن كل سؤال بنعم! ماذا يحببه فىّ وما أنا
إلا فتاة جاهلة ساذجة.

(١٤)

غابة وغار

فاوست^(١)

أيها الروح الجليل، الذى غمرنى بالهباء وأنالنى كل ما سألته! ما كان عبثاً أن أريتني محياك من قبل وسط شواظ من نار، فقد أهدقت بى بعد ذاك نعمك ومنحك. جعلت هذا الكون لى ملكا، ووهبتنى القدرة على التمتع بطيباته والإحاطة بأسراره. وكشفت لى الغطاء عما انطوى فيه من العجائب، وكمن فى أعماق صدره من البدائع الخفية.

وعرضت أمام عيني جمافير المخلوقات فأطلت التحديق فيها، وتعلمت كيف أحبها وأحنو عليها. وكيف أعطف على إخوتي ونوى قرباى. تلك الأرواح العديدة التى تسبح فى الماء وتحلق فى الهواء وتدب على أديم الثرى.

تعاليت أيها الروح! كم جئبتنى المهالك! وسلكت بى أسلم المسالك. وكم كشفت عني من غمة وأنرت لى السبيل. فإن عصفت العواصف، وأخذت الزوابع تزأر وتزمرجر، فاجتثت دوحا من أصولها. وقذفت بها فوق الدوح الآخر فحطمتها ومزقتها.

(١) فى هذا المنظر يعود فاوست إلى طلب العزلة، فهو لا يميل إلى الشر قليلا حتى تعود إليه نزعته إلى الخير. وهو فى هذا المنظر يناجى الروح - روح الأرض - مناجاة لا يفسرها ماضى القصة. وربما كان سبب هذا أن المؤلف كان يريد أن يجعل للروح دورا أكبر فى القصة. ثم عدل عن هذه النية. وبقيت قطع صغيرة تدل على ما كان يريد.

وكان لسقوطها دوى وزئير يتردد صداه بين الجبال والوديان. انتشلتنى أنت من بين هذه الأخطار. وأويتنى إلى كهف أمين وركن ركين.

ثم كشفت لى الغطاء عن دخائل نفسى، فبدأ لعينى ما كان كامناً فى صدرى من الأسرار والآيات الخفية.

ولقد أنظر إلى البدر المنير إذ يصعد فى السماء مرسلًا إلى العالم تلك الأشعة التى تسكن الروع وتشرح الصدر. هنالك تسبح إلى من بين جلاميد الصخر ومن بين الأحراج الرطبة أشباح فضية تمثل الأزمنة الغابرة، فيهدى خيالى الثائر وفكرى الهائج المضطرب.

والآن أحس وأعلم أن ليس شىء كامل متاح لبنى الإنسان. فإنك أيتها الروح تفضلت فغمرتنى بتلك السعادة، ورفعتنى إلى هذه المرتبة التى قربتنى من الآلهة وأدنتنى من مقامهم الأسمى. لكنك ألزمتنى صحبة ذلك الرفيق المقنوت فبت أرانى ويا للأسف وليس لى عنه غنى. ولا أستطيع إبعاده عنى. وإنه ليقصف بإزائى ساخرًا منى واضعًا من قدرى أمام نفسى. ولقد يفوه بالكلمة الواحدة فيفسد على كل ما منحتنى وأجزلت لى من الهبات.

أثار فى نفسى الشهوات الخامة. وأوقد فى قلبى نار عشق متأججة لتلك الصورة المليحة. فأمسيت وما تنفك نفسى تتوق إلى الذات؛ حتى إذا نالتها ثارت تطلب سواها، وتصيح هل من مزيد؟

(يدخل إبليس)

إبليس

أترك قد قضيت وطرك من الحياة وبلغت كل ما تشتهي؛ لكن أما تظن أنك على مر الزمان ستسأم مثل هذه الحياة؟ إنه لا بأس فى أن تجرب هذه الحال مرة، لكن لا بد لك بعدها من السعى وراء شىء جديد.

فاوست

وددت لو كان لك من شئون هذه الدنيا ما يشغلك عني وأنا في أسعد أوقاتي.

إبليس

لعمري ليس بشاق على أن أتركك وأمضي إن كنت تجد في الحديث. ولن تكون خسارتى جسيمة بترك رفيق وقح فظ أبله مثلك.

أنسيت أنك تكلفني من العناء والنصب ما يشغلني آناء الليل وأطراف النهار. ثم أراك بعد ذلك وقد انقلبت سحنك، واستحال على المرء أن يعرف أي شيء يرضيك وأي شيء يفضبك؟

فاوست

تلك لهجته الصادقة! يريد مني أن أشكره على تعذيبه ومضايقته لي.

إبليس

ويك يا سليل التراب، أي عيش كنت تعيشه من غيري؟ ألم أنقذك، ولو إلى حين، من وساوسك وأوهامك؛ ألم أكبح لك جماح خيالك الكثير الشطط؟ ولولاي لكنت فارقت هذه الكرة الأرضية منذ زمان.

ماذا يعجبك من الثواء وسط الكهوف والأحجار، كائنك البومة في الوحشة والوحدة؟ أتريد أن تعيش كالسلحفاة فتسكن وسط الحشائش وتمتص غذاك من الطحلب والطين؟ يا لها من تسلية حلوة جميلة ! لعمري إن روح الدكتور لم يزل بعد في جسدك!

فاوست

مثلك لا يدري أي قوة جديدة أكتسب من تجوالي في هذه الأماكن المقفرة، ولو كنت تدركها لأبت عليك شيطانيتك أن تتركني أتمتع بها.

إبليس

أما إنها للذة سماوية جليلة: أن ترقد فوق الصخور ملتحفاً سواد الليل، تتساقط عليك قطرات الندى! ثم تمد ذراعيك لتعتنق بهما الأرض والسماء، وتتنفخ وتتعظم حتى تحسب أنك صرت ربا من الأرباب، ثم تنفذ إلى لب الأرض وباطنها، وتحس أن صدرك قد وسع العالم أجمع واحتوى كل ما صنعه الخالق فى ستة أيام. ثم ترتقى بك كبرياؤك فتشعر بلذات لا توجد إلا فى مخيلتك. وسرعان ما تفيض روحك وتسرى فى سائر الكائنات فتحس أنك قد بلغت أقصى مراتب السعادة.

ثم تختتم هذا الإلهام السماوى (يعمل بيده إشارة غير حسنة) بالأمر الذى لا يصح أن أفوه به.

فاوست

اخساً! قبحاً لك.

إبليس

أنت تأنف بالطبع من ذكره هذه الأشياء. ويحق لك أن تستقبحها وتقول لى اخساً! يجب علينا ألا نذكر لذوى الأذان العفيفة تلك الأمور التى تشتتها نفوسهم العفيفة!

والخلاصة : أننى لا أريد أن أحرملك لذة هذا الانزواء من أن لأن لكى تخذع نفسك وتغرر بها كما تشاء! لكنى إخالك هذه المرة قد بلغت الغاية. ولئن دام لك مثل هذا العيش فإنه سائقك ولاشك إلى الجنون أو إلى الرعب والفرع.

فحسبك وارجع عن هذا. واذكر أن فى المدينة حبيبتك، التى أمست حليفة الكمد والوجد! وقد بات ذكرك لا يبرح خاطرها بعد أن تيمها حبك وامتلأ قلبها غراماً بك.

بالأمس كان قلبك يطفح حباً وهياماً. وسيل غرامك قد طما وعلا كما تفيض الجداول إثر زوب الجليد. ففاض الحب من قلبك إلى قلبها حتى أمسى فؤادها مفعماً. وكأس غرامها مترعة؟ وما أنت اليوم قد نصب معين هواك.

فيا ليت شعري أليس الأجمل بك أيها المولى! - بدلا من هذا العظم والتعاضم
بين الكهوف والغابات - أن تكافئ تلك الفتاة على حبها بمثله وتجازى الجميل
بالجميل؟

لقد باتت وساعات وحدتها طوال. فهي تقف لدى النافذة ترقب السحب وهي تعدو
فى السماء مبتعدة إلى ما وراء أسوار المدينة، ثم تحاول أن تخفف ألامها بأنشودة
تغنيها فلا يزداد صدرها إلى حرجاً.

وهكذا تقضى أياماً طوالاً وليالى أطول ما بين سرور قصير المدى وحزن طويل
الأمَد وبكاء كاد ألا يترك فى مآقيها قطرة. وهدوء وسكون ظاهرين من ورائهما حب
مضن وهرى مبرح.

فاوست

ويك أيها الحية الرقطاء!

إبليس

(لنفسه) ها قد بت فى قبضة يدي.

فاوست

اخسأ أيها اللعين! ولا تذكر هذه الحسناء أمامي! احذر أن تثير حواسي المشرفة
على الجنون. وتهيج فى الرغبة إلى ذلك الجسد الغض.

إبليس

إذن كيف التدبير؟ إنها باتت تحسبك قد هربت وهجرتها. ويوشك ظنّها أن
يكون صدقا.

فاوست

أنا منها قريب وإن بعد بيننا المزار. ولن يبرح ذكرها من خاطري أبداً، ألا إنى لأحسد جسم المولى حين تلمسه شفتاها^(١).

إبليس

إي وأبيك! وأنا طالما حسدتك على هاتين الوردتين الناضرتين.

فاوست

أخسأ أيها القواد!

إبليس

حسنًا! إنك تسبني، وأنا لا يسعني إلا أن أضحك منك. يا سبحان الله! أتسب المهنة الشريفة التي لا تعادلها مهنة؟ ونسيت أن الله قد خلق الذكر والأنثى! أرى الحزن قد أخذ منك كل مأخذ حتى بت تتوهم أن ذهابك للقاء حبيبك كذهابك إلى القبر.

فاوست

إنى لأجد بين ذراعيها نعيم السماء وعلى صدرها حرارة الحياة. لكنى برغم هذا أحس ما هي فيه من بلاء وعذاب.

يا ويلي. لقد أصبحت ذلك الشريد الطريد، بل ذلك الوحش البشع الذي لا راحة له في الأرض ولا مأرب. والذي غدا مثل السيل الجارف يتدفق من صخر إلى صخر مندفعاً بقوة إلى هاوية سحيقة!

(١) إشارة إلى شعار من شعارات المسيحية وجسم المولى هو الخبز المقدس.

كانت عني بمعزل . عائشة وسط جدران كوخ صغير قد انحصرت فيه آمالها وآلامها .
فكانما هي في عالم صغير محدود . فجئت أنا الذي حل به سخط الآلهة ولم يكفني أن
مزقت الجنادل وحطمت الصخور . فلم أرض حتى قذفت بها على تلك البائسة فدمرت
بناء سعادتها!

فيا أيها الجحيم! ما كان أغناك عن مثل هذا القربان!

أيها الشيطان أعنى على تقصير أمد هذا الشقاء وإن كان نزول البلاء ضربة لازب
فلينزل سريعاً! ولتحل بي أنا أيضاً تلك الكارثة التي ستنزل بها حتى يقضى
علينا جميعاً .

إبليس

ها قد اشتعلت نارك ثانياً وغلت مراجلك! أليس الأولى بك أيها الأحمق أن تسارع
إلى منزلها وتأخذ في ملاطفتها وتسليتها . يا عجايبك! أكلما عجز مخيخك هذا عن
التدبير ظننت أن الطريق قد انسدت والحيل قد نفدت؟ وهل العيش إلا للجريء
الباسل؟

إنك قد أصبحت نصف شيطان . وأنا لا أجد في العالم شيئاً أسمح منظرًا من
شيطان يدركه اليأس والجزع .

(١٥)

حجرة مرغريت (مرغريت جالسة تغزل)

مرغريت^(١)

أنا - صبحي ومسائي
في عذاب وبلاء،
وا عنائي! وا شقائي!
هل لدائي من دواء؟
كيف لا يشتد خطبي
كيف لا يزداد كربى
كيف لا يحزن قلبى
وحبيب القلب ناء؟
بان صفو العيش عنى
قرح التسهيد جفنى؛
لم يسكن نار حزننى
دمع عينى وبكائى

(١) هذه الأنشودة مترجمة بتصريف.

قد نبا عنى الرقاد
وبرى جسمى السهاد
آه ! قد طال البعاد

وشقائى فى اللقاء
فممتى يسمح دهرى
ويرينى وجه بدرى
قد أضل الحب فكرى
والهوى أعضل داء .

أو ما يدنو الحبيب
فأرى العيش يطيب ؟
الهوى أمر عجيب
منه سقمى ودوائى .

ما أحيلاه إذا ما
ثغره أبدى ابتساما !
قد حكى البدر التماما

فى سناء وبهاء
آه لو أشفى بلثمه
منه أو أحظى بضمه !
ثم يقضى الدهر حكمه
بهلاكى وفنائى .

(١١)

حديقة مارتا^(١)

مرغريت

عدنى يا هنرى!

فاوست

كلُّ ما أقدر عليه!

مرغريت

قل لى ما رأيك فى الديانة؟ لست أنكر أنك من أطيب الناس وأحسنهم. لكنى أخشى أن تكون قليل الإيمان.

فاوست

دعى هذا يا حبيبتي! أنت تريننى متيماً بك؛ أود أن أبذل من أجل حبك لحمى ودمى. وما أريد لعمرى أن أسلب أحدا دينه ومعتقده.

مرغريت

هذا خطأ! يجب على الإنسان أن يؤمن بالدين!

(١) فى هذا المنظر حاول «غوته» أن يكشف قليلاً عن معتقده الدينى. ولعل بعض ما جاء فيه هو من تجاربه الشخصية.

فاوست

يجب؟

مرغريت

ليت لى عليك بعض النفوذ؛ إذن لجعلتك تعظم الشعائر الدينية وتبجلها.

فاوست

أنا أبجلها.

مرغريت

لكن من غير حمية ولا غيرة؛ وعهدك بالاعتراف والصلاة بعيد.

قل لى : هل تعتقد وتؤمن بالله؟

فاوست

أيتها الحبيبة! من ذا الذى يستطيع أن تبلغ به الجرأة والقحة أن يقول «أنا أعتقد بالله»
ولئن سألت القساوسة والحكماء فما يكون جوابهم إلا عبارات مبتورة غامضة كأنها
ازدراء بالسائل وسخرية منه.

مرغريت

إذن فأنت لا تؤمن بالله؟

فاوست

لا تسيئنى فهم أقوالى أيتها الحبيبة. أى الناس يقدر أن ينطق باسمه؟ وأيهم
يستطيع أن يقول : «أنا أؤمن به» وأى الورى يحس ويبصر، ويسمع ويعى، ثم يجرو أن
يقول: «أنا لا أؤمن به»؟ ذلك القابض على كل شىء والممسك لكل شىء؟ أليس هو الممسك

لى ولك ولنفسه! أما تنظرين إلى السماء كيف رفعت وإلى الأرض كيف سطحت؟ وإلى هذه النجوم الزهر تسبح فى السماء؛ مرسله ضياءها الأبدى المحبوب؛ ثم إذا أطلت التحديق فى عينيك فأرنبو إليك وتنظرين إلى. ثم لو تأملت بما تحسّينه من مختلف الشعور وما يخامر فكرك من الخواطر والظنون وما يحيط بك من الأسرار الأبدية؛ وهى حيناً تخفى وحيناً تظهر؛ وطوراً هى جلية واضحة وطوراً مبهمّة غامضة. فمن هذا كله فاملنى قلبك حتى يطفح بتلك السعادة، ويستنير بذلك النور. وعندئذ فلتسمّيه كما تشائين، ولتدعيه بما يحلو لك من الأسماء: السعادة أو القلب أو الحب أو الرب.

أما أنا فما له اسم عندى، وكل همى أن أحسه وأستشعره. فالشعور هو كل شىء. وما الاسم إلا صدى لا طائل تحته. أو غمام يستتر عن أبصارنا محيا الشمس البديع.

مرغريت

هذا كله حسن وجميل، ويكاد أن لا يختلف عما يقوله القسيس إلا فى طريقة التعبير.

فاوست

هذا ما يقال فى كل أرض وتحت كل سماء. هذا ما يحسه كل قلب ويخطر بكل فكر. ولكل لغة يؤدى بها مقصده. فلم لا تكون لى لغة أبين بها عن قصدى أسوة بالآخرين؟

مرغريت

حين أسمع كلامك يخيل إلى أن ليس فى كلامك بأس، لكنى ما زلت قلقة لأنى أرى قدمك فى المسيحية غير راسخة.

فاوست

ولم أيتها الطفلة العزيزة؟

مرغريت

إنى لأتألم أشد الألم كلما رأيته فى صحبة ذلك الرجل!

فاوست

ومن تعنين؟

مرغريت

ذلك المخلوق الذى يصحبك فى غدواتك وروحاتك؛ إنى أرانى أبغضه كل البغض.
وما ألت فى حياتى لشيء ألى لرؤية وجهه الكريه.

فاوست

أيتها الطفلة العزيزة لا تخافيه.

مرغريت

إنى وإن كنت لا أبغض أحدا من الناس، غير أنى لا أكاد أبصر هذا الرجل حتى
يغلى الدم فى عروقى. وعلى شدة اشتياقى لرؤيته فأنى أنفر منه وتألم عينى لمراه. لهذا
ترانى أعده من السفلة الأشقياء.

ويعفو الله عنى، إن كان أخطأ ظننى.

فاوست

لابد أن يكون فى العالم أناس لا يسرك مرأهم.

مرغريت

إنى لأكره أن أعيش مع مثله: ولو تراه إذ يدخل من الباب وعلى وجهه تارة
علائم السخرية والازدراء، وطوراً يعلو وجهه العيوس والتقطيب. فمن الواضح الجلى أنه

لا يأتبه لأمر، وكأنما كتب على جبينه أنه ليس أهلا للحب ولا للثقة. وليس ممن تدخل
الرحمة فؤادهم، وبقدر سرورى وانشراح صدرى للقائك وعناقك أحزن ويضيق صدرى
حين أراه.

فاوست

لله أنت من ملك ثاقب النظر!

مرغريت

لقد بلغ من بغضى له أنى لو رأيته قادما علينا لملأ الرعب قلبى حتى ليخيل إلى
أنى لم أعد أحبك أنت أيضا.
وكم حاولت أن أصلى وهو موجود فلا أستطيع، فيزداد غيظى منه وحنقى عليه.
وأعجب كيف لا تحس أنت مثل الذى أحسه.

فاوست

أنت قد أشرب قلبك بغضه.

مرغريت

والآن لا بد لى من العودة.

فاوست

أما أستطيع أن أجتمع وإياك سويعة فى هدوء وصفاء. فأسند صدرى إلى صدرك
وروحى إلى روحك؟

مرغريت

لو كنت أسكن وحدى، لجعلتك تزورنى هذا المساء لكن أمتى تنام معى؛ وهى إن
رقدت فسرعان ما تستيقظ ولو صادفتنا معا لكان فى ذلك شقائى وهلاكى.

فاوست

الخطب يسير! دونك هذه الزجاجاة فضعى منها قطرتين أو ثلاثاً فى شرايها ترقد
بعدها رقاداً هنيئاً.

مرغريت

إنى أفعل من أجلك كل شىء؛ وعسى ألا يصيب أمدى من جراء هذا أى ضرر!

فاوست

وهل كنت أَرْضاه لو كان فيه ما يضرها؟

مرغريت

إنى كلما نظرت إليك لا أعرف أى قوة تجعلنى طوعاً لإرادتك؛ وقد ضحيت من
أجلك كل شىء حتى لم أعد أجد ما أفعل من أجل حبك.

(تخرج)

(يدخل إبليس)

إبليس

هل ذهبت الثرارة؟

فاوست

أعدت إلى التجسس؟

إبليس

سمعت كل شىء. ورأيتك أيها الأستاذ وأنت واقف أمامها موقف التلميذ.
وهى تحيرك بأسئلتها الدقيقة. ولعل هذا قد أفادك.

البنات يهْمُنْ جدا أن يعرفن إن كان الرجل تقياً ومطيعاً لأوامر الدين. ويقلن في أنفسهن: إن يطأطى رأسه للدين يطأطى رأسه لنا!

فاوست

تَباً لك ولما يخطر بخاطرك الجهنمي! ألا ترى ويحك أن تلك الروح الزكية قد امتلأت بالإيمان وترى فيه وحده أقصى السعادة، فتألم أشد الألم إذ ترى من تحبه عارياً من التقوى والإيمان؟

إبليس

أنت أيها الرجل الشهواني الجليل أصبحت تقتادك طفلة من خطام أنفك.

فاوست

إخسأ يا سليل النار والدنس!

إبليس

أرأيت كذلك ما لها من قوة الفراسة؟ فهي في حضرتي تحس شيئاً لا تعرف ما هو، وترى أن من وراء قناعي هذا أمراً خفياً. وهي تنظن رغم هذا أنني عبقرى: بل أنني ربما كنت الشيطان بعينه.

والآن في هذه الليلة.

فاوست

هذا أمر لا يعنيك.

إبليس

بل لي فيه من السرور نصيب.

(١٧)

لدى البئر

مرغريت وليزا تستقيان ويبد كل منهما جرة

ليزا

هل أتاك حديث (باربارا) وما فعلت؟

مرغريت

لا! لم يبلغ مسمعى عنها شىء. وأنا قلما أختلط بالناس.

ليزا

اليوم أنبأتني بأمرها (سييل). لقد قضى الأمر، وسقطت إلى الهاوية بعد أن كانت
تشمخ علينا بأنفها تيهاً وغروراً.

مرغريت

ولكن ماذا حدث؟

ليزا

أمست والطعام الذى تأكله يغذى اثنين!

مرغريت

رياه!

ليزا

إنها لقيت جزاء ما كسبت يداها. ألم تكن تكثر الغدو والرواح مع ذلك الفتى؛
فيغشيان كل مكان، ويرقصان في كل ناد؛ وكانت سباقاً إلى كل ملهى وملعب. أبدأ
تريد أن تكون الأولى. ولطالما كان يتحجب إليها بأطباق الحلوى وكؤوس الخمر.
وهكذا لعب الغرور بقلبها وغدت تحسب نفسها من الغواني الحسان، وباتت من القحة
والضعة بحيث لم تكن تستحي أن تتقبل منه الهدية إثر الهدية. ثم كان تقبيل وتجميش،
ثم انشئت وقد غادرتها الزهرة اليانعة.

مرغريت

وأها المسكينة!

ليزا

أو تهزك عليها عاطفة رحمة؟ حين يجن الليل تجلس كل فتاة مثلي ومثلك إلى مغزليها
ولا تسمح لنا الأم أن نخادر الدار. أما هي فكانت تقضي الليالي رختاية بهزينة
يجلسان على القاعد في الطرق المظلمة لا يكثران لمراً الساعات الطوال. والآن فلتنزع
عنها ثوب الكبر والغرور! ولتبادر إلى الكنيسة مرتدية لباس الذل والضراعة
وهناك فلتكفر عن أنامها!

مرغريت

لكنه لابد سيخذها حليلة.

ليزا

إذن يكون من السدج البله. وجدير بشاب مثله أن يجد في فسيح الأرض مضطرباً
ومجالاً. ولقد علمت أنه لاذ بالفرار.

مرغريت

لعمري لقد أساء صنعاً .

ليزا

وهبى أنه تسنى لها الزواج به! فلن تزداد حالها إلا سوءاً؛ فهؤلاء شباب القرية
قد ألوا على أنفسهم ليمزقن الإكليل عن رأسها . ولينثرن التبث على باب دارها^(١).

(تخرج ليزا)

مرغريت

(وحدها وهي تتأهب العودة).

يا ويلي ! كيف ساغ لي في سالف عمري أن أبدى السخط والغیظ من كل فتاة
مسكينة زلت بها القدم! وكنت لا أجد من الألفاظ ما به أبين مبلغ حنقي وكرهي لما يرتكبه
الناس من الأوزار. كان منظر الإثم يبدو لعيني أسود حالكا كريهاً، وكنت أنزّه نفسي
عن السقوط لمثل هذا الدرك الأسفل.

واليوم أمسيت يا لتعسري. وأنا الرذيلة بعينها والإثم مجسماً.

ولكن رياه رحماك! ألم يدفعني إلى كل ذلك دافع جميل؟ دافع عذب نديذ.

(١) هذه عادة قديمة في بعض جزائر ألمانيا على سبيل التشهير بمن لم تحتفظ بعفافها قبل الزواج

(١٨)

عند سور المدينة

(فى إحدى زوايا السور - فى شبه محراب - تمثال للعدراء الحزينة^(١)
Mater Dolorosa وأمام التمثال أوانى الزهر).

(مرغريت تضع أزهارها فى الأنية وتناجى العدراء)

وارثى لـحالى!	رُحماك عطفاً!
صرفُ الليالى	قد هدّ ركنى
وأنقذيني من الوبال!	فألهمنى مهجتي عزاء
مُـرّ الخطوب	قد ذقت قدماً
ومن كـرووب!	كم من شقاء
إذ فتكوا بابنك الحبيب.	عانيت زراً وأى زرع
طعم الهموم	عرفت ماذا
جسم السليم	وكيف تُبلى
من قلبك المشفق الرحيم!	هبى لقلبي الكليم نصراً

(١) هو تمثال يمثل العدراء ناظرة إلى المسيح وهو مصلوب. وهو تمثال معروف شائع فى البلاد الكاثوليكية.

يا ويل نفسي	لما رماني
صرف الليالي	وما ابتلاني !
عذراء ! رحماك أنقذيني !	فأنت أدرى بما أعاني .
يا طول حزنني	ويا لكربي !
ما بين صدري	وبين جنبي
أحس شيئاً . وأحرّ وجدى	قد ضل عقلى وجُن لى .
قرّحت جفنى	من النحيب
وليس يطفى	جوى اللهيب
وكم سقيت الأزهار هذى	من مدمعى المسيل الصيب
أقضى الليالي	بلا رقـاد
كأن فرشى	من القـتاد
رحماك ! إني أقضى حياتي	حليفة النوح والسهاد
أنت ملاذى	فأنقذيني
من البـايا	وأدر كـيـنى
العار والموت أحـدقا بى	رحماك رحماك خلصيني !

(١٩)

فى ظلام الليل

أمام منزل مرغريت. الجندى فالتين شقيق مرغريت

فالتين

ويلى عليك يا مرغريت! لقد كنت لى بالأمس باعث فخار وشرف، وكنت أرفع رأسى
تيها بك وإعجاباً.

لهفى على العهد الماضى! إذ أجلس وأصحابى حول مائدة الشراب، مصغيا
لأحاديثهم وقصصهم، فيملاً كل منهم ماضيه فخراً، ممجداً الفتاة التى يمت إليها
بسبب، فيرفع من ذكرها، ويعلى من قدرها. ثم يتناول الكأس مترعة فيشرب نخبها
وقلبه مفعم سروراً وزهواً.

كنت أنظر إليهم ساكناً هادئاً، متكناً على ذراعى أعبث بلحيتى متبسماً، حتى إذا
انتهوا من قصصهم ومن تيههم وفخرهم، تناولت أكبر الأقداح فأترعته رحيقاً وقلت لهم:
«أنتم وما جعل لكم، ولكل حظه ونصيبه. لكنى أناشدكم الصدق: هل فى البلاد كلها
فتاة تعادل مرغريتتى إخلاصاً وطهرأ؟ بل هل فى البلاد من تليق لأن تقدم لها قدح
الماء؟».

كنت إذا ألقيت عليهم السؤال أحرصت ألسنة المادحين والفاخرين، وقال الآخرون:
«إنه لصادق، فهى زين نساء العالمين».

كان هذا شأنى بالأمس. أما اليوم فما أولعنى بأن أنتزع شعرى من جنوره
وأحطم رأسى ضرباً فى الصخر من هول ما أسمعه من وخز الملام وقسوة التائب
وما يرمينى به أقرانى من أليم التهم - إن تصريحاً أو تلميحاً - وأنا جالس بينهم
أتصعب عرقاً كأنى مجرم أثيم.

ولعمري ما أقدرنى على مقاتلتهم وقتلهم! ولكن ما أعجزنى عن تكذيبهم وتفنيدهم
مزامعتهم!

أرى شبحاً قادماً يسير الهويناً. إن صدق ظنى فهما اثنان، ولئن يكن هو أحدهما
فسأنقض عليه إنقضا الصاعقة، ولن يغادر هذا المكان حياً.

(يدخل فاوست وإبليس)

فاوست

انظر إلى ذلك النور الضئيل المنبعث من نافذة المعبد! إنه لا يلبث حتى ينمحي
ويتلاشى فى ظلام الليل الدامس. وإنى لذلك أشعر كأن النور الذى فى صدرى قد
طغت عليه ظلمات بعضها فوق بعض.

إبليس

أما أنا فأشعر كأنى هرّ رقيق العواطف. أتسلق سلم الحريق ثم أزحف على
الجران بصمت وسكون. وأعد نفسى مع هذا كله من أهل الفضل والفضيلة، لا عيب
فى إلا الشئ القليل من خلق اللصوص والنزير اليسير من عبادة الشهوات.

وهذا كله مما يبعث فى نفسى ذكرى ليلة (والبورغ)، التى نحتفل بإحيائها بعد غد،
وهى الليلة التى يطيب فيها السهر حقاً.

فاوست

ولكن ما خطب ذلك الكنز النفيس الذى أبصرته منذ حين فرأيت له بريقاً شديداً؟
أليس الأولى بنا أن نبادر إلى فتحه؟

إبليس

لينعم بالك سلفا، ولتقر عينك. فلقد نظرت حديثا فى ذلك الكنز فرأيتَه مملوءا
بالدنانير.

فاوست

أهذا كل ما هنالك؟ أليس فيه حلية أو خاتم فأقدمه للحبيبة؟

إبليس

إخال أنى رأيت فى الكنز شيئا كأنه عقد من اللؤلؤ.

فاوست

هذا حسن فلتحضره الآن؛ فإنى ليؤلنى أن أذهب إليها من غير هدية.

إبليس

وعل فى هذا ما يبعث على الألم؟ إنك ستنال شيئا بلا شيء.

والآن وقد لمعت النجوم وتألقت السماء، أريد أن أغنيك أنشودة مطربة مشجية،
وسأجعلها أغنية وعظية فإن هذا أدعى للتغريب بالحبيبة وإغوائها.

(يغنى موقعا على قيثارة)

كـتـريـن ! ما بالى أرا لك وحنك الفتان يغرى
تسرين فى الليل البهيم؛ وإنما هذا لأمر
لبيت دعوات الغرا م فجئت فى طرب وبشر
أقبلت بكرا حرة ورجعت - لكن غير بكر

* * *

أبني تي فلتحذري؛ كم من فتى فى لؤم ذيب
من بعد ما يقضى ما ربه يعجل بالهروب
ما إن يبالى أن تعا نى ما تعانى من كروب
فحذار لا تستسلمى إلا لزوج أو خطيب

* * *

فالتين

من التى تريد تضليلها والتغدير بها؟ تبا لك من شقى لعين! سحقاً لك وإقيثارتك.
(يضرب القيثارة فيحطمها)

إبليس

لقد انكسرت القيثارة فلم تعد تصلح لشيء.

فالتين

بقى أن أحطم رأسك أيها الفاجر.

إبليس

(مخاطباً فاوست)

سيدي الدكتور! تقدم ولا تتقهقر! قف إلى جانبي وتتبع حركاتي! استل سيفك ثم
اقتله. ودعنى أنا أتولى صدّ ضرباته.

فالتين

إذن صدّ هذه الضربة!

إبليس

ولم لا؟

فالنتين

وهذه !

إبليس

بلا ريب .

فالنتين

يخيل إلى أنى أبارز شيطاناً ! ويلي ما هذا؟ كأن يميني قد شلت.

إبليس

(لفاوست) اطعنه الآن فهذا دورك!

فالنتين

أواه! (يخر صريعاً)

إبليس

الآن قد هدأ ثائر هذا الحيوان الأعجم. أما نحن فلنعجل بمغادرة هذا المكان.
لأنهم سرعان ما يجدون في طلب القاتل.

أنا لا أخشى رجال البوليس لأنهم قوم سهل إرضائهم. ولكنى أخشى عائلة
القصاص الذي يقفو أثر سافكي الدماء.

(يخرجان)

مارتا (من نافذتها)

النجدة ! النجدة !

مرغريت (من نافذتها)

اشعلوا مصباحا!

مارتا

سمعت أصوات قوم يتشائمون ويتقاتلون.

جمهور من الناس

وهذا أحدهم قد قتل.

مارتا (تخرج من دارها)

ويل للقتلة! هل قروا هارين؟

مرغريت (تخرج من منزلها)

ترى من الذى قتلوه!

جمهور من الناس

إنه أخوك ابن أمك!

مرغريت

رباه! إن هذا بلاء عظيم.

فالنتين

قد أنشب الموت فى ظهره، وقريباً يقضى على القضاء الأخير. ويا ويلكن أيتها النسوة!
ما لكن ولهذا النحيب والعيول. اقتربوا منى جميعاً واصفوا إلى.
(يقف الجميع حوله)

أى مرغريت أنصتى إلى ! إنك ما زلت حديثة السن، ساذجة القلب؛ لا تحسنيين
حتى ارتكاب الرذيلة. وإنى أنصح لك، ما دمت قد سلكت سبيل العاهرات، أن تدخل
فى زمرتهن دخولاً.

مرغريت

أخى بالله ربك! أهكذا تخاطبني؟

فالنتين

ليس لمثلك أن تذكر اسم الله.

ما مضى قد فات ولا سبيل إلى رده. وسيجرى لك ما جرى لغيرك من قبل: تبدئين
إتيان المنكر فى الخفاء، لا تعرفين إلا عشيقاً واحداً. ثم لا تلبثين حتى يكثر العشاق،
ويتسع النطاق، ويعرفك الكثير من سكان البلدة ثم تعرفك البلدة بأسرها.

إن العار يولد سراً مكتماً، لا يعلم أحد بمولده؛ تسدل عليه الأستار ويحيط به
ظلام الليل البهيم. ويود الذين ارتكبوا العار أن لو قتلوه قتلاً ومحوه محواً. لكنه رغم
هذا ينمو ويكبر. ثم يبرز من الخفاء والظلام فيسير فى رابعة النهار. وهو - على بروزه
واشتهاره - لا يزداد إلا قبحاً ودمامة؛ وكلما سمج منظره وقبحت صورته إزداد فى
النهار تسياراً وبين الناس اشتهاً.

لكأنى بك أيتها الفاجرة وقد التقى بك فى الطريق كرام الفتيان من أبناء
هذا البلد، فحولوا عنك وجوههم كأنك جيفة ممثلة وباء وعدوى.

ولعمري كيف تطيقين أن تتظري إلى الناس. فلا تنويين عاراً وخجلاً. وأخلق بك أن تنزعي عنك هذه السلسلة الذهبية، وألا تدنسي أرض الكنيسة باقتراكك من المذبح المقدس، وألا ترى الناس وجهك في المحافل والمراقص. وأولى بمثلك أن تعتزل العالم وتنزوي في ركن مظلم خرب. وأن تلقى بنفسك وسط المتسولين ونوى العاهات. ولئن شئت رحمة الله في الدار الآخرة أن يعفو عنك ويصفح، فليكن حظك في الدنيا الألم المبرح والشقاء المضنى.

مارتا

أولى لك وأنت على باب الموت أن تستغفر الله ربك، بدلا من أن تفوه بهذه اللعنات والشتائم.

فالنتين

من لى بأن أمزق جلدك البالى إرباً أيتها القوادة الدنسة. إذن اطلب من الله المغفرة على كل ما جنيت من الذنوب.

مرغريت

أخى! إنك لتعاني أشد الآلام.

فالنتين

دعى العويل والبكاء! إنك أوليتنى أشد الآلام وأقساها يوم غادرت سبيل الطهر والعفاف.

الآن تغشاني سكرة الموت . وهانذا سائر إلى مولاي. جنديا شجاع القلب - علم الله - شريف النفس.

(يموت)

(٢٠)

كنيسة عظيمة

صلاة وأناشيد وتوقيع على الأرغن

(مرغريت تصلى وسط أناس كثيرين ومن خلفها ملك النعمة)

ملك النعمة^(١)

ويك يا مرغريت! كيف حالت بك الحال منذ أن كنت تأتين المعبد وتقفين لدى المذبح؛
وقلبك ملؤه الطهارة؛ فترتلين الصلوات بصوت رخيم. كانت نفسك إذ ذاك مزيجا من
مرح الأطفال وطهارة الآلهة. فشتان ما بينك اليوم وما كنت عليه فى ذلك الزمن.

مرغريت! أى خاطر يجول بنفسك؟ أى إثم شنيع تريد ارتكابه؟ أتصلين الآن
على روح أمك، وقد كنت أنت السبب فى ورودها خوض المنون بعد أن جرعتها أمراً
العذاب؛ ثم غادرت روحها فريسة لآلامٍ طويلٍ مداها، شديدٍ وقعها.

ثم أى دم هذا الدم الذى يخضب عتبة دارك؟

ثم ما هذا الذى يتحرك فى أحشائك وينمو كل يوم، فترتعد فرائصك، خشيةً عليه
وعليك مما يخبؤه لكما الزمان؟

(١) يمثل ملك النعمة هنا ضمير مرغريت يؤنبها على ما صنعت وما تريد أن تصنع. فقد قتلت أمها بما ألفت
فى شرابها من السم وتريد التخلص من طفلها عند ولادته.

مرغريت

ويلاه! من لى بأن تنجاب عنى هذا الخواطر، التى ما برحت تعاودنى
بالرغم منى؟

جماعة المنشدين

انتبه ويحك من هذا السُّبات !
إن يوم الويل والنقمة آت .
يترك الدنيا هباءً ثائراً
يخسف الأرض ويمحو الراسيات^(١)

(توقيع على الأرغن)

ملك النقمة

لينزل بك الويل وليحل بك العذاب!

لقد نفخ فى الصور. وبعثر ما فى القبور. ونشر قلبك نشرأ من وسط التراب -
حيث الراحة والسكون - وإنما ينشر ليعذب أشد العذاب، وسط السعير المضطرم.

مرغريت

من لى بأن أبحر هذا المكان؟ لكننى بهذا العزف يحبس أنفاسى. وهذه الأناشيد
تذيب مهجتى.

(١) هذه الأبيات والتى بعدها أنشودة دينية واحدة مشهورة مؤلفها رجل اسمه توماس تشيلانو كان يعيش
فى القرن الثالث عشر.

المنشدون

بين أيدي مالك الملك القدير يقف الناس لدى قاض خطير
ليس تخفى عنده خافية من جليل أو طفيف أو حقير
كل ذنب سوف يلقي قسطه من قصاص الحاكم العدل القدير

مرغريت

إن صدرى يضيق ونفسي ينحبس.
وإخال هذه الأعمدة الضخمة سجنًا موصدًا على وكأن هذا السقف المرفوع
يسحقني سحقًا. أريد هواه.

ملك النعمة

وماذا يجديك الاختباء؟ إن العار والرذيلة لا يلبثان حتى يظهران.
الويل ثم الويل لك؟ أتجرئين على أن تطلبى النور والهواء.

المنشدون

يالتعسى عندها ماذا أجيب؟ حينما أسأل في اليوم العصيب
أين لى من شافع يشفع لى. حين لا يغنى محب عن حبيب،
حين لا يملك دفع الضر عن نفسه القانت والعبد المنيب.

ملك النعمة

هيهات ! إن القانتين المنيبين إلى ربهم لينأون بأوجههم عن رؤية أمثالك.
إن الصالحين يرتعدون فرقا إذا لمستك أيديهم.

ويل لك ثم ويل!

المنشدون

يا لتعسى عندها ماذا أجيب؟

مرغريت

يا جارتى! أنجدينى!

(يغمى عليها)

(٢١)

ليسلة والبورغ^(١)

المنظر: جبال الهارتس بالقرب من قريتي شيركه Schierke وایلند Elend

فاوست وإبليس

إبليس

أما بك حاجة إلى عصا مكنسة تركيها؟

أما أنا فما أحوجنى إلى تيس^(٢) أمتطيه. إن الغاية لا تزال بعيدة
والطريق طويلة.

(١) تشير الخرافات التي كانت سائدة في العصور الوسطى إلى أن الشياطين والسحرة والساحرات والأرواح الضالة على اختلاف ضروبها وأشكالها تجتمع في الليلة الأولى من شهر مايو فوق القمة العليا من قمم جبال الهارتس بألمانيا؛ واسم هذه القمة العليا جبل بروكن Brochen أو بلوكبرغ Blocksberg. ففي تلك الليلة (ليلة والبورغ) يؤم تلك القمة من سائر الأقطار جماهير الأبالسة والعفاريت والسحرة وهناك يغمسون في اللعب واللهو على النحو الذي سيراه القارئ. ولعل إبليس أراد أن يلقي فاوست عن الجرائم الثلاث التي ارتكبها: من تدنيسه عرض فتاة إلى قتل أخيها والتسبب في تسميم أمها. فانتقل به فجأة إلى مجمع الشياطين لبسليه عن تذكر جرائمه. وفي هذا الفصل كثير من الشعوذة ومن الترهات الغامضة ولم يكتف غوته بأن يعرض لأنظارتنا صورة الأبالسة والسحرة، بل نراه قد عرض لأعيننا أفرادا ممن أراد انتقادهم والسخرية بهم فحشروهم هنا مع الشياطين. وهذا الفصل في حاجة إلى شرح كثير لن يتسع له المقام وسنكتفى بالإشارة إلى الأشياء الهامة جدا.

(٢) عصا المكنسة والتيس كلاهما من مراكب الشياطين.

فاوست

مادمت أحس فى رجلي نشاطاً وقوة، فحسبى هذه العصا العقداء. وماذا يجدينا
أن نقصر من طول الطريق، وليس فى رحلتنا هذه أشهى وأعذب من أن ننحدر وسط
هذه الأودية العديدة، ثم نصعد هاتيك الصخرة، حيث ينفجر ذاك الينبوع فتندفع منه
المياه بقوة؟

إن الربيع قد أخذ ييث روحه فى أشجار الكافور، وقد أثر حتى فى دوح الصنوبر.
فهل تبقى أعضاؤنا دون أن يؤثر فيها الربيع؟

إبليس

لست أحس من روح الربيع شيئاً. ولم تزل فى جسدى بعد بقايا الشتاء القارس
وأحب إلى أن يكون طريقنا وسط الثلج والجليد.

لقد أخذ قرص القمر يرتفع فوق الأفق، كئيباً حزينا، قد أدركه النقص واحمرت
صفحته، فلا يسطع منه غير ضياء ضئيل. حتى إن المرء ليضطدم فى كل خطوة يخطوها
بشجرة أو صخرة. فدعى أنادى أبا مشعال^(١) ليرشدنا ويرينا السبيل. وهأنذا ألمح
واحداً، لهيبه متأجج. أيها الصديق! تعال إلينا! ولا تجعل نارك تتأجج عبثاً. إنك تحسن
صنعاً إن أنرت لنا سبيلنا أثناء صعودنا.

أبو المشعال

إنى لأرجو أن أوفق إلى تذليل طبعى، وكبح جماحى إكراماً لكما. فإن الطريق
الذى أسلكها عادة شديدة الاعوجاج.

(١) ترجمة لكلمة Irrlicht والعامية تسميه (أبو مشعال) وهو فى اصطلاح الخرافات عفريت يقطن الغدران
ويسطع منه نور يضل به الناس ويسير بهم إلى المستنقعات وإلى المهالك.

إبليس

أجل، إنك بهذا تبغى التشبه ببني آدم. لكنى أمرك باسم الشيطان أن تسلك طريقاً مستقيماً، وإلا أطفأت سراج حياتك.

أبو المشعال

يبدو لى جلياً أنك هنا رب الدار، والأمر الناهى فيها. وسأبذل من أجلك كل ما فى وسعى. لكن اذكر أن بالجبل اليوم جنة مما عليه من السحر والساحرين. وإذا كان دليلك فى السير أبا المشعال، فأجدر بك ألا تطلب من الدقة المتناهية.

(فاوست وإبليس وأبو المشعال يتناوبون الإنشاد^(١)):

لقد دخلنا عالم السحر والأحلام؛ فكن لنا دليلاً مرشداً أميناً.
حتى نصل بسرعة عظيمة إلى تلك الأقطار الفسيحة المقفرة.

* * *

انظر إلى الأشجار: بعضها خلف بعض:

وهى تمر بنا مر السحاب.

وإلى جلاميد الصخر، مشرفة على الأودية

وإلى كل جندل ذى أنف طويل

يغط غطيظاً، وينخر نخيراً.

* * *

(١) القطعة الأولى والرابعة لإبليس والثالثة والخامسة لفاوست والثانية لأبى المشعال. هذا فيها يظهر من القرائن. وإن يكن المؤلف لم يذكر مع هذه القطع اسم كل منفرد.

بين الصخور وبين المروج ،
تنحدر الجداول والأنهار .
فهل خريراً ما أسمع أم غناء
أم عتاباً حلواً بين أحباب ؟
أم أصوات تلك الأيام السماوية
التي تشتاقيها النفس وتهواها ؟
إن الصدى يرن الآن ،
كما تتردد ذكرى العصور الخوالي .

* * *

أسمع صدئى أقرب إلينا :
صدى البوم والغربان والصقور ،
وهى تنعب وتصيح ؛ فهل بقيت كلها ساهرة ؟
أهذا هو السَّمندر كامناً وسط الأعشاب
بأرجله الطويلة وبطنه الغليظ ؟
وهذى جذور الأشجار ، كأنها الثعابين
تتلوى من بين الصخور والرمال ؛
كأنما تنشر حبال ذات شكل غريب

لكى ترعجنا ، أو تتصيدنا .
وعروق الشجر تمد إلى أرجل المارة أذرعاً طويلة
وهذه الجرذان ذات الأشكال والألوان
قد احتشدت بجموعها وسط الحشائش والأعشاب
وطير الجباحب تطير أفواجاً وزمراً
فتضلل الأفكار وتحير الأبصار .

* * *

لكن قل لى أنحن وقوف
أم لا نزال صاعدين ؟
أرى الأشياء كلها تدور وتور
والصخر والشجر ينظران شزراً
وذوى المشاعل قد تزايد عددهم وتزايد لهيهم

إبليس

تمسك بأذيالي : ولنصعد هذه القمة . فمن هنالك يستطيع المرء أن ينظر ،
فى دهشة وحيرة ، إلى مأمون وهو يتوقد ويتوهج فى جوف الجبل^(١) .

(١) مامون Mammon إليه الذمب ، وجوده فى أعلى الجبل (بروكن) كناية عن أنه من أكبر وسائل الضلال .
وفى القطعة الآتية وصف لتوزيع الذهب أو لسوء توزيعه وتقسيمه بين الناس .

فاوست

ما أغرب وما أعجب هذا الضياء الحزين، يحاكي فى احمراره نور الفجر. وهو يضى السهول والوهاد، بل إن شعاعه ليصل حتى إلى أعماق الأودية وأقصاها. هناك أبخرة تتصاعد. وهناك دخان يتطاير. وهاهنا لهيب وهاج يسطع من خلف الضباب المنتشر. وهو حيناً يبدو كأنه خيط دقيق. وطورا يتفجر كأنه ينبوع. وهنا تراه ينساب بين الأودية، فى كثير من الالتواء والانحناء وله فروع وشعب عديدة. ثم تراه قد تجمع وتراكم فى ذلك الركن السحيق. وانظر عن كثب ماذا ترى الشرر يتطاير كأنه رمل ذهبى منثور. ثم تأمل فى تلك الأسوار الصخرية وكيف تشعل اشتعالا من أسفلها إلى أعلاها.

إبليس

أترى كيف أحسن المولى مامون إنارة القصر من أجل هذا العيد؟ ومن حسن الطالع أن قد أتحت لك رؤية هذا المنظر. الآن أحسن قدوم الضيوف أفواجا وزمرا.

فاوست

إن الإعصار الهائل يدوى زفيفه، ويضرب ناصيتى ضربات أليمة.

إبليس

تعلق بأضلاع الصخور جيدا. وإلا ألقاك الإعصار فى تلك الهوة السحيقة. إن هذا الضباب قد زاد فى ظلمة الليل. ولو أنصت لسمعت صوت الدوح إذ تنهشم وتتحطم، فتطير اليوم منزعة. إن أعمدة تلك القصور الخضراء الأبدية^(١) تنشق وتتمزق، وفروعها تكسر وتبتتر، وجذوعها تنن وترن، وجذورها تجنث أو تنفجر. ثم تنقض جميعا، بعضها فوق بعض، حتى تكاد تسد الهوة، والريح بينها تزار زئيراً، وتصفر صغيراً.

(١) أى الغابات.

ألا تسمع أصواتاً فى الفضاء، منها البعيد ومنها القريب. إن أناشيد السحر
والساحرين تملأ الجبل من أقصاه إلى أقصاه.

ساحرات منشندات

الساحرات صاعدات إلى جبل بروكن،
وقد اصفرَّ الحطب، واخضرت البذور.
هنالك تحتشد الجماهير؛
ويجلس شيخ الأبالسة على رأس الجميع.
!.....

صوت

هاكم العجوز (باوبو)^(٢) آتية وحدها، وقد ركبت ظهر خنزيرة.

المنشندات

الشرف لمن له الشرف...
تفضلنى يا مولاتنا باوبو فقودينا.
فهذا خير خنزير عليه خير أم.

صوت

من أى طريق أنت أت؟

(٢) باوبو (Baubo) هى - فى أساطير اليونان - وصيفة للربة ديمتر Demeter التى أصيبت بفقد ابنتها
برسيفون Persephone فكانت وصيفتها المذكورة تجتهد فى تسليتها بالقصص والحركات المتناهية فى
القبح والفحش حتى تذهب عن الربة حزنها. فجعلها غوتيه فائدة الساحرات فى ليلة واليرغ.

صوت

عن طريق (الزنشتاين)^(١) وهناك نظرت إلى اليوم فى وكرها، فحملت
فى وجهى.

صوت

إلى جهنم أيها الصديق! ولكن مالك تخب مسرعاً.

صوت

إنها سلخت جلدى سلخاً، فأحدثت به ماترى من الجروح.

الساحرات المنشدات.

إن الطريق عريض، إن الطريق طويل.

يا عجباً لهذه الجموع الغريبة.

من كل راكب عصا مكنسة قد تحطمت

أو شوكة قد تهشمت. إن الأمهات، من شدة الزحام،

قد انفجرت منهن البطون، واختنقت الأجنة.

فريق السحرة

نحن نسير ببطء كما تمشى القواقع

والنساء قد سبقتنا بشوط بعيد

ومتى كان الشيطان هو القصد والقبلة.

(١) اسم لمخزة كبرى Isenstein فوق جبال الهارتس.

فالنساء يسبقن بآلاف الخطي

فريق آخر من السحرة

أما نحن فلا نرى هذا الرأي تمامًا؛

حقيقة أن النساء قد يسبقن بآلاف الخطي

ولكنهن، مهما أسرعن وتقدمن،

فبرؤية واحدة يلحق بهن الرجال^(١)

انهضوا ويحكم من بين الصخور وتعالوا معنا.

صوت (من أسفل)

حبذا لو استطعنا أن نلحق بكم إلى العلا. إننا مازلنا نغسل ونتطهر،

غدونا ناصعى البياض؛ وبرغم هذا تذهب جهودنا عبثًا.

المنشدون والمنشدات

لقد خرست ألسن الرياح، وهربت النجوم من السماء.

ويود القمر الحزين أن يستر وجهه عن العيون.

وأفراج السحرة تملأ الآفاق بأزيزها.

وبالشعر المتطاير من وقع خطاها.

صوت (من أسفل)

تهللا! تهللا!

(١) في هذه القطعة رداً قبلها مقارنة ظاهرة بين الرجال والنساء في سيرهم إلى الشر.

صوت (من أعلى)

من هذا المنادى من وسط الأخدود؟

صوت (من أسفل)

خذونى معكم! لا تتركونى! قد قضيت ثلاثمائة عام أجد فى الصعود. ولم أزل عاجزاً عن بلوغ القمة. وأود لو أتيح لى أن ألحق برفقائى ومن على شاكلتى.

المنشدون والمنشيدات

إرْكَبْ عَصْماً أو مكنسة !
اركب شوكة أو اركب جدياً
يحملك كل منها حملاً.
من لم يستطع اليوم نهوضاً وتحليقاً
فقد كتب عليه الذل مدى الدهر .

نصف ساحرة (من أسفل)

لقد طال تسيارى وراءكم، واقتفائى أثركم. ولم يزل بينى وبينكم مدى بعيد.
الويل لى والثبور! إن بقيت فى وطنى لم أجد هناك دعة ولا راحة، وهنا أكدُّ وأكدح فلا
يجدى عنائى شيئاً^(١).

الساحرات المنشيدات

الساحرات مرهم يقوى من عزائمهن
وحسبهن أن يتخذن الخرقه البالية شراعاً؛

(١) لعل هذه العجوز رمز لمن يحاول أمراً فوق طاقته، وكثير مما يورده المؤلف هنا رمز على معنى أو مسألة. ولكن من المتعذر جداً معرفة ما يرمى إليه فى كل حالة.

ومن الطسوت القديمة سفينا،
فتطير بهن في جو السماء.
إن من لم يطر اليوم، فلن يطير أبد الدهر
جميع المنشدين

فإذا ما بلغنا القمة
فانتشروا في كل حذب و صوب !
حتى لا يبقى حشيش أو عشب
إلا وقد غشيته جموع الساحرين والساحرات
(يهبطون جميعا من الجو إلى الأرض)

إبليس

الجماهير تتزاحم وتتدافع، وتصطخب وتضطرب، وتصفر وتزأر، وتتجاذب وتتصادم.
فمن نار تشعل، وشرر يتطاير، وروائح منتنة خبيثة تتصاعد. حقيقة لقد اجتمعت العناصر
السحرية واحتشدت. فتعلق بأذيالي وإلا فسرعان مايفرق بيننا. أين أنت؟
فاوست (من بعيد)

هنا!

إبليس

ما هذا؟ أبعدت عني إلى هذا الحد؟ لا بد لي إذن أن أطالب بحقوقى كصاحب
هذه الدار. أفسحوا مكانا لمروى إبليس! أفسح مكانا إيهما الجمهور العزيز! والآن أيها
الدكتور تعلق بى، ولنخرج من بين هذا المزدحم بوثة واحدة! لم أعد، حتى أنا، قادراً
على تحمل كل هذا. تعالى فإننى أرى هناك فى تلك الناحية شيئاً يسطع نوره، وله بريق
يجتذبنى نحوه اجتذاباً. فهل بنا ولنحدر إليه من بين هذه الأدغال.

فاوست

إنى لأعجب منك ياروح التناقض! أبعد أن كابدنا كل هذا العناء فى ليلة والبورغ
من أجل الوصول إلى قمة جبل (بروكن) تريد الآن أن ننزوى فى مكان منعزل؟

إبليس

انظر ويحك إلى تلك الشعلات من النار، ذات الألوان البديعة! هنالك ناد صغير كله
سرور وفرح، وإنما يكون اللهو والطرب فى المجتمع الصغير.

فاوست

كنت أود البقاء بأعلى الجبل. وهأنذا أبصر هناك ناراً تتأجج، ودخاناً يتصاعد.
والجماهير قد لبث داعى الشرور. فلا بد أن تكون هنالك ألغاز تحل وأسرار يكشف
عنها الغطاء.

إبليس

وهناك أيضاً عقد لن تحل بل تزداد تعقيداً. فذع العالم الكبير يموج بعضه
فى بعض ولنلجأ إلى مكان هادئ أمين. وكم من عالم صغير فى داخل العالم الكبير،
كما قيل فى المثل المأثور.

فى هذا الوادى الصغير أرى ساحرات فى عنفوان الشباب، عاريات من أثياب.
وساحرات عجائز قد لبسن ثيابهن، حزماً منهن وعقلاً. فتجال إذن وتلطف بهن، فإن هذا
لايكافأ، إلا عناء قليلاً، وستجنى من ورائه لذة كبرى. وكأنى أسمع موسيقاهن تعزف
عزفها الملعون. لكننا سنفقد سماعه، فهلم بنا إليهن، وسأسير أمامك لى أريك الطريق.

ها نحن أولاء قد وصلنا! انظر إلى ماحولك! أترى أنه ليس بالمكان الصغير كما
كنت تظن. وأن الطرف يكاد ألا يبلغ مداه، ففي صف واحد أرى مائة نار تستعر
استعاراً. وقد اجتمعوا حولها يرقصون ويطربون، ويطلبون ويشربون، ويتفازلون.
فهل ترى العالم ما هو أجس من هذا؟

فاوست

والآن أتريد أن تظهر أمامهم كساحر أو كشیطان؟

إبليس

إنى وإن كنت اعتدت أن أسير متخفياً فى لباس بسيطة بيد أنى فى أيام الأعياد الكبرى لا أجد بأساً فى أن يظهر المرء فى حله وأوسمته الرسمية. حقيقة أنى ليس لى وسام (ربطة الساق)؛ لكن أقدام الخيل التى لى يعرفها هنا الخاص والعام. أترى ذلك الحزن الذى يزحف نحونا؟ إنه قد استطاع برأسه الممدود أن يتعرف خبيثة أمرى، ويشم رائحتى. فلو أنى أردت التكر هنا لما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

فهل بنا ولنطف بهذه النيران. ولكن أنا لك واسطة ولتكن أنت الحائط..

(ثم يخاطب جماعة جالسين حول نار فى عزلة عن الجميع).

أيها الشيوخ الكرام! ما بالكم قد انتحيتم ناحية عن الجميع؟ وما أجدركم بأن تكونوا وسط المعمة والهيّاج. وحسبكم عزلة حينما تكونون فى منازلكم^(١)

قائد

من ذا الذى يجعل الأمم موضعاً لثقتك؟ إن الإنسان مهمما قدم لها من جليل الخدمات، فما برحت الأمم، دأبها النساء، لا يخلو فى نظرها غير الشباب

وزير

اليوم قد حاد الجميع عن جادة الصواب. فيا حبذا العهد القديم يوم كنا نحن السادة، وليس من فوقنا أحد. كان ذلك العهد هو العصر الذهبى.

(١) هذه الجماعة رمز يمثل لنا نفور الجيل القديم من الجيل الحديث، تلك الظاهرة الأبدية

حديث النعمة

على أنا لم نكن من البلاءة بحيث لم ننتهز كل فرصة سانحة. ولكم أقدمنا على ارتكاب ما لا يرتكب. أما الآن فقد حالت الحال. وضاع من يدنا كل شيء، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الاحتفاظ بمناصبنا.

مؤلف

أتى لنا اليوم أن نجد في العالم من يستطيع أن يقرأ كتاباً ممثلاً بالحكم الجلية وهؤلاء الأحداث ما برحوا يحسبون أنفسهم أية العقل والذكاء. ويسخرون ممن هم أكبر منهم سناً وأكثر تجربة.

إيليس (ظاهراً فجأة بمظهر الشيخ الهرم)^(١)

إنى أحس أن العالم مشرف على الزوال. وأن اليوم الآخر قد دنا. وهأنذا قد صعدت هذا الجبل للمرة الأخيرة. ومادمت قد سأت بى الأحوال، فلا بد أن يكون العالم كله مشرفاً على الدمار!

ساحرة تبيع خفياً نادرة

أيها السيدان لا تمرا بى مسرعين. بل انتهزا هذه الفرصة. وقفا لحظة لتنظرا مالدى من بضاعة فريدة وتحف عديدة. إن فى حانوتى الصغير من الهدايا مالىس له فى العالم نظير. وما من شيء لادى إلا وقد أوقع بالإنسان أو بالعالم أذى مبرحاً. فلا خنجر إلا وقد سال منه الدم القانى مدراراً، ولا قدح إلا وقد انصب منه السم الزعاف فى أجسام ممثلة صحة وقوة. وما من حلية فى حانوتى إلا وقد استخدمت فى استغواء زوجة وفيه حتى خانت حليلها. ولا سيف إلا وقد استل فى القتل غيلة وغدراً.

(١) تهكما من هؤلاء الشيوخ وتقليداً لهم.

إبليس

أيتها الخالة. ما مضى قد فات. والذي فات مات. فلا تزجعي بنا إلى الماضي،
بل انتينا بشيء جديد. فإننا قد سئمنا كل قديم.

فاوست

إن صدق ظني فما نحن اليوم إلا في سوق كبيرة.

إبليس

القوم يموج بعضهم في بعض. ويتسابقون ويتدافعون.

فاوست

ولكن من هذى؟

إبليس

أنظرت إليها جيداً! هذه (ليلات) زوجة آدم الأولى^(١). احذر أن يستهويك شعرها
الجميل، الذي لا تتقلد حلية سزاء. وكم من فتى أغواه حسن تلك الغدائر فلم يستطع
من شراكها خلاصاً.

فاوست

هناك اثنتان جالستان: إحدهما عجوز شمطاء. والأخرى غادة حسناء وقد رقصتا
من قبل رقصاً جميلاً.

(١) في بعض روايات العبرانيين أن آدم تزوج أولاً (ليلات) Lilith وبعد أن هجرته تزوج بحواء، وأصبحت
ليلات شيطانة. والأساطير تعزو إليها أنها تحب التفرير بالفتيان فتوقعهم في شراك غرامها حتى يموتوا حبا
بها. ويقال إن من تصرعه يموت وحول قلبه شعرة من شعورها الجميلة قد ربطت بها قلبه حتى اختنق.

إبليس

ليس اليوم يوم قعود واستراحة. الآن يبدأ الرقص من جديد. فهل بنا ولتدخل المعمة.

(يرقص إبليس مع العجوز وفاوست مع الحساء)

فاوست

رأيت ليلة في منامى شجرة من التفاح

وقد تدلى منها تفاحتان جميلتان.

فاستهواني منظرهما فتسلقت إليهما^(١)

الحساء

إن ولوعكم بالتفاح أمر قديم،

من يوم أن كنتم فى الفردوس.

وإنى لأهتـز سـرورا وطربا،

لأن هذه الثمار فى حديقتى أنا أيضا.

إبليس (راقصاً والعجوز)

رأيت ليلة حلماً خبيثاً. شاهدت فيه شجرة قد انشقت وكان فيها

العجوز

إنى أقدم خالص التحية للفارس المقدام ذى الخرافر .

.....
.....

(١) الغربيون يشبهون النهود بالتفاح، كما تشبه فى بلاد أخرى بالرمان. والتفاحة فى رأى البعض هى الشجرة التى أكل منها آدم وحواء.

بركتو فانناز مست^(١)

ويلكم أيها الملاعين! ما هذه الجراءة المدهشة. ألم نقل لكم منذ زمن بعيد إن الأرواح ليست بالشئ الذى يبدو للعينين أو يمشى على رجلين؟ ولم يكفكم هذا بل أنتم أيضا ترقصون كما نفعل نحن معشر الأدميين.

الحسناء

ما شأن هذا المخلوق هنا؟

فاوست

إنه موجود فى كل مكان. ولا هم له إلا أن ينتقد الرقص والراقصين. فإن بدا له فى رقصهم أمر لم يتسع إدراكه لفهمه عده شيئاً مستحيلاً.

ولا يحفظه فى العالم شئ كأن يرى الناس تمشى إلى الأمام. أما إذا طفقنا ندور فى حلقة محدودة، كما يدور هو حول طاحونته القديمة. فهذا يرضيه ويشرح صدره. وخصوصاً إذا امتدح الناس فيه هذا الجمود وأثنوا عليه.

بركتو فانناز مست

ألا تزالون هاهنا؟ إن هذا لشئ عجاب. يجب أن تتفرقوا ويلكم! ألسنا الآن فى عصر العلم والعرفان؟ ولكن عصابة الشياطين لاتخضع لقاعدة أو سدة. ونحن على شدة

(١) Prokiophantasmist كلمة من اختراع غوته معناها الذى يتحول بمؤخره. ويرمز بهذا الاسم إلى رجل معاصر من برلين اسمه الحقيقى نيقولاى Nicolai. وهو كاتب سخيى وبائع كتب. كان يزعم دائماً أنه لا يعتقد فى الخرافات. ويطلب من كل مؤلف أن لا يذكر الشياطين أو الأرواح فى كتابه ما لئلا يفسد هذا الرجل أصيب به مرض عصبى جعله يتخيل أنه يرى أشباحاً لا وجود لها فجعل يعالج نفسه بأن يضع العلق على مقعدته حتى شفى. ولهذا اخترع له غوته ذلك الاسم. وسيدعوه فى الفصل التالى بالسائح المحب للاستطلاع لأنه كتب كتاباً غاية فى السخف يصف فيه سياحة ساحها. ونيقولاى هذا مثال للرجل الصغير، ذى الأفكار التافهة يريد أن يرغم سائر الناس على الخضوع لأرائه وأفكاره.

ذكائنا وعقلنا قد رأينا العفاريت فى بلدة (تيجل). وقد طالما كنست ساحتى من الأوهام
والخزعبلات، فما تزداد إلا قذاره! إن هذا لشيء عجاب.

الحسناء

إذن فلتكف عن مضايقتنا؟

بركتو فانترزمست

إنى أقول لكم أيها الشياطين جهاراً، بأننى لا أطيق استبدادكم هذا. وعقلى
لا يخضع لهذه السخافات.

(الرقص لا ينقطع)

أرى جهودى اليوم تذهب كلها أدراج الرياح. فلم يبق أمامى سوى الإكثار من
الرحلات والأسفار. ولعلى أستطيع - قبل المات - أن أنتصر على الشياطين وعلى
الشعراء جميعاً.

إبليس

إنه سيذهب الآن إلى مستنقع قريب من هنا. فيجلس فيه لحظة، فيأتى العلق
فينشب بمقعده ولا يزال يمتص من دمه، حتى يداويه من ألم العفاريت ومن رؤية
الشياطين.

ولكن (مخاطبا فاوست الذى كف عن الرقص) ما بالك قد غادرت الغانية التى كانت
تنشدك تلك الأغانى العذبة وأنت ترقص معها؟

فاوست

بينما أرقص معها وثبت من فمها فأرة حمراء.

إبليس

هذا لعمرك شيء حسن، وأجدر ألا يحزنك حدوثه. وحسبك أن الفأرة لم تكن رمادية اللون كسائر الفيران. ومن ذا الذي يبالي بهذه الأشياء التافهة في ساعة الغزل والغرام؟

فاوست

ثم أبصرت أمراً عجباً! هناك، على بعد عظيم، فتاة حسناء شاحبة اللون واقفة وحدها. إنها تتدافع في مسيرها كأن في رجليها سلاسل وأغلالا - ولقد يخيل لي أنها شديدة الشبه بمرغريت.

إبليس

دع عنك هذه الأوهام، التي لا طائل تحتها. وهل رأيت إلا صورة مسحورة ووهما يتمثل لعينيك؟ وليس بنافع أحداً أن ينظر إليها. فإنها إن أطالت التحديق في أحد جمد الدم في عروقه، بل ربما استحال صخراً أصم. ومن قبل ماسمعت بالميدوزا^(١).

فاوست

أجل إن عينيها حقيقة كأعين الموتى، الذين لم تغمض أجفانهم يد صديق ساعة الوفاة. ولكن هذا هو الصدر بعينه الذي كانت تسنده مرغريت إلى صدرى، وذاك هو الجسد الغض الذى طالما نعمت به.

إبليس

إن هذا إلا سحر أيها الأبله الذى سرعان ما ينخدع! فالميدوزا تبدو لكل امرئ فى صورة محبوبته.

(١) الميدوزا فى أساطير القدماء مخلوقة شعورها ثعابين والذى يراها يستحيل حجراً.

فاوست

إنى أحس مزيجاً من النشوة والحزن المبرح. ولا أستطيع أن أحول عيني عن هذا المنظر، وعجيب أن يكون حول هذا العنق الجميل خيط أحمر قانى، دقيق جداً كأنه نصل سكين.

إبليس

وأنا أيضاً أرى هذا. ولقد تبدو الميدوزا وهى تحمل رأسها تحت إبطها لأن (برسيوس) قد جذب ناصيتها. أراك ما زلت ولوعاً بكل ما يصوره لك الوهم والخيال. فاطرح عنك هذا وتعال بنا نصعد هذا الكتيب. فنحن فى مكان لا يقل عن بستان (براتر) بهجة ورواء^(١) ولهواً ولعباً. وإن صدق ظنى فهذه دار تمثيل.

ماذا عندك يا هذا؟

رئيس الخدم

سنبدأ الساعة تمثيل قطعة أخرى. وهى آخر القطع السبع التى تمثل اليوم. ومن عادتنا أن نقدم للجمهور قطعاً كثيرة. وكلها قد كتبها قوم هواة. ويمثلها أيضاً قوم هواة. ولا تؤاخذونى إن رجعت الساعة فإنى أريد أن أرفع الستار.

إبليس

يسرنى أن ألقاكم هنا على قمة (بلوكسبرغ). فهنا موطنكم الحقيقى.

(١) حديقة براتير Prater هى الحديقة الكبرى لمدينة فيينا.

(٢٢)

رؤيا ليلة والبورغ

حفلة العرس الذهبى لا بيرون وطيطانيا^(١)

(قطعة تمثيلية)

رئيس المسرح

اليوم قد أرحنا (ميدنج) وفتيانه البواسل^(٢)، فلم نكلفهم أن ينقشوا لنا المناظر الجميلة والستائر المزركشة. فحسبنا اليوم منظراً هذا الوادئ الرطب وهذا الجبل القديم.

(١) هذه هي القطعة التى أشير إليها فى آخر المنظر السابق، وهى تمثل أوبرون Oberon وزوجته Titania وهما ملك وملكة الجن. وكان بينهما خصام ثم اصطلحا ويحتفل الآن بهذا الصلح؛ فاجتمعت فرق المنشدين والموسيقيين والراقصين. وكذلك جمهور كبير من المتفرجين. وهذه القطعة كلها لا علاقة لها بقصة فاوست. وسبب وجودها هنا أن غوتيه وشيلر نشرا مرة قطعة شعرية كانا ينظمانها بيتين بيتين وسميها Xenia وفى كل بيتين انتقاد لفكرة أو لشخص أحد المعاصرين. وقد أحدث نشر هذه القطع ضجة كبرى بين الكتاب وقتئذ. فنظم غوتيه مجموعة أخرى من هذه القطع. ولم يرد شيلر أن ينشرها فى مجلة كان يصدرها. وقرر غوتيه أن يجعل لها مكانا فى (فاوست): فأوجد لها هذا المنظر. والقطع انتقاد لأفراد من معاصرى غوتيه أراد أن يسخر منهم وأكثرهم الآن قد نسى ذكره. فأصبحت القطع غامضة جدا ويجعل بالقارئ أن يمر بها مرا. خصوصا أن ليس لها أدنى دخل فى قصة فاوست.

(٢) ميدنج رجل كان ينقش الستائر والمناظر فى عصر غوتيه.

المنادى

ليس اليوم يوم العرس الذهبى لمضى خمسين عاما . بل لأن الخصام قد زال وحل محله الوفاق والوئام .

أوبيرون

يا عصبية الأرواح! لقد عاد الصفاء فربط بين قلبى الملك والملكة . فإن كنتم تشاركوننا فى السرور والسعادة فأظهروا ذلك الساعة!

بوك (العفريت المازح)

لقد جاءكم (بوك) يسعى ويمرح ، ويجر رجليه على الأرض جرأً ومن خلفه مئات العفاريت جاءوا ليمازحوه ويضاحكوه .

أريل (عفريت)

يهتف أريل بالأناسيد الشجية ، ذات الأنغام السماوية الصافية .

ولئن جذب غناؤه الأشرار ، فلقد يجذب الأخيار أيضاً .

أوبرون

تعلموا منا جميعاً! إن أردتم أن يسود الحب والوئام بين الزوجين فما عليكم إلا أن تفرقوا بينهما ، كيما يعود الحب فيؤلف بينهما .

طيطانيا

إذا ساءت فعال الرجل ، أو ساء خلق المرأة ، فأمسكوا كلا منهما بقوة واذهبوا بأحدهما إلى الشمال وبالأخر إلى الجنوب .

المنشدون (بقوة)

ليس المنشدون اليوم سوى عصبة الذباب والبعوض ومن على شاكلتهم. وزمرة الضفادع فى الخمائيل، والجنادب وسط الحشائش.

أحد المنشدين

انظروا إلى القرية ذات الصوت الرنان. وكأنها رغبة صابون قد نفخ فيها ومن أنفها الأفطس تتصاعد النغمات الغريبة، والأصوات العجيبة.

عفريت فى دور النمو

ليس لهذا المخلوق الصغير سوى أقدام العنكبوت، وبطن كبطن الضفادع وأجنحة صغيرة منضمة. فإن لم يكن بعد حيواناً صغيراً، فهو - على الأقل - قطعة شعر ضئيلة.

زوج صغير^(١)

أى قصار الخطى! أنى لكما الوثوب إلى العلا، مابين قطرات الندى المتساقطة، ريح الأزهار الفائح؟ سيرا ماشتما بخطا كما الضئيلة، فهيها أن تصعدا فى الهواء شبراً.

سائح محب للاستطلاع^(٢)

أليس هذا كله ترهات باطلة؟ وإلا فهل أصدق ما تره عينى بأن أو يرون ذلك الإله الجميل واقف أمامى؟

(١) زوج هنا أى اثنان والصغر ليس صغر الحجم. بل صغر القدر الأدبى. وقد أراد غوته هنا أن يسخر من أخوين انتقاده هو وشيلر.

(٢) هو نيقولاى. وقد ذكر فى المنظر السابق.

أورثوذكس^(١)

إنه ليس إلها بل شيطاناً رجيماً مثل آلهة اليونان، وإن لم يكن له ذنب أو مخالف.

فنان من الشمال^(٢)

لئن كانت أعمالي التي أقوم بها ناقصة مبتورة فاعذروني، فقد شغلني الاستعداد لرحلتي إلى إيطاليا.

رجل محب للحشمة

إن نكد الطالع ساقني إلى هذا المكان الكريه، حيث الوقار منبوذ والحشمة ضائعة. ساحرتان فقط تلبسان ثياباً، والأخريات عاريات!

ساحرة شابة

ليست الثياب لعمر ك إلا للعجوز الشائبة. أما أنا فأجلس عارية على ظهر جدي وأرى العالم جسدي الغض.

عجوز

لنا من أدبنا ووقارنا ما يمنعنا من مجادلة مثلك. وإنني لأتمنى لك العطب العاجل رغم شبابك الناصر.

رئيس المنشدين

ويحكم معشر الذباب والبعوض، لا تتجمعوا حول الغادة العارية؟

وأنتم أيها الجنادب والضفادع، لا تخرجوا عن أصول النغمة؟

(١) أي رجل متدين ولا يعلم من عناء غوته.

(٢) أي غوته نفسه وكان يفكر في سياحته إلى إيطاليا.

المذبذب (ناظراً إلى أحد الفريقين)

جمع من العرائس الحسان، ليس وراءهن للنفس مطمح.

وشبان هم خيرة الرجال ومنتهى الآمال.

المذبذب (ملتفتاً إلى الفريق الآخر)

لئن لم تنشق الأرض فتبتلعهم جميعاً، لأسرعن أنا إلى الجحيم فألقى بنفسى فيها

أكسنيا^(١)

نحن الحشرات الصغار، ذات المقارض الحادة. جننا لكى نكرم أبانا ومولانا
إبليس بما يليق بمقامه الأسمى.

هنجس^(٢)

انظر إليها وقد تجمعت واحتشدت. وأخذت تمزح مزاحها الثقيل. ثم تزعم بعد
ذلك أنها كانت حسنة النية.

رئيس الموزا

يحلو لى جداً أن أندمج وسط هذا الجمع من الساحرات؛ فإنهن أسهل مراساً
وأساس قياداً من آلهة الشعر والفنون^(٣).

(١) أصل معنى كلمة أكسنيا هو الهدايا التي تقدم للضيوف. فاستخدمها شيلر وغوته بمعنى تلك الأبيات اللاذعة التي نشرها.

(٢) Hennings كاتب انتقد الأكستيا فى مخنثة المسماة روح العصر وكذلك نشر قطعة شعرية بعنوان رئيس الموز Musagetes وغوته يسخر منه هنا فى الثلاث القطع التالية.

(٣) أى الموز Muses.

روح العصر (سابقاً)

ما يقدر الإنسان قدره إلا الرجال الأفاضل. فتعال وتمسك بأنديالى.
فإن لجبل بلوكسبرغ قمة فسيحة الأرجاء كأنها قمة جبل (بارناسوس)

السائح المحب للاستطلاع

قل لى بأبيك. ما خطب هذا الرجل الجامد الذى يمشى فى الأرض مرحاً وكبراً
ويشم بأنفه كل شىء يراه؟

«إنه يقفو أثر اليسوعيين!»^(١)

كركى^(٢)

أحب الصيد فى الماء الصافى، وكذا فى الماء العكر، فلا تعجبوا إذا رأيتم الرجل
المتدين أحياناً فى صحبة الشياطين والأبالسة.

رجل الدنيا

إن المتدينين - وأبيك - قد اتخذوا كل شىء وسيلة لنيل مأربهم. فلا عجب إذا
رأيتهم هنا فوق بلوكسبرغ جماعات وزمراً.

راقص

الآن تجى جماعات جديدة من المنشدين^(٣). وهأنذا أسمعهم يدقون طبولهم.
فأنصتوا لأصواتهم المتكررة المملة، التى تحاكي زعيق الأوز.

(١) كان نيقولاى ييغز اليسوعيين.

(٢) رجل معاصر لفوتيه واسمه الحقيقى لافاتر Lavater وكانت مشيته تشبه مشية الكركى.

(٣) الجماعة السابقة أكثرها من الأدباء، والجماعة الجديدة من الفلاسفة وأضرابهم.

الفقيه

إنهم لن ينتصروا على بالنقد والصياح. وإثارة الشكوك فى صدرى. فالشيطان موجود حقيقة. وإلا لما كان هناك شياطين.

الكثير الأحلام

إن الأحلام التى امتلأ بها خيالى، قد استبدت بى هذه المرة أى استبداد. ولعمري لو كان كل ما أتوهم الآن صحيحاً، فأنا اليوم مخبول معتوه.

رجل الحقائق الملموسة

أصبحت وكل ما فى الوجود مصدر لعذابى وإعنائى. وأرانى للمرة الأولى فى عمري غير واثق من نفسى؛ وتوشك عقيدتى أن تتزعزع^(١).

مؤمن بالعجائب

إن وجودى فى هذا المكان لمن أكبر بواعث الفرح، ويسرنى جداً أن أرى كل هذه الجماعات. ومن السهل على. بعد أن أبصرت الأرواح الخبيثة أن أهدى إلى حقيقة الأرواح الطاهرة.

متشكك

إنهم يقتفون أثر لهيب، ويحسبون أنهم قد أوشكوا أن يظفروا بالكنوز الغالية. على أنى لا أرى إلا أن الشياطين والشكوك أفاظ متشابهة^(٢). ومن أجل هذا أنا هنا.

رئيس المنشدين

ويل لكن أيتها الضفادع فى الخمائل والجناب وسط الحشائش، ولعنتم من هواة للنشيد والعزف.

(١) أى لرويته الشياطين والعفاريت وهو ليس ممن يؤمنون بشيء من هذا.

(٢) هى كذلك فى الألمانية Tenfel we Zoefel.

أما أنتم يازمرة البعوض والذباب! فحييتم من عازفين ومنشدين.

المتقلبون: أما نحن فنلبس لكل حالة لبوسها. فإذا كنا لم ننتفع بالمشى على الأقدام فلنمش إذن على رؤوسنا.

البائسون: كم أكلنا فيما مضى وشربنا! أما اليوم فيا ويلنا! قد رقصنا حتى خرقت نعالنا وبتنا نمشى بأحذية غير ذات نعال.

ذوو المشاعل: قد أتينا من المستنقعات حيث نشأنا ودرجنا. وعلى رغم هذا قد وقفنا هاهنا وسط الصفوف فكنا كأحسن من فيها.

الشهاب الساقط: لقد سقطت من السماء ولى ضياء النجوم اللامعة والنيران الساطعة، ثم هويت طريحاً على الثرى، فهل من أخذ بيدي فينهضنى؟

الضخام الأجسام: أفسحوا لهم مكاناً أفسحوا ! إنهم يدوسون الأعشاب ويسحقونها سحقاً، هم كذلك من الشياطين، على الرغم من ضخامة أجسامهم وغلظ أرجلهم.

بوك (المازح): بأبيكم لا تمشوا فى الأرض مرحاً، كأنكم فيلة أبناء فيلة؛ فليس اليوم من هو أضخم جسداً من (بوك) نفسه.

أرييل Ariel: بما وهبتكم الطبيعة من أجنحة ومن روح، ومن مقدرة على الطيران، أناشدكم أن تتبعونى وتقتفوا أثرى إلى ذلك الكثيب الذى تكسوه الورود.

المنشدون (بصوت خافت)

لقد أخذ السحاب المنتشر والضباب الكثيف يضيآن بنور الفجر وقد هب النسيم فى الخمائيل والرياح فى الغاب. وزال كل شىء وانمحي^(١).

(١) أى طلع الفجر فانتتهت ليلة واليوردغ وانصرف الجن بأسرع مما احتشدت، ثم تعود قصة فاوست إلى سيرتها الأولى.

(٢٣)

المنظر: أرض فضاء

يوم عبوس متجههم

فاوست - وإبليس

فاوست^(١)

وأما لتلك الحسناء العذبة الروح! أمكذا تسقط إلى بؤرة الشقاء وهوة اليأس؟
أمثلها تترك لتهم على وجهها زمناً طويلاً، طريدة مشردة، ثم يقبض عليها ويلقى بها
فى أعماق السجون، حيث تعاني أشد الويل وأمر العذاب! فيا ويحها من تعسة قد
أناخت عليها الهموم وألحت عليها التوائب.

وأنت أيها الشيطان الدنى والخائن، أتخفى عنى كل هذا؟ ثم تقف أمامى مقلباً
عينيك الجهنميتين - وملؤهما الحقد والضغن - فى رأسك الخبيث؟ ولا هم لك إلا معاندتى
ومشاكستى.

ألى السجن يذهبون بها حيث تعاني من البلاء ما يسحق الجسم ويوهن النفس
ويستحيل الآن دفعه ورده؟

حيث تسمى فريسة الوسواس الشيطانية، ورهينة لقضاء بشرى ظالم جائر،
خلو من الحس وصفر من الرحمة.

(١) وقد علم للمرة الأولى بمصير مرغريت.

يجرى كل هذا فتبعدنى عنه وتلهينى عن تذكره. تذهب بى إلى تلك الملاهى
الممقوتة المرنولة؛ وتخفى عنى ما هى فيه من عذاب شديد وحزن مبرح. تتركها بلا نصير
وسط هذه الكوارث الأليمة!

إبليس

إنها ليست الأولى!

فاوست

ويلك أيها الكلب! أيها الوحش البشع الصورة! رحماك أيها الروح الأبدى! أنزل
بهذه الشيطان سخطك ومقتك! أعد هذه الأفعى إلى صورة الكلب الدنس. وقد رأيته
يحلوله أن يتشكل بصورة الكلب فى الليالى الدامسة؛ ثم يلقي بنفسه بين قدمى أحد
المارة حتى إذا سقط المسكين على الأرض تعلق بأكتافه ليزيد فى تعذيبه وإيلامه!
فأناشدك أيها الروح القدير إلا حولته إلى تلك الصورة التى تهواها نفسه. ثم أرغمته
على أن يزحف فى التراب أمامى فأسحقه برجلى سحقاً وأمحقه محققاً!

ليست الأولى!

يا للويل والثبور! ويل لا يدركه العقل ولا يتصوره الحس.

لئن كان قبلها من عانى مثل ما تعانى اليوم؛ فهل قدر لأكثر من واحدة أن تغرق
فى أعماق هذا العذاب؟ أما كفى أن قد كابدت الأولى هذا الشقاء؛ فطعمت صابه،
وعانت أوصابه، وقاست من ويلاته ما فيه تكفير عن جناية من بعدها من البائسات
تكفيرا ترضاه رحمة الرب الغفور.

اللهم إن الألم يبىرى جسدى وروحى من تصور ما تعانىه هذه التعسة وحدها؛
وأنت أيها الشيطان تبسم سخرية واستهزاء لما تكابده الآلاف من مثيلاتها.

إبليس

أرانى مرة أخرى وقد كاد معين صبرى ينضب، وجعبة حيلى تفرغ؛ إذ أراكم
معشر الآدميين وقد غادركم الرشد وطاشت بكم الأحلام. لماذا تتعاقدون وإيانا على

أمر إذا كنتم عاجزين عن المضي فيه؟ كيف تحاول أن تحلق في الجو وأنت غير آمن من أن ينتابك الصداغ؟ أكنّا نحن الذين ألقينا بأنفسنا عليك وأرغمناك على مصاحبتنا أم أنت الذي رميت بنفسك علينا؟

فاوست

أقصر ويك ! ولا تكشر لى عن أنيابك الشوهاء فإن نفسى تشمئز لمراها .
رحماك أيها الروح الجليل! يا من تكرمت فسمحت لعينى أن ترياك!
يامن يحيط علماً بخفايا نفسى وأسرار قلبى؟ لماذا ألزمتنى صحبة هذا الزميل
الشقى الذى لا يتغذى إلا من الشرور ولا يرتوى إلا من الدمار والخراب؟

إبليس

عساك قد انتهيت.

فاوست

لابد لك أن تنقذها وإلا فالويل لك! اللعن والمقت نصيبك آلاف السنين إن لم تنقذها.

إبليس

إن عقدة المنتقم الجبار قد عقدت، ولا قدرة لى على حلها . والرّناح الهائل قد أوصد،
ولا سبيل إلى فتحه.

تسألنى أن أخلصها . أينما دفع بها إلى الدمار أنت أم أنا؟

فاوست

(يلتفت حوله وقد أخذ منه الغيظ مأخذه).

إبليس

كأنك تريد أن تتناول الصواعق بيمينك!

لعمري إنه لمن حسن الطالع أن مثل هذا لم يتح لكم يا بني الفناء! إن النفس العاتية الظالمة إذا غدت فى مأزق لاتجد ما يفرج كربتها سوى أن تسحق كل من يعترضها ولو كان من الأبرياء.

فاوست

اذهب بى إليها ! لا بد من تخليصها .

إبليس

اذكر مافى سبيلك من الأخطار! أنسيت البلدة التى ما برحت تطالب بثأر القتل الذى سفكت دمه يدان؟ إن ملائكة النعمة تسبح فوق مصرع كل قتل؛ فلا تزال كامنة متربصة لعل القاتل يعود.

فاوست

أمتك يقول لى مثل هذا؟ وعلى رأسك جريرة قتل العالم بأسره! أيها الوحش البشع؛ قلت لك اذهب بى إليها وأطلق سراحها .

إبليس

سأذهب بك إليها ولكن اذكر أنى لست مسيطراً على ملكوت السموات والأرض. وإنما أفعل ما أقدر عليه. سأسعى حتى أفقد سجانها رشده. أما أنت فانتزع منه المفاتيح. ثم اذهب ففك عقالها. ولتخرجها من السجن يد آدمية. أما أنا فسأولى الحراسة. وأعد الخيل المسحورة ثم أذهب بكما بعيداً . وهذا كل ما أستطيع عمله.

فاوست

إذن هلم بنا!

(٢٤)

أرض فضاء

فى ظلام الليل

(فاوست وإبليس. على صهوة جوادين أدهمين. وهما يخبان مسرعين)

فاوست

ترى ما الذى يفعلونه هناك. كأنهم ينسجون حول المشنقة نسيجاً.

إبليس

لست أدري ما عساهم يصنعون.

فاوست

لكأنى أرى أشباحاً تعلق وتهبط وتتناول أشياء فتحنيتها ثم تثنيتها.

إبليس

إخالهم عصابة من الساحرات^(١).

(١) يمر فاوست وإبليس بالمشنقة التى ستشنق عليها مرغريت. وقد تجمع حولها فريق من الساحرات لكى يقرين القرايين للأرواح الشريرة. كما تقضى بذلك الخرافات الشائعة.

فاوست

كانهم يبعثرون أشياء ثم يقربون قرباناً .

إبليس

أَمْضِ بنا في طريقنا .

(٢٥)

فى السجن

فاوست

(واقفا أمام باب من الحديد وفى إحدى يديه مفاتيح وبالأخرى مصباح)
أرانى وقد انتابتنى رعدة قد طال عهدى بمثلها . وكأنى أحس من الآلام قدر
ما يعانىه العالم أجمع .
لقد ألقوا بها فى غياهب هذا السجن تحيط بها هذه الجدران الرطبة . وما ارتكبت
لعمرى من جرم سوى ماصوره لها الوهم وسولت لها الأحلام .
يمسك بالقفل ليفتحه فيسمع صوتا من الداخل يغنى^(١)
ويل لأمى العاهره ! قد أسلمتنى للمنون
ويل لها من فاجره ! ويل لوالدى الخؤون !
طوبى لأخت راحمه ! دفنت عظامى فى التراب
بين الغضون الناعمه والورد محمر الإهاب

(١) هو بالطبع صوت مرغريت وقد سجنّت لأنها قتلت طفلها بأن ألقتة فى غدير . وقد أصابها خبل من جراء هذا ، فكلامها مضطرب ، وهى تنشد أغنيّتها بلسان طفلها .

فبعثت من وسط الشجر طيراً أنوح على الغصون
متنقلاً بين الزهر: بين الجداول والعيون

فاوست

(يفتح القفل)

ما إخالها تعرف أن حبيبها على قاب قوسين وأنه يسمع صليل قيودها وحفيف
فراشها الجاف.

(يدخل غرفة مرغريت)

مرغريت

(تحاول الاختفاء تحت الفراش)

أواه! ويلاه! إنهم قد أتوا يحملون إلى الموت الزؤام.

فاوست (ممساً)

صه! صه! ما أتيت إلا لإنقاذك.

مرغريت

(مرتمية على قدميه) إن كان بين جنبيك قلب يرق فارث لمصابي!

فاوست

ويحك لا توقظي السجانين بصياحك.

(يفك قيودها)

مرغريت (راكمة)

أيها الجلال! أتى لك الحق والمقدرة؟ أن تسوقنى إلى حتفى وسط هذا الليل البهيم؟
ألا قلب رحيم يردعك فتتركنى أعيش حتى الصباح؟

(تنهض واقفة)

أأقتل ومازلت فى ريعان الصبى؟ ومنذ زمن غير بعيد كنت عادة حسناء ذات جمال، ولو أن هذا كان علة شقائى وأصل بليتى، وكان إلى جانبى صديق ودود.
أما الآن فقد نأى عنى. بعد أن مزق الإكليل وبعثرت الزهور، وفرقت أيدى سبا.

بربك! لاتمتد إلى يد القسوة والغلظة!

ارأف بى! ولا تدعنى أسترحك عبثاً.

ماذا أجزمت نحوك وأنا ما رأيتك فى حياتى من قبل.

فاوست

يوشك هذا الألم المبرح أن يقضى علىّ.

مرغريت

هأنا ذى بين يديك فافعل بى ماتشَاء. لكن أمهلنى قليلا حتى أضع طفلى.

لقد كنت أناغيه وألاعبه طول ليلتى هذه، ثم جاءوا فانترعوه من بين ذراعى
فأعقبوا لى الحزن والضنى. ثم زعموا أنى قتلته. فواحزننى! إن السرور لن يجد إلى
قلبى مدى الدهر سبيلا.

يؤلنى أن أسمع الناس وقد جعلوا من قصتى أغنيات يتغنون بها، وأناشيد يتداولونها.
فياو يحهم! ماذا حدا بهم إلى سلوك هذا المسلك!

فاوست

(راكعاً أمامها) إن الحبيب الذى تيمه حبك يركع الآن بين يديك وقد جاء ليفك عقالك ويطلق سراحك.

مرغريت (راكعة)

لنركع جميعاً ولنبتهل إلى الأولياء والقديسين ! انظر ! هلى تبصر ماتحت هذه الأحجار؟ إن نيران الجحيم الهائلة كامنة تحت عتبة هذه الغرفة والشيطان جالس هناك، تتورثايرة أحقادها، وتغلى مراحل غيظه.

فاوست

(بصوت عال) مرغريت! مرغريت!

مرغريت

(تنهض واقفة فتسقط عنها الأغلال)

رباه! هذا صوته! هذا صوت الحبيب. ولكن أين هو؟

لقد سمعته ينادينى، فوافرحى! إننى الآن طليقة حرة.

ولن يجرؤ أحد على حبسى ومنعنى! لأننى سأرتمى على عنقه وأتعلق به. لقد نادانى: مرغريت، مرغريت، وكان واقفاً هناك على تلك العتبة. وقد سمعت صوته العذب الجميل برغم مايحيط بى من نيران الجحيم التى مابرحت تستعر وتلتهب، وتزأر وتزمرجر، فتصم الآذان.

فاوست

ها أنذا بين يديك.

مرغريت

أأنت هو؟ بالله أعد ذكر هذا على مسمعى (تتعلق به). أجل إنه أنت. فوا فرحتاه! عفاء على الآلام والأسقام وبعداً لمخاوفى وأشجائى التى أثارها هذا السجن وهذه القيود.

أجل إنه أنت، وقد جئت لإنقاذى. لقد أنقذت. لقد نجوت. وكأنى الآن أرى ذلك الطريق الذى قابلتك فيه لأول مرة، والحديقة الجميلة التى كنت فيها أنا ومارتا تترقب زيارتك بشغف وتلهف.

فاوست (يحاول أن يخرج بها من الغرفة)

تعالى معى! تعالى معى!

مرغريت

رويدك. ابق معى قليلاً! إنى ليحلولى البقاء إلى جانبك.

(تلاطفه وتعانقه)

فاوست

عجلى، فلئن لم نسرع من هنا ساعت العاقبة، وندمنا ولات ساعة ندم.

مرغريت

ما بالك لا تقبلنى؟ هل بت عاجزاً عن التقبيل؟ إن عهدك بى ليس بعيداً. فكيف أنساك التقبيل هذا الفراق القصير؟

مالى خائفة مضطربة وأنا أعانقك الساعة! ولقد كنت من قبل أجد فى حديثك ونظراتك ولتوماتك نعيم الجنان وبهجة الروح وسعادة العمر. كنت إذ ذاك تلثمنى حتى تحتبس أنفاسى. والآن أما تريد أن تقبلنى! إذن أقبلك أنا (تقبله).

ويلاه، إن شفتيك باردتان. قد خبت نارهما المتأججة. كما خمدت جمرة غرامك
المشتعلة. فيا ويلى! من الذى كاد لى هذا الكيد؟

فاوست

تعالى أيتها الحبيبة. اتبعينى، تشجعى! ولسوف أعانقك عناقاً حاراً وأقبلك بشفاه
متقدة، ورجائى إليك الآن أن تسرعى فتتبعينى.

مرغريت (ملتفة إليه)

أهذا أنت حقاً؟ أهذا أنت من غير أدنى ريب؟

فاوست

أجل أنا هو فأناشدك الله أن تتبعينى.

مرغريت

إذن يا للعجب! كيف جئت تفك أغلالى وتضمنى بين ذراعىك. كيف لا تولى وجهك
عنى ذعراً واشمنزاً؟ أتعلم أيها الصديق من الجانية التى تريد تخلصها؟

فاوست

تعالى! عجلى! إن الساعات تمر سراعاً، والليل مضى أكثره.

مرغريت

لقد جرعت أُمى كأس الحمام، وأغرقت طفلى بيدي.

فيما ويلى! ألم يكن هذا الطفل هبة قد منحناها أنا وأنت! أجل لقد كان هبة
لك ولى.

أراني لا أكاد أصدق أنك أنت معي الآن. ضع يدك في يدي حتى أومن أنني
لست في حلم. ناولتي يدك! لكن ما بالها مبتلة وكأني أرى الدم يسيل منها فواهاً لك!
أي شيء صنعت؟ ناشدتك الله ألا أغمدت هذا الخنجر!

فاوست

لا تذكريني بالماضي، فإن الذكرى تثير شجني وتوشك أن تقتلني.

مرغريت

لا. إنك ستعيش. ويجب أن تعيش. دعني أنا أصف لك القبور وما انطوت عليه.
وعلى ذكر القبور أريد منك أن تعني بأمرها من الغد فاجعل أحسنها لأمي؛
ثم ضع أخي إلى جانبها؛ ثم ادفني إلى جانبها ولا تبعدني عنهما كثيراً ثم ضع طفلي
الصغير إلى جانبي عند ثديي الأيمن. ولاتدع أحداً سواه يقترب مني.
أيها الحبيب لقد مضى زمن كنت أجده فيه السعادة كل السعادة في اعتناقك
والتزامك والآن هيهات لي مثل هذا النعيم، إنني ليخيل لي كأني أحاول أن ألقى بنفسي
بين يديك فتدفعني عنك بغضب وازدراء.

وها أنت قد جئتني اليوم ونظراتك ملؤها الصلاح والتقوى.

فاوست

فأما وقد أيقنت أنني أنا هو فتعالى معي! أسرع!

مرغريت

أخرج من هنا؟

فاوست

نعم، إلى الهواء الطلق، إلى الحرية.

مرغريت

هل أعددت القبر هناك؟ أهنالك ينتظرني الحمام؟ إذن هلم بنا، هلم إلى مهد الراحة الأبدية، وهناك فلتتركنى ولا تذهب بى خطوة أخرى، أناهب الآن؟ وهل لى أن أصحبك ياهنرى؟

فاوست

أجل يجب أن تصحبينى، فما لك لا تريدين ذلك؟ إن الباب مفتوح فهلمى لنخرج!

مرغريت

لا، ليس لى أن أخرج من هنا.

إنى أصبحت وقد قطعت من خلاصى كل رجاء، ماذا يجدى الهرب وإنهم ليتربصون بى السوء حيثما سرت، ولعمرى إنه لمن أشد البلاء أن أعيش عيش المتسولين وأعانى وخزات الضمير الأليمة.

وماذ يجدينى أن أسبح فى الأرض غريبة شريفة ثم يقبضون على ويعودون بى إلى السجن؟

فاوست

سأبقى إلى جانبك.

مرغريت

برك أسرع، أسرع لإنقاذ طفلك المسكين.

اصعد فى الطريق إلى جانب النهر حتى تصل إلى وسط الغابة، فإذا بلغت الغدير أبصرت عن يسارك لوحا من الخشب ممتدا إلى حافة الماء؛ هناك فالتمس الطفل، انتشله من وسط الغدير، إنى لأراه الآن وهو لا يزال يجاهد ويحاول أن يطفو على وجه الماء. أنقذه، أنقذه، برك أنقذه...

فاوست

تدبرى أمرك قليلا، خطوة واحدة من هنا. ثم تصبحين حرة طليقة.

مرغريت

من لى بأن نصبح وقد جاوزنا هذا الجبل وتركتاه خلف ظهرنا؟ أما اجتيازه الآن فأمر شديد. إن أمى جالسة هناك على صخرة. ولى! ما لجسمى الآن يرتعد ويقشعر. أجل إن أمى جالسة هناك فوق صخرة، وأرى رأسها يهتز تعباً وإعياء. عينها لا تبصر، فكرها لا يعى. قد استولى عليها سبات عميق. لقد رقدت رقاداً طويلاً ليس من بعده إفاقة.

ما نامت هذا النوم إلا لكى ألهو وإياك وألعب. أوقات ما كان أطيها وأعذبها.

فاوست

هذا موقف لا يجدى فيه الرجاء ولا السؤال. ولم يبق إلا أن أحتملك قسراً.

مرغريت

لا تمد يدك إلى، لا أطيق هذه الغلظة. أتهاجمنى مهاجمة القتلة الشريرين. لقد كنت يوماً ما أطوع لك من بنائك.

فاوست

عزيزتى، عزيزتى، إن الفجر يوشك أن يطلع.

مرغريت

الفجر، أجل لقد طلع الفجر. وقريبا تطلع شمس يومى الأخير، لو ساعد الجد لكان هذا اليوم يوم عرسى.

لا تقل لأحد إنك كنت فى صحبة مرغريت.

أسفى على! إكليلى الذى فقدته، لو كان يجدى الأسف.
إننا سنلتقى ثانيا، لكن لا فى المراقص وأماكن اللهو.
ما هذا الذى أراه؟ إن الجموع قد احتشدت وأصواتهم قد خفتت وضاق بهم
الميدان الفسيح والطرق على رحبها.
لقد دقوا النواقيس إيدانا بموتى، وكسروا العصا^(١)...
انظر! ها هم قييونى وغللونى وأسلمو. مقصلة...
الآن ينقض الصارم على عنقى، وكأنما ينقض على أعناق الناس جميعاً،
فتراهم قد خرسوا وسكنوا سكون الموتى.

فاوست

يا ليتنى لم أولد فأعانى كل هذا!

إبليس (واقفاً بباب الغرفة)

هلمنا، وإلا قضى عليكما. عبث كل هذا التردد والإحجام والتحادث والتساؤل.
إن خيلى ترتعد من طول الانتظار، والصبح أذن بالطلع.

مرغريت

ما هذا الذى انشقت عنه الأرض؟ أهذا هو؟ أخرجته من هنا! ما الذى يبغيه فى
هذه البقعة الطاهرة؟ إنه يبغينى.

فاوست

يجب أن تعيشى.

(١) إشارة إلى عادة كانت متبعة فيما مضى. فكانوا يدقون الناقوس حين يساق المجرم إلى المشقة، ثم تكسر فوق رأسه عصا بيضاء قبل تنفيذ العقوبة.

مرغريت

يارحمة الله، ألقى بنفسى بين يديك.

إبليس

(لفاوست) تعال، وإلا تركتك وإياها يفعل بكما القضاء ما يشاء.

مرغريت

رب إنى أنا أمتك فأنقذنى. أيتها القديسون أحيطوا بى واحرسونى.

أى هنرى! إنى أرتجف فرقاً منك.

إبليس

كتب لها الهلاك !

أصوات من السماء

كتبت لها النجاة !

(إبليس لفاوست)

هلم وأسرع. (يخرجان).

صوت من داخل السجن يضعف تدريجياً

هنرى! هنرى!

الإشراف اللغوى : عزة شـبـل
الإشراف الفنى : محسن مصطفى